رغيد النحّاس
Raghid Nahhas

خطوطٌ وألوَان

Lines and Colours

كَلِمَات
Kalimat

رغيد النحّاس

خطوطٌ وألوَان

كَلِمَات

سيدني، أستراليا، 2022

خطوطٌ وألوان

Title: *Khotoot wa Alwan* (Lines and Colours)
Language: Arabic
First Edition 2022

Published by Kalimat, Sydney كَلِمَات
www.raghidnahhas.com

Cover & Book Design: Raghid Nahhas

Photography: Raghid Nahhas

Printed in Australia by Five Senses Education

© All rights reserved.
Apart from any fair dealing for the purposes of private study, research, criticism or review, as permitted under The Copyright Act, no part of this book may be reproduced or stored by any means, electronic or mechanical, without the written permission of the publisher/author.

ISBN 978-0-6485339-5-5

NATIONAL LIBRARY OF AUSTRALIA

A catalogue record for this book is available from the National Library of Australia

إلى عمّتي

عائدة النحّاس

التي "تحبّني كثيرًا"

من لا يقرأ بين السطور

قد يُضيع روح النصّ

رغيد

المحتويات

نقطة الانطلاق	7	سيناريو	56
الآلة الحدباء	11	كلمة واحدة	59
ومضات	12	الحبّ في زمن كورونا	62
مفارقات	16	نارنج 2021	65
آخر طبخة	17	ستة وماشي بالسبعة	67
هوامش غير رسميّة ...	18	نهاية وبداية	79
"واو"	25	ليلة الميلاد	81
خواطر بين الشعر والنثر	26	أضداد	82
التعمشق على ... العظماء	31	قائمة الطعام	83
الكائنات المجهريّة	35	تعاطف	85
أنبياء العصر الحديث	39	عندما كنت طفلًا	89
ثقافة الغيبيّات	40	أحبّك بالثلاثة	92
نسر وحمامة	42	العشاء الأوّل	94
إلى مدرّسة مجتهدة	45	هرولة	95
الزرّ الخفيّ	46	عمّة عايدة	99
سؤال	47	ها أنا هذا	106
بين الغريزة والوعي	48	زيارة	110
العقل والجسد	49	الطيّارة	115
يوم	50	أبواب	125
دعابة صباحيّة	51	ملامح من ثقافة الاستبداد	130
نهار وليل	52	أيادٍ غير مجهولة	138
شروق	54	كيف تعيد مجد بلادك	139

السّيدة رئيسة الوزراء	141	نعيم خوري: ذات تفيض ..	188
من الدكتاتور إلى القائد ...	143	نهاد شبّوع: هموم ...	210
الفكر والإرادة مستهدفان	148	بطرس العنداري: كلمة ...	216
ما انكسرنا ولكن ما اكتملنا	154	على ضفاف انتماء كاميليا	226
نيسان 1975	158	كاميليا نعيم: توظيف ...	232
أستراليا والمكانة الضائعة	162	نصوصٌ عاديّة	235
أوليغاركيّة	167	"الجذور" ببضع كلمات	247
شعوب لا حول ولا قوّة	178	كلمات حول "كلمات"	254
الثامن من تمّوز	182	لغة الماء، ولهجة النهر	282
السيّدة الأولى	184	امتنان	287
في انتظار العودة	185	منشورات سابقة	288

صور الكتاب

الصفحة	الصورة
الغلاف	تروندهايم، النرويج
10	نافباكتوس، اليونان (تصوير نجاة نظام)
24	شلّالات إيغوازو، أرجنتين-برازيل
44	حَمَام متوّج يرتاد حديقة دار المؤلّف في سيدني
64	شجرة النارنج في حديقة دار المؤلّف
91	بحيرات ضاحية تشريبروووك، سيدني

نقطة الانطلاق

هذا كتابي النثريّ الثالث، بعد "طلٌّ وشرر" و"نصوصٌ عاديّة". وهو كسابقَيْه يجمع بين المقالات والقصص القصيرة والنصوص، بهدف توظيف مختلف وسائل التعبير في نقل أفكاري في مرحلة معيّنة، سواء كانت هذه الأفكار انطباعات عن المرحلة الراهنة، أم أصداء لتجارب من أيّام الطفولة والشباب.

وكسابقيه أيضًا يحتوي على نصوص من كلمات كتبتها في مناسبات معيّنة تخصّني، أو تختصّ بأعمال آخرين. ولقد قدّمت شرحًا عمّا دعاني لذلك في كلمتي يوم إطلاق "نصوصٌ عاديّة"، وتجدونها في هذا الكتاب (ص235). وأضيف أنّ بعض تلك النصوص حوى اقتباسات من كلام آخرين حول إنتاجي ونشاطي، والهدف من ذلك الحفاظ على موضوعيّة الطرح ما أمكن، والتعبير عن ابتهاجي بتلك المشاركات.

كثير من النصوص تأتيني فكرته وأنا أقوم بمسيرتي الصباحيّة اليوميّة في ضاحيتنا المتميّزة بهضابها وكثرة أشجارها ونباتاتها وطيورها وزواحفها وحشراتها وثدييّاتها، يضاف إلى ذلك ما أبدعته أيادي السكّان في تخطيط حدائقهم، وإضفاء ألوان الحياة عليها. هذا المحيط يغذّي النقاء الفكريّ، ويسهم في قدح الفكرة الأساس، وكثير من الخطوط التي ستنتقل فيها الأفكار إلى لغة للتواصل مكتسية بألوان تتناسب مع شكلها واتجاهها.

فكلّ خطّ يبدأ بنقطة، وكلّ مساحة لون تبدأ بنقطة. نقطة الانطلاق التي نبني عليها.

هذا التشابك الذي يتراءى لي يجعلني أطيل المسير من ناحية، ومن ناحية أخرى الإسراع في العودة إلى مكتبي لأدوّن الأفكار قبل أن تفلت من ذاكرتي، وتذهب هباءً كحلم نعلم جيّدًا أنّنا عشناه، ولكن لا نعلم تفاصيله.

الأحلام بنظري هي انعكاس لهواجس النفس نسترجع من خلالها أحداثًا مضت، منها ما أسعدنا ولا زال يسعدنا، ومنها ما أقلقنا ولا زال يقلقنا. وكثيرًا ما نرى هذه الأحداث مختلطة زمنيًّا أو مكانيًّا، أو تأتينا منتقاة من عدّة أحداث مختلفة فنركّبها في قصّة جديدة. وربّما نكون في كثير من تركيبنا نحاول وضع مشاعرنا قيد الاختبار لنرى إن كنّا سنصل إلى حقيقة معيّنة.

تصبح القصّة في بعض الأحيان مغايرة لما سبق أن حصل بشكل يجعلنا نعتقد أنّها حدث مستقبليّ، بل أنّ لنا القدرة على التنبّؤ بما سيحدث، وهذا ما يبعث الرعب أو الأمل في النفس وفق نوع المشاهدة.

إنّه مسرح العقل الباطن، يصول فيه ويجول، ونحن في حال غيبوبتنا المؤقّتة. وأنا، مثل غيري، أنسى معظم الأحلام وأتذكّر قليلها، لكنّني أستمتع بها كثيرًا على اختلافها، ولا ترعبني مهما بلغت وحشيّتها. بل أستمّد منها مادّة للكتابة.

إذا استثنينا مرحلة بداية الطفولة، التي يغيب عنّي كثير من تفاصيلها، لا أذكر أنّني استيقظت برعب بسبب حلم معيّن سوى مرّة واحدة طيلة حياتي. الطريف أنّ الحلم لم يكن عن

وحوش تحاول التهامي، أو سجّان يضربني بالحديد والنار، ولا عن مسلّح يحاول قتلي، أو مجرم يتعرّض لعائلتي. الحلم كان مجرّد مجموعة من الخطوط والألوان التي كانت تتراقص وفق تشكيلات هندسيّة منتظمة على غاية في الدقّة والتناسق والجمال. ربّما لم تدم مشاهدتي سوى عشرين ثانية استيقظت بعدها جالسًا في فراشي وأنا أرتجف رعبًا وعجبًا وحيرة.

يمكن تفسير هذا الحلم بعشرات الطرق، لكنّ أصعب ما يمكن توضيحه هو كيف للوحة فنّيّة جميلة، استمتعت بها، أن تدفعني لردّة فعل من الذعر؟

ذكرى ذلك الحلم لم تبرح مخيّلتي منذ عشرات السنين إلى اليوم. هل كانت النذير الأوّل في ترشيدي إلى أنّني يمكن أن أعبّر عن تفاصيل أفكاري بالخطوط والألوان؟ هل لهذا العصر الرقميّ تأثير على استعمالي لـ"الخطوط"؟ وهل الألوان تلحّ في ذهني كما تلحّ لوحات فنّاني عصر النهضة؟ هل هي هوايتي في التصوير التي تجعلني أتّخذ خطًّا معيّنًا لالتقاط لوحة بكلّ ألوانها الطبيعيّة؟ أم لأنّني أحبّ التصوير بالكلمات؟

على الأقلّ يمكنني توظيف التجربة لصالح الكتاب الحاليّ: خطوطٌ وألوان.

مرغيد

الآلة الحدباء

عندما تُفَصّلون تلك الآلة الحدباء التي ستحمل جثماني، ابحثوا عن موادّ لا تضرّ بالبيئة.

يكفي أمّي الأرض همًّا أنّها ستتلقّف روحي وبقايا جسدي المليئة بالجحود والأغلاط والعبث والتبذير ...

ومضات

أغنيتي

أغنّي مع الكون. أبحث عن ذاتي في الآخر، وعن الآخر في ذاتي. قلبي وعقلي كلّ واحد.

مزاجان

أكتب بمزاجين ممزوجين: العقل والإحساس. لذلك تراني حين أقرأ ما أكتب من جديد أفهم الكثير. لكنّني دائمًا أكتشف ما ارتدى "قبّعة الإخفاء"، وهامَ بين السطور.

لغة الماء

وأنت تتحدّث بلغة الماء، لا تهمل لهجة المطر، والجداول، والسواقي، والأنهار، والبحيرات، والبحار، والمحيطات.

استحقاق

لا تبخل عليّ بما أستحقّ ، ولكن لا تعطني ما لا أستحقّ.

اغتيال

اغتيال الحرّيّة الفكريّة أسوأ الإرهاب.

الحبّ للأبد

لماذا نواصل الكتابة عن الحبّ، والطغيان يسود العالم؟
لأنّ الحبّ هو الحياة، ونحن دعاة حياة.

اختراع الانتصار

هنالك شعوب لا تحبّ أنْ تنهزم، لكنّها لا تعرف كيف تنتصر. وتمضي تاريخها قصائد وطنيّة، وأحاديث، وأوهامًا مصنوعة في الجنّة.

معجزة

الأمّة التي تنتظر معجزة سماويّة لإصلاح حالها، مصيرها الهلاك.

اختزال

متخلّفةٌ، مجرمةٌ، شقيّةٌ، تافهةٌ تلك الفئات التي ترى أنّ قيمة المرأة في خرقة تغطّي بها رأسها، وغشاء تصون به فرجها.

استلاب

عندما يتبنّى ملايين الناس الخرافات، تصبح الخرافات حقيقتهم المهيمنة. وهكذا يسهل غسيل الدماغ الجماعيّ، ويربح المحتالون قيادة القطعان مسلوبة الإرادة.

اختلاج

هنالك مشاعر مهما عتقت تختلج دائمًا بنبض المستقبل.

عيش وحياة

حين يفقد المرء أسباب العيش، قد يدفعه طموح الحياة ليستمرّ. وقد يموت حين يفقد أسباب الحياة.

التعوّد والحبّ

لمجرّد أنّ رائحة الورد مألوفة لديّ، لا يعني هذا أنّني سأتوقّف عن الاستمتاع بها.

الزفاف

وما الزفاف سوى بداية، والعبرة في ديمومة الثمار.

طريق الحبّ

تسألني: "أين نذهب؟"
أجيب: "نمشي في طريق كلّما داستها قدم لك تنبت على جانبها ياسمينة."

منزلي

الأمّ: "هل أنت سعيد يا حبيبي أنّنا نحاول الانتقال إلى منزل أكبر وأجمل؟"
الصبيّ ابن السنوات الأربع: "يا ماما أنت منزلي."

إشارات

تحذّرنا أمّنا الأرض، برسائلها الغرّاء، من أفعالٍ تقلقها. لكنّ أكثرنا يفضّل الاستماع إلى رسائل السماء. ولهذا سيلقى كوكبنا بئس المصير، ويؤول كلّ شيء إلى فناء.

عناق

حين يلتقي اللحم بالحجر، يعانق الحيّ أصله، وأنّه من هذا الجماد انفجر.

مفارقات

يا سوء ما يفعله بعض الضالعين من اللغة العربيّة حين يوظّفون فصاحتهم وبلاغتهم في إبهار الناس وجذبهم، بينما هم في الواقع يروّجون لأفكارهم المتهافتة المبتذلة، أو لأكاذيبهم ونفاقهم.

هم بذلك كالذي يتقن الوزن الشعريّ دون أنْ يشكّل ما يكتب شعرًا.

وهم بذلك كالذي يأتيك مرتديًا ثوب الطبيب، وإنّما يحقن في وريدك سمًّا لا ترياقًا.

هم يختزلون أنفسهم لعارضة أزياء فاخرة، لا لبّ لها ولا قلب.

آخر طبخة

من آخر الابتكارات أن يقوم البعض بوضع لائحة من الأسماء أو الأشياء، يَصُفُّها صفًّا، الواحد فوق الآخر، ويقدّم النتيجة على أنّها "قصيدة".

صار بإمكاننا الآن أن نقول إنّ الطهاة كلّهم شعراء: ألا يقدّمون لنا لوائح الطعام؟

هوامش غير رسميّة لمحبّ للّغة العربيّة

اللغة، بما في ذلك اللغة العربيّة، كائن عضويّ ينقل الأحاسيس والصور، يتفاعل، ويتطوّر، وينضج. ويتعدّى كونه مجرّد وسيلة للتواصل ليصبح جزءًا لا يتجزّأ من ثقافة الجماهير التي تتكلّم لغة معيّنة.

وللحفاظ على مستوى ورصانة اللغة، لا بدّ من مرجعيّة متخصّصة تساعد على تطوّر اللغة بطريقة تحافظ على جمالها ورصانتها، وفي الوقت عينه تساعد على انتقاء المشتقّات الحديثة لاستيعاب ما يأتي من طريق التفاعل الثقافيّ العالميّ.

سجّل يوم الثامن عشر من كانون الأوّل 2020 مضيّ سبعة وأربعين عامًا على اعتراف الأمم المتّحدة باللغة العربيّة لغة رسميّة. أي أنّ لهذه اللغة حضورًا عمليًّا لا يمكن تجاهله. الأهمّ من هذا كونها من اللغات الحيّة الرائدة.

أميّز نوعين، على الأقلّ، من المتحمّسين للّغة العربيّة: نوعًا متزمّتًا لا يقبل التغيير، ونوعًا يريد التحرّر من كلّ القيود. كلا النوعين خطر على اللغة. الأوّل يخنقها، والثاني يهدمها.

لا شكّ أنّ مجامع اللغة العربيّة، وبعض الجامعات والمؤسّسات تقدّم خدمات جليلة في هذا المضمار، ولكن لا زالت هناك حاجة ملحّة لتوحيد المرجعيّة عوضًا عن خلق قواعد مختلفة بين المستخدمين للّغة العربيّة. اختلاف الرأي ضروريّ، وهو السبيل إلى الوصول إلى نتائج أفضل. ولكنّه يجب أن يوظّف في سبيل اللغة، لا مجد المؤسّسة أو الأشخاص.

من التطوير الذي حصل مؤخّرًا هو كتابة الهمزة على نبرة في وسط الكلمة، بغضّ النظر عن حركة ما قبلها، وذلك بعد السين والشين، مثل قولنا "شئون". لكنّ هذا التطوير لا يُعتَمد من كلّ مستخدمي اللغة. ففي البلاد الشاميّة، التي أنا منها، نقول "شؤون". وليس لديّ مانع أبدًا من تغيير عادتي إذا توحّدت المرجعيّة. ولكنّ مستخدمًا للّغة مثلي، وغير مختصّ في هذا المجال، يحار ما يفعل. الحلّ هنا هو أن تقبل كلّ الجهات المختصّة في مختلف المناطق الناطقة بالعربيّة بوجوب إيجاد قاعدة موحّدة.

أحيانًا يكون التحديث غريبًا. مثلًا فوجئت حين علمت (ويرجى ملاحظة أنّني بعيد عن مركز اللغة العربيّة جغرافيًّا واختصاصًا وممارسة فعليّة) أنّ التنوين الذي اعتدنا كتابته على الألف في نهاية الكلمة صار يكتب على الحرف ما قبل الألف، إلاّ إذا سبق ذلك الحرف ألف أخرى. مثلًا أنا كنت أستعمل "موطناً"، بينما يجب أن تكون "موطنًا" وفق القاعدة الحديثة التي نوّهتْ أنّ الاستعمال السابق غلط أصلًا.

وسؤالي هنا أنّه، إذا كان المراد تسهيل الأمور، لماذا لا نكتبها "موطنً" دون الألف، على غرار ما نفعل حين نقول "موطنٌ" و"موطنٍ"؟ أوليس "إصلاح" الأمور فرصة للتطوير والتغيير والتبسيط؟

القاعدة الحديثة عينها تقول لنا إنّه يجب أن لا نقول "رداءًا" لأنّ وجود الألفين متجاورتين غير مستساغ (للنظر). أي يجب أن نقول "رداءً". إذا قبلنا ذلك هنا فما الذي يمنع من القول "موطنً" كما أسلفنا؟

الطريف في الأمر أنّ بعض هؤلاء المجدّدين يتمسّك بقاعدته الجديدة بتعصّب شديد غير قابل للنقاش، وبذلك يصبح هو التجديد لاستمرار التزمّت.

صدف بعد كتابة هذا النصّ أنّني كنت أقرأ كتابًا فيه أبحاث لعدد من الأكاديميّين والباحثين الضالعين من اللغة العربيّة والآداب والتاريخ. فوجدت اختلافًا في استعمال التنوين بين الكتّاب. ووجدت كاتبًا واحدًا يستعمل عبارة "من طريق" (حين يقول مثلًا: "حصلت على كذا من طريق كذا") وهو التعبير الصحيح، بينما الآخرون كلّهم استعملوا "عن طريق"، وهو غلط شائع على ما أظنّ. لكنّ إحدى المتخصّصات في الأدب العربيّ خبّرتني أنّ لديها مراجع تجيز استعمال "عن طريق". طبعًا، بالنتيجة يمكن استعمال حرف الجرّ المناسب للمعنى الدقيق المطلوب. وفي رأيي أنّ حروف الجرّ هي من أهمّ الأدوات التي تحدّد المعنى، وهي من أصعب ما نجيد استخدامه.

وأحيانًا تكون اللغة الفصحى سهلة ومفهومة لدى العامّة التي قد تستخدم كلمات فصيحة في سياق حديثها، مثل كلمة "طبعًا". ولكنّ بعض المجدّدين يقحمون الكلمات العامّيّة دون مبرّرات كافية. مثلًا حين نريد أن نقول "شَبَكَ"، لا أرى داعيًا لاستعمال "شرْبَك" لمجرّد ادّعاء الحداثة أو الجرأة.

طبعًا أستعمل أحيانًا عبارات "عامّيّة" في سياق سردي الفصيح، وذلك لأسباب فنّيّة في النصّ، لا بدعوى اعتماد هذه الكلمات بالفصحى. كما أنّ هناك كلمات عامّيّة دخلت قواميس الفصحى مثل "دكّ" و"دكّكَ". أنا لست ضدّ ذلك، إن تمّ وفق شروط "صحّيّة".

أعلم تمامًا أنّ استعمال "الشدّة" في التشكيل أمر ضروريّ وأساس. الشدّة هي بمثابة حرف ثان، ولا حاجة هنا لسنّ قاعدة جديدة.

يدعو بعضهم لتشكيل الكلمات بشكل كامل. لكنّ هذا، برأيي، أمر غير ضروريّ، وإنّما يجب استعمال الحكمة، وتشكيل بعض الكلمات التي قد تسبب لغطًا عند قراءتها غير مشكّلة (مثلًا لو حذفنا الشدّة عن كلمة "مشكَّلة"، لأمكن قراءتها "مُشكِلة"). أي التشكيل ضروريّ للتوضيح في حالات معيّنة.

وتبقى حالات بحاجة للبحث. مثلًا، كلمة "عامّيّة" فيها شدّتان متتابعتان. هل من الأفضل في هذه الحال أن نستخدم واحدة فقط؟ وأيّ واحدة نحذف؟ أنا أفضّل إبقاء الشدّة على الياء فقط.

رافق الثورة الصناعيّة استنباط كلمات جديدة، وهذا واضح فيما يسمّى "أسماء الآلة" مثل "غسّالة" و"سيّارة". وهي اشتقاقات قديمة جديدة ولعلّها من أجمل الاشتقاقات.

وعلى الرغم من استعمال "آلة تصوير"، لكنّ "كاميرا" مستساغة، ودخلت العربيّة دون استئذان. وكذلك طغت استعمالات أخرى مثل "كومبيوتر" عوضًا عن "الحاسوب"، و"إيميل" عوضًا عن البريد الإلكترونيّ. وعلى الرغم من وجود الكلمات العربيّة المقابلة، وإمكانيّة الاشتقاقات الجديدة، إلّا أنّ عالميّة بعض الكلمات هي السائدة.

تجري العادة في الغرب أنّ المعاجم الإنكليزيّة يتمّ الإضافة إليها كلّ سنة حتّى تكون مرادفة للتطوّرات في الاستعمال. لكنّ المعاجم العربيّة لا زالت تعاني من جمود كبير، وربّما استطاعت "الإنترنت" (الشبكة العنكبوتيّة) حلّ بعض هذه المشاكل. لكن تبقى المعاجم الرسميّة متأخّرة عن الركب. كما أنّ هناك مشكلة أخرى وهي أنّ المعاجم العربيّة في معظمها لا زالت تستخدم طريقة ردّ الكلمة إلى جذرها، ولا يمكنك مباشرة إيجاد معاني بعض الكلمات. أعتقد أنّه آن الأوان ليتوفّر لنا معجم عربيّ لا نحتاج فيه إلى التصريف من أجل إيجاد كلمة، ولا إلى عبارة "أنظر كذا" إذا بحثنا عن كلمة عند حرفها المناسب، ولكنّ المعجم ارتأى أن يعطي الإجابة أمام تصريفٍ آخر للكلمة.

قيل لي إنّه يوجد معجم على هذا الشكل. والواقع هناك مراجع كثيرة، لكنّ تبويبها وطريقة الشرح فيها لا تبدو لي عصريّة. وأنا شخصيًّا أعاني من صعوبة كبيرة في الحصول على ما أريد

من مراجع اللغة العربيّة المتوفّرة لدي. وأعترف أنّها قليلة، وربّما كان أحد الأسباب عدم تمرّسي في هذا المجال. لكن ألا يجب أن تكون مراجع اللغة سهلة على كلّ الناس الذين ينطقون بها؟

خبّرتني أستاذة مختصّة أنّها تعتمد على قاموس عربيّ-إنكليزيّ ألّفه وحرّره غربيّان، فتقوم بالتأكّد من صواب المعنى العربيّ المراد من المرادفات الإنكليزيّة. وهو على حدّ قولها من أفضل المراجع لديها (ليس فقط لمعرفة المعنى الإنكليزيّ المرادف، بل لمعرفة كيف تستعمل التراكيب والمصطلحات العربيّة. أي أنّها تصل إلى مرادها العربيّ بصورة غير مباشرة من طريق المدلولات الإنكليزيّة). أنا أفضّل طبعًا أن يكون هناك معجم عربيّ-عربيّ متطوّر تضعه مؤسّسة عربيّة بحيث يدلّني بسهولة ليس فقط على معاني الكلمات، بل كذلك على المصطلحات والتراكيب بمختلف استعمالاتها ومدلولاتها.

حين كنت يافعًا، كان يرد في الترجمات عن الغرب أسماء مثل "إليصابات". وهذه محاولة لتعريب اسم "إليزابيث". وهذا قمّة المبالغة برأيي. طبعًا لم نعد نجد هذا الاسم، أو ما شابه هذه "الغلاظة"، في وقتنا الحاضر. اسم العلم يجب أن يأتي كما هو. أما في الحالات الأخرى، وفي حال ضرورة التعريب، يجب العمل على الاشتقاق بحكمة وفنّ وذوق. ويجب التبسيط ما أمكن، والاعتماد على ما صار دارجًا، وتهذيبه إن لزم الأمر. المهمّ أن تُعطى هذه اللغة الفاتنة حقّها من القدر والحبّ والجمال. والمهمّ جدًّا أن تتماشى مع العصر، وتستفيد من تجارب اللغات الأخرى لتكون مرآة أمينة للثقافة العربيّة، وفي الوقت عينه

وسيلة للتواصل مع الثقافة العالميّة. كلّما كانت المصطلحات متماهية مع العصر، كلّما استطاعت الترجمة أن تنقل المعاني بصورة أدّق. والأهمّ من ذلك، أن تستطيع الشعوب استيعاب التطوّر العالميّ.

"واو"

كانت تلك سنتي الأولى كتلميذ للعلوم في الجامعة الأميركيّة في بيروت. وكانت من ضمن الموادّ المفروضة علينا، في برنامج الفصل الأوّل، مادّة اللغة الإنكليزيّة المسمّاة "إنكليش 201".

كنت بارعًا في تلك المادّة، وكانت مواضيع الإنشاء التي أكتب تنال إعجاب المدرّسة الشابة رائعة الجمال. وذات يوم أكالت بمديحها على أعمالي أمام التلاميذ، لكنّها أضافت: "رغيد، يجب أن لا تبدأ الجملة بـ'و'".

أجبتها: "لكنّ إرنست همينغواي يفعل ذلك."

قالت بتهكّم واضح: "ولكنّك لست همينغواي، بحقّ السماء!"

خواطر بين الشعر والنثر

يسألني البعض كيف أقيّم ما هو الصالح من الشعر الحديث، وما هي المقاييس والمعايير التي أستخدمها، خصوصًا من موقع المسؤوليّة كمحرّر وناشر.

وأقول مباشرة إنّني لا أملك إجابة "علميّة" عن هذا السؤال. ولكنّني أوّد عرض بعض النقاط التي قد توضّح كيف أتعامل مع هذه المسألة، خصوصًا أنّه لا توجد حتّى الآن مقاييس واضحة كما هي حال الأوزان والقافية في الشعر التقليديّ.

أنا لست متمرّسًا على الإطلاق في الأوزان الشعريّة، لكنّني أعتبر من يستطيع توظيفها في خدمة الأفكار والموسيقا الداخليّة، ولا يعتبرها غاية بحدّ ذاتها لمجرّد القول إنّه أنتج شعرًا، أعتبره أجمل الشعراء. أمّا ذلك الذي يجنّد الوزن والقافية في سبيل صفّ الكلام وحشو المفردات ليكتب عشرات الأبيات دون أنْ يكون لمعظمها قيمة جماليّة أو فكريّة، فلا يمكنني اعتباره شاعرًا لمجرّد أنْ تستّر بعباءة الصنعة الشعريّة الآليّة المتجرّدة عن الحسّ الفنّيّ الذي هو أساس الموسيقا الداخليّة التي تُميّز الشعر عن السفسطة. بعبارة بسيطة:

ليست عظمة الشعر الكلاسيكيّ بالأوزان والقافيّة فقط، بل إنّ الأوزان والقافية يجب أنْ تأتي في آخر المراتب برأيي، وهي ما يُسخّر في خدمة الإيقاع والموسيقا.

وأعرف بعض الأشخاص الذين لا يجيدون الوزن الشعريّ تمامًا، ولكنْ لديهم مقدرة جيّدة على الكتابة، يلجأون إلى استخدام قصائد من الشعر الكلاسيكيّ، ويدخلون في إطارها كلماتهم هم لتأتي موزونة. هذا هوس بالشعر الكلاسيكيّ دون مبرّرات أدبيّة، لأنّ بإمكان الكاتب أنْ يلجأ إلى الشعر الحرّ أو النثر، عوضًا عن توظيف مهارة غيره (عادة كبار الشعراء) في خدمته الخاصّة.

أمّا الذي يبرّر عجزه عن توظيف الوزن الشعريّ في خدمة قصائده، على أنّه يريد التحرّر من القيود التي تكبّل عمليّة الإبداع، فأعتبر تبريره غير مقبول، لأنّ هناك من الشعراء التقليديّين من قدّم أعظم الشعر دون أنْ تكبّله القيود، لأنّه سيّد في تسخيرها لمصلحته. المسألة مسألة موهبة. ولا حاجة لتبرير عجزنا عن كتابة الشعر الموزون، لأنّ الشعر الحرّ يمكن أنْ يكون عظيمًا أيضًا.

بيد أنّ المشكلة التي نعاني منها اليوم هي أنّ هناك انفلاتًا وابتذالًا كبيرين في الكتابة بحجّة التحرّر من القيود. الذي لا يتمكّن من كتابة الشعر بإمكانه كتابة النثر إن كانت لديه المقدرة. النثر الجيّد يمكن أنْ يبزّ الشعر، ولا شكّ أنّه أفضل من الشعر الرديء. والتحرّر من القيود التقليديّة الشعريّة لا يعني كتابة أيّ شيء يخطر على البال ونسمّيه شعرًا.

كما أنّ السؤال الذي يمكن طرحه هو كيف نميّز النثر الجيّد عن النثر الرديء. من حيث المبدأ، أيّ معايير نستخدمها، لن تتضمّن الوزن والقافية، بل ستتعلّق بالبلاغة واللغة والتراكيب والأفكار. المعايير عينها يمكن توظيفها في تقييم الشعر الكلاسيكيّ الذي يتميّز بالوزن والقافية وهما ما يعطيانه شكله الأساس. طبعًا هناك المضمون الذي يميّز، ضمن أشياء أخرى، كلّ حقبة زمنيّة. لكنْ مهما كان المضمون، بإمكاننا دائمًا تقييم الناحية الأدبيّة للعمل بغضّ النظر عن موافقتنا على المضمون أم لا.

وسأكون قاسيًا هنا فأقول إنّني في بعض الحالات قرأت كتبًا جميلة الشكل والمظهر، مليئة بالطيبة وحسن النيّة، مفعمة بالحبّ، ولكنّ نصوصها لا ترقى إلى نصوص كتبها تلاميذ مدرسة ابتدائيّة، مع أنّها كتبت من قبل بالغين راشدين، بعضهم مختصّ بالأدب العربيّ، وبعضهم يتمتّع بمكانة مرموقة على أكثر من صعيد. في هذه الحالات لا يصعب أبدًا تمييز هشاشة هذه الكتابات، لأنّها لم تصل لمستوى أيّ معيار أو مقياس فكريّ أو أدبيّ. أي أنّ تهافتها واضح، على الرغم من عدم وجود من يصرّح بذلك في وجه هؤلاء الكتّاب، بل على العكس، ربّما يجري الاحتفاء بأعمالهم ومديحهم. هذه ظاهرة لا أستطيع تفسيرها، وهي قطعًا ليست نتيجة للعوامل الذاتيّة التي أذكرها فيما يلي. وأنا شخصيًّا لا أوافق على من يبرّر أعمال هؤلاء الناس بحجّة أنّهم "أحرار، وكلٌّ مسؤول عمّا يقول أو يفعل".

الأمور الأدبيّة تخضع للعوامل الذاتيّة أكثر من خضوعها للعوامل الموضوعيّة. أيْ أنّ الذوق والتلقّي الخاصّ يلعبان دورًا كبيرًا في التقييم. ولكنْ ليس كلّ من يقوم بالتقييم لديه المقدرة على تمييز الغالي من الرخيص. التقييم الجيّد، حتّى لو كان متأثّرًا بعوامل ذاتيّة، يكون مبنيًّا على ممارسة ذكيّة في اكتناه جوهر الأمور، وخبرة ببعض المعايير والمقاييس غير المكتوبة، وإنّما مجبولة بالذكاء الأدبيّ والعاطفيّ الذي يتحلّى به من يقوم بالتقييم.

من أهمّ العوامل التي أتفحّصها أثناء مراجعاتي الأدبيّة للتمييز بين الشعر والنثر: تقطيع السطور، وكون كلّ سطر قد حمل معه ما يكفي من السلاسة والموسيقا الداخليّة والأفكار ما يبرّر هذا التقطيع. أيْ أنْ يكون كلّ سطر بحدّ ذاته نغمة متميّزة تخدم ذاتها، وكذلك تشكّل جزءًا من مقطع، وبالتالي القصيدة كلّها بما يخدم تماسك النصّ، وإيصال الفكرة والعواطف كما تصلنا حين نستمع إلى سيمفونيّة.

من أجمل ما يمرّ عليّ من مراجعات هو حين تأتيني نصوص من أشخاص غير متمرسين بالوزن الشعريّ، لكنّ أعمالهم على غاية في الرقيّ الأدبيّ. بعض نصوصهم النثريّة تكون مفعمة بالموسيقا الداخليّة لدرجة أنّني بسهولة أقطّع النصّ، في مواضع مناسبة، إلى سطور فيتحوّل دون عناء إلى قصيدة شعر حديث. وبعض نصوصهم الأخرى، رغم بلاغتها وسلاستها، لا تصلح إلاّ أنْ تبقى نثرًا، لأنّ في بقائها هذا تحقّق أصالتها، ولا تفقد من رونقها أو تماسكها.

هؤلاء تكون أعمالهم بالأصل على مستوى يجعلها فوق النثر والشعر. أيْ أنّ قضيّة كونها نثرًا أم شعرًا تصبح قضيّة تفصيليّة ثانويّة بالنسبة لقيمة العمل. ولعلّ محمّد الماغوط من أروع من يمثّل ذلك.

وهنا أوضّح، حتّى لا أُفهم على غير ما أقصد، أنّني لا زلت أؤمن أنّ الشعر شعر (حتّى لو كان حرًّا) والنثر نثر، ويجب أنْ لا نوحّدهما بحجّة الحداثة.

التعمشق على أكتاف العظماء

أنا عضو في مركز كتّاب الولاية عندنا، وتصلني منهم معلومات بشكل مستمرّ حول مختلف النشاطات.

منذ سنوات، وقبل نشر مجموعتي الشعريّة الأولى باللغتين الإنكليزيّة والعربيّة، كنت حريصًا على أنْ تتمّ مراجعتها من قبل شعراء مختصّين. وحين تلقّيت دعوة من مركز الكتّاب للمشاركة في دورة لتقييم الأعمال الشعريّة، وجدتها فرصة عظيمة لكسب الرأي والخبرة حول هذا الموضوع.

الذي يدير الدورة هو واحد من شعراء أستراليا البارزين. دفعت الرسم المطلوب، وأرسلت لهم، قبل شهرين من اليوم المحدّد، عشر قصائد من أعمالي، وهو الحدّ الأقصى المقبول. القصائد تذهب إلى الشاعر فيدرسها، ثم يلتقي مع من تقدّم بها للمناقشة.

ذهبت في الوقت المحدّد المخصّص لي، والتقيت بالشاعر.

كانت بين يديه نسخة مطبوعة عن قصائدي، وانتبهت أنّ عليها بالحبر الأحمر ثلاث ملاحظات فقط، أطولها ثلاث كلمات. تناقشنا في بعض القصائد، ووصلنا إلى واحدة اعتَبَرَها كلّ من قرأها أنّها أهمّ عمل قدّمته إلى حينه. لكنّ صاحبنا قال لي إنّها

أقلّ القصائد جودة، وأشار، بطريقة تهكّميّة، إلى الإهداء الذي وضعته بعد العنوان.

العنوان كان شبيهًا بعنوان واحدة من أهمّ القصائد التي عرفها الأدب الإنكليزيّ لواحد من أهمّ الشعراء. وأنا أردت أنْ أكون أمينًا، وأنْ أبدي احترامي ومحبّتي لهذا الشاعر، الذي لا أرقى إلى مستواه الشعريّ طبعًا، بأنْ أؤكّد على مصدر العنوان.

سارعت إلى القول إنّني على استعداد لحذف هذا الإهداء إذا كان هو سبب المشكلة. عندها قال لي الشاعر: "إذا كان الأمر كذلك، فهذه أفضل قصائدك، وهي رائعة حتمًا."

تعجّبت كثيرًا، ولكن من الواضح أنّه مهما كانت النيّة، هذا الإهداء، بهذه الطريقة، وفي هذا الموقع، لم يكن مناسبًا من وجهة نظر "أنكلوسكسونيّة". بيد أنّ عجبي كان بسبب أنّه كان يمكن للشاعر أنْ يلفت نظري إلى مشكلة الإهداء دون أنْ يعتبر القصيدة سيّئة بسببه، ثم تصبح القصيدة جيّدة بدونه.

دفعني هذا للتأمّل في البون الشاسع بين التفكير الغربيّ والشرقيّ، بشكل عامّ طبعًا. ففي الوسط الثقافيّ الغربيّ هناك ميل للتواضع وعدم إبراز النفس بأكثر ممّا هي عليه، وتجنّب كبير للمبالغات. لذلك اعتبر هذا الشاعر أنّ محاولتي قد تكون بهدف التزلّف، أو أنّها مبالغة لا مبرّر لها. مع العلم أنّ الأمر لم يكن كذلك مطلقًا، ولا يرد هذا في أعمالي عادة سوى عند الضرورة الملحّة. ولكنْ كيف له التأكّد من أنّني أشذّ عن القاعدة، وهو يرى العشرات ممّن يكتب يستعمل هذه الأساليب الرخيصة بغية إبراز النفس على حساب العظماء؟

دفعتني هذه الحادثة لزيادة تمعّني في أساليب الناس. مثلًا يميل البعض، خصوصًا كما يكثر على صفحات فيسبوك، إلى إهداء كلامهم، أو أعمالهم، أو موادّ مثل الصور أو الأغاني إلى مشهورين، وأحيانًا يشيرون إليهم بـ"صديقي العزيز"، لمجرّد الصداقة على فيسبوك، أو اللقاء مرّة واحدة، أو حضور ندوة أو حفلة يتواجدون فيها، ويلتقطون معهم صورًا تذكاريّة يستعملونها كتأكيد على العلاقة، بينما هي تبدأ وتنتهي بمجرّد التقاط الصورة. وكلّنا يعلم أنّ أيّ مشهور قد لا يمانع من التقاط الصور مع "المعجبين"، من باب اللياقة والمصلحة، رغم أنّه لا يعرف من هم، ولن تكون له معهم أيّ صلة.

الأخطر من هذا بعض من يراسل المشاهير، مثلًا "شويعر" يرسل مجموعة شعريّة من تأليفه كإهداء إلى شاعر مشهور، وحين يأتيه الردّ اللبق، والذي من الواضح أنّه ليس استحسانًا للعمل، بل تخلّصٌ من المعضلة، لأنّ من غير المألوف أن يردّ عليه أنّ عمله لا يرقى إلى الشعر مثلًا، وهو أصلًا لم يطلب النقد. لكنّ صاحبنا يستغلّ مجرّد حصوله على أيّ رد من شاعر كبير ليطبّل الدنيا على أنّه على علاقة وثيقة معه، ويدّعي صداقته، وأنّه يزكّي شعره.

طبعًا هناك من يفعل ذلك ويكون صديقًا فعليًّا للشخص المعنيّ، ولكنْ حسب ردّة فعل الشاعر الأستراليّ أعلاه، هل يليق بنا القيام بذلك؟ أعتقد أنّ الأمور مرهونة بأوقاتها وظروفها. المهمّ عدم الابتذال. تصل هذه الأمور لدرجة المرض برأيي، وهي واضحة لدى البعض من أصحاب الثقافة العربيّة.

مثلًا، تذهلني وتضحكني تلك المنشورات التي تعود للشخص نفسه/ها حين يذكر بين كلّ جملة وأخرى أقوال رسوله الكريم، وفضائل دينه العظيم، ليدعم حجّته، أو يبيّن أنّه وعقيدته على حقّ في كلّ شيء على الإطلاق: سواء فيما يتعلّق بتلك الحرائق التي تلتهم الغابات، أو الأمطار التي تطفئها، ثم تغرق البلاد والعباد. ثم في مناشير أخرى يكيل السبّ والشتيمة على مؤمنين آخرين لمجرّد أنّهم من غير مذهب، أو لأنّهم يناضلون في حماية وطنهم، ولكنّه يختلف معهم في الرأي، ويفضّل التحالف مع من يغزو بلاده حتّى لو كان لا يمتّ إلى الدين والخلق بصلة.

ويتمّ "التعمشق" ليس فقط على أكتاف العظماء، بل على كلّ ما يمكن التعمشق عليه. مثلًا كما تتصرّف تلك المؤمنة المتديّنة التي لا تفتأ تصوّر نفسها في حركات استعراضيّة فيها من الدلال والغنج ما يجلب الأنظار ويستفزّ الغرائز. وهذه الصبيّة التي تشارك في ثورة بلادها، ولكن مع كلّ منشور لا بدّ أنْ تبرز قوامها وساقيها المكشوفتين في مقدّمة للحديث عن تلك الثورة الرائعة.

المتمكّن المتصالح مع نفسه، الذي يقدّم مادّة راقية، ليس بحاجة للتعمشق على كتف أحد، ولا على إبراز مفاتن الجسد للترويج لعمل فكريّ أدبيّ.

يستثنى من ذلك الترويج للدعارة طبعًا.

الكائنات المجهريّة

اليوم ذكرى أوّل إصابة بفيروس كوفيد 19، تمّ تسجيلها في أستراليا يوم 2020/01/25.

وجاء في تعليق لإذاعة البثّ الخاصّ، يتضمّن أقوالًا للبروفسور بول كيللي رئيس أطبّاء أستراليا، في هذه المناسبة، أنّ من أهمّ المشاكل التي واجهت الدولة هو نقل المعلومات بصورة دقيقة إلى الجاليات من خلفيّات ثقافيّة ولغويّة متنوّعة. كما أنّه تمّ اكتشاف أغلاط لغويّة أساس في البيانات الصحيّة الفيدراليّة، وتلك الصادرة عن الولايات.

ونوّه البروفسور كيللي أنّ محاولة الموازنة بين السرعة والدقّة هي واحد من تلك العوامل التي أثّرت على تلقّي المعلومات.

ويبدو أنّ هذا ما دفع الحكومة الفدراليّة إلى تشكيل مجموعة كوفيد 19 صحيّة استشاريّة، تختصّ بالجاليات متنوّعة الثقافات واللغات.

وهذا ما يدفعني للتفكير في مزايا ما تحاول أن تقوم به الدولة، ولكن في الوقت عينه مساوئ الكلفة الباهظة التي تترتبّ على تقويم الأمور.

ذكّرني هذا بتجربة أستراليّة عانيت منها من سنين طويلة، وأكّدت لي أنّها مثال لما يحدث مرارًا من عدم الاكتراث الفعلّي

بالأمور إلاّ بعد أن تقع الواقعة. وبذلك تزداد الخسائر المعنويّة والماديّة، ويزيد العبء على دافعي الضرائب. مثلًا في كثير من الأحيان لا تقوم السلطات المختصّة باتخاذ إجراءات ضروريّة لسلامة المرور على بعض المفارق إلاّ بعد وقوع حوادث مريعة. هذا يعني أنّ غياب الرؤية والتخطيط يجعل الأمور متروكة لـ"الإثبات العمليّ".

أمّا تجربتي فكانت حين عملت في فترة من الفترات مع إحدى مؤسّسات الحكومة الفدراليّة، وكنت مسؤولًا عن عقود المترجمين (من خارج الملاك)، والمساعدة في رسم السياسة العامّة للترجمة، وضمان التأكّد من نوعيّة العمل. جاءني المدير يومًا بوثيقة تمّ ترجمتها من طريق أحد المترجمين الذين نكلّفهم بهذه الأعمال، وطلب منّي أن أدقّقها كنوع من مراقبة النوعيّة.

الوثيقة كانت من حوالي ست صفحات، وجدت فيها أغلاطًا لغويّة وقواعديّة في كلّ صفحة، وصل عددها في ثلاث من الصفحات إلى أكثر من أربع في كلّ صفحة. بعض الاغلاط كانت من النوع الذي يمكن أن يساء فهمه، ومن الصعب معرفة كيف يمكن للمتلقّي أن يفهم المعنى، خصوصًا أنّ المتكلّمين بلغة واحدة هم في الواقع من جاليات مختلفة. ومن هنا كنت أرى أنّ لغة الترجمة في هذه الحال يجب أن تكون لغة بسيطة لكنّها سليمة. وبسيطة لا تعني الاستهتار بالمفردات والقواعد. وسليمة لا تعني الفصاحة الأدبيّة.

تفاجأ المدير بما سمع منّي، وأحسست أنّه لم يصدّق ما رأى. شكرني وعاد إليّ بعد أيّام وفي يده ردّ من المترجم المعنيّ.

وقال لي المدير إن هذا المترجم يُعتبر من أهمّ وأقدر المترجمين في أستراليا. طلب منّي أن أقرأ الرد. ألقيت نظرة سريعة، وتفاجأت حين ظهر لي اسم المترجم وتوقيعه في ذيل الصفحة.

لم ينف المترجم، أو يعترف بالأغلاط. وإنّما وجّه عبارة إلى مؤسّستنا فيها نوع من الاستكبار المبطّن ببراغماتيّة تشي بأنّه يريد أن يقول لنا إنه عمليّ واقعيّ. قال مثلًا: "إلى أيّ مدى من البلاغة تريد مؤسّستكم أن تصل؟"

قلت للمدير إنّي أوّد أن أزوّده في اليوم التالي ببعض الملاحظات، ولا يعنيني الردّ المباشر على هذا المترجم، ولكن ما يهمّني أن تكون المؤسّسة التي أخدم على علم ببعض الجوانب الهامّة.

في منزلي ذلك المساء فتحت كتب القواعد العربيّة التي سبق لابنتي إحضارها معها حين قدمنا إلى أستراليا، واعتمدّت على كتاب الصفّ الثالث الابتدائي، وصوّرت الصفحات الملائمة لأبيّن للمدير أنّ معظم الأغلاط يجب أن لا يقع فيها تلميذ ابتدائي.

شرحت في ردّي أنّ المسألة ليست مسألة كلمة شاردة هنا وهناك، وليست مسألة حزلقة وبلاغة، بل مسألة دقّة يجب أن ترافق أسلوب العمل حتّى نتلافى الوقوع بما هو أسوأ، بما في ذلك ترجمة كلمة قد تغيّر المعنى وتؤدّي بالمتلقّي إلى الوقوع في مأزق سنكون مسؤولين عنه.

وعلّقت أيضًا أنّ مؤسّستنا، التي تصرف الملايين من ضرائب المواطنين على المنشورات والترجمات، يجب أن تحصل

على أفضل ما يمكن أن تحصل عليه من "بضاعة". وذكرت حرفيًّا أنّ همّي هو الوقاية لأنّها، كما يعلم الجميع، خير من العلاج.

شكرني المدير، وتركته مع شعوري بأنّي قمت بما يتوجّب عليّ.

بعد شهر من هذه الحادثة، أُلغي برنامج التدقيق (دون استشارتي) الذي بدأناه بشكله الجدّي لأوّل مرّة في تاريخ المؤسّسة.

هل يا ترى سنتعلّم من محنة كوفيد 19 أهمّيّة الرؤية الواضحة، والاستعداد المسبق لكلّ كبيرة أو صغيرة، لأنّ البلاء يمكن أن يأتي من أصغر الكائنات حولنا ... من كائنات لا نراها، تمامًا مثل تلك الاغلاط التي نقع فيها دون أن نشعر؟

أنبياء العصر الحديث

أيام المحن، ينتهز بعضهم الفرصة في استغلال الآخرين. كان عبد الناصر يسمّيهم "تجّار الحروب". الاستغلال الاقتصاديّ هو ما نفهمه عادة. لكنّ الاستغلال العاطفيّ هو ما لا ندركه، مع أنّه هو الأمرّ والأدهى. وهو استغلال يمارسه من أسمّيهم "أنبياء العصر الحديث". يبغون الشهرة والمكانة والسيطرة والمنفعة المادّيّة. ومثلهم مثل سابقيهم، يعتمدون على أشباه الحقائق والأكاذيب، وعلى قدرتهم الفائقة في نقل ما يحبّ الناس سماعه أيّام الخوف والذعر.

مثلًا يتحدّث بعضهم عن وجود "طائفة" تحكم العالم وتريد تدميره لتتمكّن من استغلاله أكثر. والحقيقة أنّهم بتصريحاتهم هذه هم من يخلقون طوائف من الناس عاجزة عن التفكير السليم. ينشرون الجهل ويساعدون الوباء عوضًا عن مساعدة ضحاياه.

نظريّات المؤامرة والخيال العلميّ تشكّل محور طروحاتهم. تلقّيت في المدّة الأخيرة كثيرًا من التسجيلات المتلفزة حول هذا الأمر (كلّها منتشرة بكثرة على فيسبوك). بعض من أرسل لي هذه الموادّ أصدقاء على درجة عالية من التعلّم. أرسلوها مع تأييدهم لكلّ ما جاء فيها. هذا هو أخطر وأشدّ ما يدعو للأسف في هذه العمليّة.

ثقافة الغيبيّات

يضحكني أولئك الذين يهرعون إلى التعليق على أفكار الآخرين على أنّها نبوءات سابقة لعصرها. يحدث هذا، مثلًا، حين يعيد أحدهم نشر فكرة سبق له نشرها منذ سنوات عديدة، وتنطبق على الأوضاع الحاليّة، فتنهال عليه تعليقاتٌ تكاد تجعله نبيًّا.

اتضح هذا في السنوات الأخيرة، خصوصًا فيما يتعلّق ببعض قصائد نزار قبّاني، والتي ذَكَر فيها أشياء تنطبق على وضع العرب الحاضر.

الواقع أنّ مشاكل العرب (مساوئهم) لم تتغيّر، من حيث المبدأ، منذ أيّام نزار وحتّى يومنا هذا. أيْ أنّ شاعرنا كان لديه من الفكر والملاحظة والشجاعة ما جعله يتصدّى لتلك القضايا بشعره ومقالاته.

عوضًا عن أنْ ينشغل الناس بالتفكير الموضوعيّ بما حولهم، مثلًا الاعتراف بنواقصهم وهزائمهم، ظلّوا يخدعون أنفسهم بآمال لا تستند إلى واقعهم، وكانوا كما قال نزار في رائعته "هوامش على دفتر النكسة": "ونشحذ النصر على عدوّنا ... من عنده تعالى ..." هذه القصيدة تلخيص ثاقب لواقع الحال الذي كان منذ 1967، ولم يتغيّر حتّى اليوم (بغض النظر إنْ زاد أو نقص).

نزار قبّاني لم يكن عالمًا بالغيب، ولم يدّع النبوّة. نزار كان مفكّرًا واعيًا، ولم يكن مجرّد شاعرٍ طنّان الأوزان، أو رنّان التعابير.

عندما يكون الإنسان "دسمًا" بالذكاء الخلّاق، تضمحّل أمام عظمته صفات الأنبياء.

نسرٌ وحمامة

يضحكني ويؤسفني أنْ أرى البعض يستخدم الأسد أو النسر أو ماشابه من الوحوش والجوارح والكواسر كشعارات لنمط تفكيرهم، بما في ذلك استخدامها صورًا لصفحاتهم على فيسبوك، وكأنّ مجرّد استخدام هذه الشعارات يرفع من منزلتهم، أو أنّه يظهرهم بصورة قويّة أمام الناظرين. أو كأنّ القوّة هي بالجسارة والوحشيّة وإبادة الآخرين. وأفْهم طبعًا أنّ البعض يتّخذ هذه الشعارات كرمز للفخر والاعتزاز. أحترم الخيار الشخصيّ، وإن كان خياري أن لا أقبل بمضمونه في سياق ما أتحدّث عنه هنا.

هذه هي الشعارات التي اتخذها كثير من الدول، وهذا تعبير واضح عن إسفاف الفكر، وعن ثقافة العنف، وسياسة السيطرة التي يعتنقها البشر.

قد أفهم أنّ النسر يمثّل "التحليق" و"السموّ"، ولكنّ ما يعتبره معظم الدول التي اتخذته شعارًا لها هو جانب "الشجاعة"، التي هي، برأيي، مجرّد وحشيّة يستخدمها هذا الطائر من أجل بقائه. لماذا لم يستخدموا "الحمامة" مثلًا بالمقدار نفسه؟

الطائر يعمل وفق غريزة البقاء، وليس له دونها حول ولا قوّة. أمّا الإنسان، فمن المفروض أنّ لديه العقل المفكّر الذي

يُمَكّنه من ترويض غرائزه، وملاحظة أنّ بقاءه والحفاظ على كوكبنا يحتاج للفكر والعلم، لا الحروب. ولكن حتّى هيئة الأمم المتحدّة هي مرآة للدول المنتصرة التي وصلت إلى السيطرة على هذه المنظّمة الدوليّة بعد حروب وحشيّة دامية وصلت حدّ استخدام القنابل النوويّة، وإبادة مجتمعات بكاملها. طبعًا تستخدم الأمم المتّحدة "حمامة السلام" شعارًا لها، فهل هذا ما يمثّلها حقيقة؟

غالبًا ما تكون الشعارات مثل "الشجاعة" و"القوّة" وسيلة عقائديّة لتعبئة الجماهير، واستخدامها عبيدًا لأسيادٍ متعطشين للدماء، ونهب خيرات المجتمعات المقهورة.

نحن في القرن الواحد والعشرين. ربّما لن تتغيّر حال العالم من حيث المبدأ، ولكن أليس حريًّا بالأفراد، خصوصًا من يعتبر نفسه مثقّفًا، أن يأخذ مبادرة تخليص ثقافته من رواسب التلوّث التي تركها فيه الجانب السفيه من "التراث"؟ أليس حرّيًا بكلّ فرد أن يعمل دائمًا على النقد الذاتيّ وإعادة النظر في نمط تفكيره، وتطوير مساره إن لزم الأمر؟

اعتماد شعار معيّن ليس بأمرٍ ثانويّ، كما يخيّل للبعض الذي قد يرى في كلامي تركيزًا على أمر لا يحتاج هذه "الجعجعة". أنا أرى أنّ كلّ شيء يحتاج إلى صيانة. الفرد هو الخليّة الأساس التي تبنى عليها العائلة، فالمجتمع، فالدولة، فالأمم المتّحدة.

البناء يحتاج إلى أساس متين. وأهمّ متانة تحتاجها البشريّة هي رجاحة العقل البشريّ. وأهمّ عامل في صيانة العقل (الفكر)

الفرديّ هو إعماله موضوعيًّا، وأهمّ ما في الموضوعيّة، في هذا السياق، هو عدم قبول الموروث دون مساءلة.

إلى مُدرّسة مجتهدة

حين تشرقين ليوم راحتك هذا الصباح، تذكّري أسبوعًا قمت فيه برشّ أزهار النور في أذهان تلامذتك، وابتسامات الحبور التي تلقّيتها من وجوه من صادفوك، والدفء الذي نقلته لمن سمع حديثك، وأوراق الخريف التي خشخشت مهلّلة تحت قدميك وأنت، في سعيك، تجتازين الطرقات رامية إعجابك وحبّك بالطبيعة والعمران، تحتضنين مدينةً احتضنتك.

تذكّري المحظوظين الذين عرفوك، ومن يحترق شوقًا ليكون بين خافقيك.

تذكّري أنّك هديّة من هدايا الكون الفاخرة، واستريحي قريرة العين.

الزرّ الخفيّ

نضغط أحيانًا ذلك الزرّ غير المرئي فتلتمع أمام وعينا شاشة الذكريات، وأحيانًا أحداث قريبة، لكنّ عقلنا الباطن يحبّ الزيارات المتكرّرة للتأكيد والتأكّد.

قد نعتقد أنّنا في أحلام اليقظة نسيطر على المشهد تمامًا، لكنّ من الأسهل فهم أنّه في أحلام المنام يختلط أحيانًا الحابل بالنابل. فهل هذا نتيجة لفقد سيطرة الوعي، أم أنّه رغبة باطنيّة ملّحة في تغيير أمورٍ لا نستطيع تغييرها في حياتنا الواعية؟

أُحِبّ تلك الأحلام حين تكون إيجابيّة. مثلًا تلك المرأة التي تجسّدت لي، وقد لبست خصالًا من التهذيب، مع العلم أنّها في واقع الحياة شرسة متعبة.

هل هذا إيجابيّة، أم رغبة منّي في فرض قيمي؟

سؤال

سألتني تلك التي تحبّ حديقتي: "لماذا لا تقصّ تلك الأغصان المتدليّة حتّى أماكن الجلوس، ناهيك عن تلك التي تمسّنا ونحن نسير بقربها؟"

قلت لها: "يا صديقتي، أحبّ لهذا الكون أنْ يحتضنني، يتفاعل معي كامرأة ترخي عليّ بشعرها الطويل، فتغمر جسدي بلذّة الوصال، لتستيقظ روحي في يقين صدرها الحنون."

بين الغريزة والوعي

المشاعر بدون ذكاء عاطفيّ تبقى مجرّد غرائز. تصلح للجنس، ولا تكفي للحبّ الأصيل. تصلح للخوف على الطفل، ولا تكفي لرعايته. تصلح لتكديس الطعام في المعدة، ولا تكفي للإحساس بجوع الآخرين. تعمل على تأجيج التنافس والحروب، ولا تكفي لإحلال السلام. يغلب عليها الأنانيّة الفرديّة، وتسيّرها غريزة البقاء.

المشاعر تأكيد على أصلنا الحيوانيّ. الذكاء العاطفيّ يرجّح كفّة الوعي الإنسانيّ فينا.

العقل والجسد

بعد أكثر من خمسين عامًا من المراهقة والحبّ والبعاد والحبّ والزواج والطلاق والحبّ والزواج والسفر والاستقرار ثم ترحال وإقامة ... أحبّ أنْ أقول لأحفادي إنّه يجب، بنظري، أنْ لا يتوقّف الزواج عند كونه مؤسّسة ناجحة، وهذا لا شكّ أهمّ شروط وجوده العمليّ، بل أنْ يكون الحبّ المتبادل روح هذه المؤسّسة حتّى يتميّز الشريكان باحتفائهما الدائم بأعزّ وأجمل ما يملكان: عقليهما وجسديهما.

العقل جسد والجسد عقل. هذه الثنائيّة في ظاهرها هي في باطنها التكامل في الكلّ الإنساني. وقد أفلح من تكامل.

يوم

كلّما تنفّس تفوح عليه ذكريات عطرك.

كلّما فتح عينيه يلوح له شكلك.

كلّما تعرّى ينبض في عروقه جسدك.

كلّما استحمّ يجفف بمنشفته جسمك.

يرتدي ثيابه فيزيد الأناقة لأجلك.

ويشرب قهوته فيذوق طعمك.

كلّما تناول لقمة من إفطاره اشتهى لك المذاق، ويغصّ حين يرى كرسيّك الخاوي إلاّ من شال تركتيه.

برد الآن فنجان القهوة الثاني الذي أعدّه، وظلّت صحون تحمل اسمك فارغة.

ينهض ... والآن ستبقين في باله حتّى الغداء، حين يتكرّر المشهد ويزيد الغليان.

عند العشاء، والشمس تغيب، ينظر في الأفق حيث غاب الحبيب. ويعود لأرق الليل ومداعبة وحدته القاتلة.

لكنّه يستلّذ باستقبال غد جديد.

دعابة صباحيّة

برعاية "ماسنجر"

♀ صباح الخير

♂ صباح النور يا مَصْدر نور

♀ شكرًا، و لكنْ لا أستحقّ هذا اللقب

♂ لو فكّرتِ جيّدًا بأشعّتكِ الذهبيّة، من أولاد وأحفاد وأصدقاء وكتابات، لعلمت أنّك شمسٌ واهبة للحياة

♀ حضرتكَ تسلّط الأضواء على الأماكن الخفيّة

♂ حضرتكِ قارئة جدًّا، ومهذّبة جدًّا

نهار وليل

يتشبّث النهار بي كلّما أحسّ أنّي على وشك أن أصدّق أنّ الليل حلّ، وأنّني سأغادر إلى النوم تاركًا ورائي عشرات المراسلات والمراجعات والمواعيد والتأمّلات والجلسات والمحادثات، وحتّى الجلوس ساكنًا في الحديقة أتأمّل غيري من الكائنات.

يتشبّث النهار بي، لكنّه ما إن يرى القمر يتجلّى بملامحه الفضيّة معلنًا أنّه يستعد للضياء في عتمة الليل القادم، يصيبه هلع شديد وغيْرة. يبدأ بالتخلّي عنّي اعتقادًا منه أنّ وجودي على فراشي أرحم له من أن يراني أتمتّع بجمال الليل في حضن عشيقتي السماويّة المضيئة.

هذا النهار الذي يغيب مع حلول الليل لا يعلم أنّني حين أستلقي على فراشي، كلّ ليلة، أفتح نافذتي للنسيم العليل، أستنشقه بشغف لا يعلو عليه سوى شغفي بالنظر إلى قمري الساطعة عبر النافذة. لا يعلم أنّ خلودي إلى الفراش ليس خلودًا إلى النوم، بل هو يقظة من غرام آخر، تدوم مادام هذا القرص المتلألئ ضمن خطّ نظري.

أعلم أنّ الوقت سيأتي حين تميل عشيقتي مع المسار الذي حدّده الكون لها، وتختفي عنّي. أحيانًا أقفز من فراشي وأقترب من النافذة محاولًا اللحاق بها، ومع آخر لمحة أقبض عليها

بأجفاني، أضمّها بعينيّ، وحين ألقي برأسي على وسادة النوم تهرب وتتركني لأحلامي.

أحلام غريبة: فيها من النهار وفيها من الليل، لكنّني مهما عدّدت النهارات والليالي، ما رأيت أبدًا أنّ القمر يصبح بدرًا في منامي.

شروق

تشرق الشمس كلّ صباح. اعتدنا على ذلك.

ولكن حين يغلب التفكير على الاعتياد، يمكن أن نرى الأمل يتجدّد كلّ صباح، أنّ يومًا جديدًا أضيف إلى حياة كلّ واحد منّا: ذلك المحظوظ الذي كتب له الوجود، وهي فرصة من بلايين الفرص.

هذا أصل الحياة، لكنّ قيمة الحياة تتعزّز بما يمكن أن يقوم به الإنسان، ما يمكن أن يضيفه على نوعيّة الحياة، له ولمن حوله، وللبشريّة، للكائنات، وللكوكب الأرضيّ كلّه.

تشرق الشمس كلّ صباح. تُذكّرنا بواجب الشكر المترتّب علينا لنقدّر نعم الكون التي لا تحصى، وربّما لنتذكّر أنّه لولا هذا الضياء ما كانت الأرض وما كنّا.

أشرقت الشمس هذا الصباح. تأمّلتُ برهبة وشغف تألّق ذلك الضياء الذي نفذ من غيوم الخريف مع بداية نهارٍ بارد منعش. احتسيت فنجان قهوتي والطيور تشاركني جلستي بين نباتات وأشجار الحديقة. النحل بعيد على قمم النخيل التي برز منها عناقيد من الزهر. خيوط العنكبوت بدأت تلمع عندما مسّتها خيوط الشمس، وتجلّت عليها قطرات الندى. السحالي تنشط بحركات سريعة. طوابير النمل تبدو غير مكترثة بما يدور فوقها.

أتاني ذلك الببّغاء الذي لا يقبل الطعام إلّا من يدي، فرمى نفسه في حضني. نهضت لأحضر بذور "عبّاد الشمس"، وملأت كفّي بكميّة منها. جلست ويدي والببغاء في حضني، فسارع لالتقاط البذور من كفّي المفتوح. وسرعان ما ارتمت شريكته في حضني، على الطرف المقابل. راقبت رأسيهما ينخفضان ويعلوان، يلتقطان البذور بمنقاريهما، "يفصفصانها" واحدة واحدة بإتقان رائع. وبعد استخلاص لبّ، وطرح قشر كلّ بذرة، ينظر واحدهما إليّ فيبدو أنّه يطمئن قبل أن يعاود التقاط التالية. رأسان متقابلان، يعلوان ويهبطان، الواحد تلو الآخر، لا يصطدمان، رغم السرعة. شعرت بحنان كبير ... وإعجاب. ورأيت حضني الممتلئ بالقشور.

أشجار الحمضيّات حبلى بريّان الثمار. بعضها مزّقته مناقير الطيور. الأزهار والورود تتبرّج بالأبيض والأصفر والزهريّ والأحمر. والنصر هذا الخريف للأرجوانيّ الذي فاق الألوان انتشارًا. رائحة الياسمين تغمر المكان.

يشرق الحبّ والثقة في كياني، وأمضي ليومي الجديد.

سيناريو

ليلة غريبة بين النوم والصحو.

ما إن استسلمتُ للنوم حتّى استيقظتُ على أفكار تموج في ذهني لترتطم على شواطئ أحاسيسي التي تلقّتها بأذرعة مفتوحة، وغَرَفَتْ منها ما استطاعت، وسألَتْها عن المزيد، في عالم ضاعت فيه إحداثيّات الزمان والمكان فلكأنّ صالح عبد الحيّ وقف يغنّي مع مادونا.

بدأتُ بكتابة سيناريو لفيلم أردته أن يكون بالأبيض والأسود. وما أن سردت على نفسي بضع سطور حتّى غالبني النوم، فرأيت أنّني أنا أيضًا مُخرج الفيلم، وأنّني اخترت الممثل المصريّ أحمد مظهر لدور البطولة. كان لطيفًا في تعاطيه، لكنّه عنيد دقيق فيما يريد أن تكون عليه بطلة الفيلم التي ستشاركه تفاصيل تلك القصّة الغراميّة العاصفة.

أيقظني عناده الشديد، وانتبهت أنّني لست بشكل خاصّ معجب كثيرًا بهذا الفنّان المشهور، ولكنّني بدأت أفكّر كيف أرضيه (وأغيظه في الوقت عينه)، وهو صاحب المكانة العالية لدى الجماهير.

غلبني النوم من جديد، ورأيت نفسي أحدّثُ صبيّة أعرفها، هنا في سيدني، تصغر أحمد مظهر بأربعين عامًا، ولكنّها بارعة الجمال والأناقة والفطنة. وعرضت عليها الدخول في عالم

التمثيل، خصوصًا أنّ بدايتها ستكون قويّة مع واحد من المشاهير، وطبعًا مع المخرج العظيم الذي "خرطه الخرّاط وقلب ومات".

استيقظت مجدّدًا على لوم النفس: كيف يساعدني ضميري على انتزاع هذه الفتاة الرائعة من محيطها الراقي، وأرميها في عالم محفوف بالمخاطر سيغيّر من مستقبلها. وما إن غلبني النوم من جديد، حتّى تجلّت لي إغراءات تقديم تحفة رائعة مثل هذه الصبيّة التي تجمع بين الجمال والذكاء، وما سيجلبه ذلك لي من مزيد الشهرة والمكاسب.

استيقظت من جديد بذعر شديد: متى كنت أبحث عن الشهرة والمال؟ وبدأت أفكّر بتعديل السيناريو، خصوصًا أنّني أنا أصلًا من كتب القصّة. معلوم! محسوبكم "بتاع كلّه".

أنا من كتب القصّة؟ هل أنا مستيقظ حقًّا؟ وحتّى الآن لا أعلم ما هي القصّة. ربّما إذا أعدت النوم يتجلّى لي الوحي من جديد، وقد يكون من الأفضل كتابة السيناريو وأنا نائم.

عندما فتحت عينيّ في الصباح، تذكّرت بعض تفاصيل تلك الأحلام. هل كانت أحلامًا تذهب وتأتي طيلة الليل، أم بضع دقائق نظنّها دهرًا طويلًا؟ هل كان العقل الباطن يثيرها لتخدم فكرة واحدة: أن أكون ما أريد أن أكون؟

ضحكت كثيرًا بيني وبين نفسي، وتذكّرت جلسة (في الحقيقة، لا الحلم) سألتني فيها إحداهنّ: "أعلم أنّك متصالح مع نفسك، راضٍ عمّا أنت فيه، ولكن لو تيسّر لك تكرار نفسك، ما هي المهنة التي تودّ اتّخاذها، ولماذا؟"

أجبتها يومها: "أنا إنسان علميّ، ولي ميول أدبيّة وفنيّة، وثقافتي العامّة لا بأس بها، وأحبّ الكتابة كثيرًا، ولكن حتّى اليوم لم أكتب ولا رواية واحدة. لذلك أرى أنّني قد أصلح لأكون مُخرجًا سينمائيًّا."

كلمة واحدة

من أوّل لقاء لهما استطاع أن يستشف فضائل هذه الصبيّة التي أضاف حديثها جمالًا على جمالها الخارق، بل تعدّاه ليسبغ عليها قدرًا بيّنًا من النضج والحكمة.

صعقته، وهو الذي لم يفكّر في حياته أبدًا بامرأة من عمر أولاده أو أصغر، أن تكون محرّضة لمشاعره العاطفيّة والجنسيّة. بل كان بالتأكيد يختلف عن أقرانه من الرجال بشغفه بالنساء الناضجات فقط، وما كان ينظر للصبايا سوى بعاطفة أبويّة، وفي حال المستنيرات منهنّ بشعور من التقدير والتمنّي لهنّ بمزيد من النجاح لما يمثّلن من ملامح المستقبل الإنسانيّ.

لكنّها كانت فريدة. تَمثّلَ فيها كلّ ما تتوق له نفسه من الأناقة في التفكير، وكيف أنّ هذا لعب لعبة كبرى في تحويل جمالها المخلوق إلى جمال خلّاق، تأتي فتنته من تكامل تامّ بين المادّة والروح، جاء نتيجة لأسلوب هذه الصبيّة في منهجيّة حياتها.

نعم! خبرته الحياتيّة الطويلة، وتفكيره المستديم في مسألة الوعي الإنسانيّ، وضعا بين يديه آلة الحدس السليم التي تعمل كساعة لا تخطئ مواعيدها. لكنّ من مزاياه أنّه لا يعتمد على حواسّه وحدسه ما لم يأتيه دليل ماديّ يؤكّده له الطرف الآخر.

لذلك ما كان ليبوح بمكنوناته لمجرّد شعوره بالآخر. لا بدّ أن يسمع التأكيد من الآخر. قد يكون هذا ما جعله يخسر كثيرًا من الفرص، ولكنّه مصمّم على منهجيّته خصوصًا في الوضع الحاضر الذي يواجه فيه لأوّل مرّة هذا التحدّي الاستثنائيّ من امرأة تصغره بعشرات السنين. وهو يعلم تمامًا أنّه قد يكون واهمًا، وأنّ رغبته في الاستحواذ على كنز من أجمل الكنوز التي اكتشفها هي كلّ ما في الأمر. وأنّ هذه الصبيّة إنّما تبادله الاحترام والتقدير، وتنظر إليه كصديق أو أب قدوة، لا أكثر ولا أقلّ. لذلك كان يرى أنّه إن كان هناك من أمر، لا بدّ أن تأتي المبادرة منها.

الأيّام تمضي، ومع كلّ تبادل بالرسائل على مختلف أشكالها الهاتفيّة والإلكترونيّة، وكذلك الأحاديث المباشرة، كان يشعر أنّ هناك شيئًا غريبًا عجيبًا يزداد قوّة وجذبًا بين الطرفين. كان دائمًا يقول لحاله إنّ مشاعره حتمًا من طرفه هو فقط، ولكن كان دائمًا يحسّ أنّ مشاعر الطرف الآخر تتطوّر بداخله بتناغم كبير مع مشاعره.

لم يكن يومًا شيطانًا أو يؤمن بالشياطين، لكنّه لم يكن ملاكًا أو يؤمن بالملائكة. ولهذا ما وجد مشكلة في أن يرمي بين الحين والآخر، وكلّما سنحت الفرصة من نبرة الطرف الآخر، عبارة تتحرّى موقف الآخر وتشجّعه على إبداء رأي صريح في نوع المشاعر التي تزداد اشتعالًا يومًا بعد يوم.

وجاء يوم أحسّ فيه، واستنبط من عباراتها، أنّها كانت تماثله في محاولة كشف الأمور صراحة. قرّر أن يرمي بتحفّظه

وحرصه جانبًا، وبعد بضع تبادلات سألها عمّا إذا كانت تستطيع تفسير ما يحدث، وأضاف لياقةً بأنّه يتمنّى أنّه لم يكن يتجاوز الحدود. وحتّى يتأكّد من الحصول على جواب حاسم، قال: "معي لا تخشي شيئًا."

قالت: "اسمح لي أن أجيبك بكلمة واحدة."

قال: "تفضّلي."

قالت: "أحبّك!"

الحبّ في زمن كورونا

أعطته أغلى ما تملك. فتحت له كلّ منافذها، وأشرعت له أبوابها، ومهّدت لقدميه كلّ دروبها.

ما تركت في حناياها زاوية إلاّ ومنحتها. ولم تترك مع أنفاسها آهًا إلاّ وأطلقتها. ما خطرت على بالها فكرة إلاّ وشاركتها.

تفاجأت بنفسها. تصغره بسنوات كثيرة. عرفته على متن سفينة سياحيّة عائدة إلى سيدني بعد دورانها لمدّة ثلاثة أشهر حول العالم. لكنّها شعرت أنّها تعرفه منذ تكوّنت في رحم الوجود.

تلاقيا خلال أيّام من بدء الرحلة، دون قيود أو شروط. دون حياء، كزوجين منذ عشرات السنين. كلّ منهما كان يريد أن يكون وحيدًا، منعتقًا من رواسب الأيّام، لكنّه كان ضمنًا يبحث عمّا كان مفقودًا لديه.

جاءته صبيّةً، زوجةً، أمًّا، جدّة. وهاهي تعاصر أيّام كورونا، في خمسينيّات عمرها. لكنّها أيضًا التقت بمفكّر طالما سمعت عنه وقرأت له.

في قَمْرته، وقمرتها،صنعا من الحبّ معجزات جديدة. وقال لها إنّ كلّ مرّة كألف سنة ممّا يعدّون. وأكّد لها أنّه هو أيضًا كان في انتظارها. في انتظار القيمة التي تمثّلها.

ها هما يرتّبان لقاءهما القادم على البرّ بقلق شديد. الظروف المحيطة بهما، وعلاقاتهما، والآن كورونا.

قالت له حين ودّعته: "أريدكَ أنْ تعلم أنّه في الحبّ الأصيل لا قبلك ولا بعدك، وأنّك أغلى ما أملك في الوجود. لقد غيّرت حياتي في أيّام. أحسّ أنّك تحبّني أيضًا. وإذا متّ أنا قبل موعدنا القادم، فاعلم أنّني سعيدة جدًّا. لا تحزن ولا تيأس."

قبل ساعات من موعدهما التالي، وصلها نبأ موته وهو على مكتبه منكبّ على خلق قصيدة عصماء بعنوانٍ حمل اسمها.

نارنج 2021

حين زرت أثينا اليونانيّة لأوّل مرّة، سرّني مشاهدة أشجار النارنج (زفّير، أبو صفير) تزيّن الشوارع والساحات. راقني منظر الثمار المعلّقة على الأغصان، وأحسست ما يمكن أن يكون عليه الأمر في موسم الأزهار ذات الرائحة الفريدة التي أعتبرها الأروع في الطبيعة، خصوصًا أنّ لي معها علاقة تاريخيّة.

ولدت في بيت على الطراز العربيّ في دمشق القديمة، وكانت فيه شجرة كبّاد وشجرة نارنج. وجود هاتين الشجرتين هو من علامات هذه البيوت المميّزة. وكلّنا نعلم كم يذكرهما نزار قبّاني، المولود في بيت دمشقيّ في دمشق القديمة، في قصائده التي تناولت البيت العربيّ، ودمشق، وقصر الحمراء في أندلس أسبانيا.

خلافًا للعرف العامّ، النارنج الذي يطلق عليه بالإنكليزيّة، في إحدى تسمياته، "برتقال إشبيلية"، لا ترجع أصوله لإشبيليا أو أسبانيا. ولكن ربّما أنّ إشبيليا ساعدت على رواجه في العالم قاطبة بعد أن نقله إليها العرب، الذين حكموا الأندلس، من دمشق. أمّا الأصول الحقيقيّة فتعود إلى شرق الهيمالايا كما أثبتت الدراسات العلميّة المستفيضة. على الأقلّ، نستطيع الافتخار بأنّ العرب نقلوه إلى دمشق حيث ازدهر، وتمّ تصديره إلى الغرب.

هذه الشجرة علامة بارزة في حديقة دارنا هنا في سيدني. نستمتع بها كلّ يوم أيًّا كانت مرحلة كرمها. واليوم تتكرّم علينا بالثمر الناضج. المحصول هذه السنة لا بأس به، فبعد ما أمعن الطيور وعوامل أخرى بالتمثيل في عدد كبير من الثمار، انتهينا بواحدة وأربعين حبّة.

جاء وقت تسليم الكنز إلى شريكة العمر. وليبدأ موسم المرملاد، والشراب، وتخزين عيّنات من العصير في الثلّاجة لاستخدامها في تحضير بعض الأطعمة.

صحيح أنّ الثمرة لا تؤكل مباشرة لمرارة طعمها البالغة، لكن لا شيء يضيع من هذه الشجرة. وكما يعلم كثيرون، أزهار هذه الشجرة هي المصدر الحقيقيّ لـ"ماء الزهر".

ستة وماشي بالسبعة

تُقاطع الناظرة صفّ السنة الأولى ابتدائي، وتطلب إلى المعلّمة أن تسمح للطالب شاميّ مغادرة الصفّ لمدّة ربع ساعة.

شاميّ، الذي سيبلغ السابعة بعد أسبوعين، يقف حين تناديه المعلّمة، ويتبع الناظرة التي تمسك يده. تأخذه خارج الصفّ، وعبر ممرّ في الطبقة الأولى، إلى درج من الحجر الأسود، نزولًا إلى باحّة المدرسة حيث يقفان أخيرًا أمام غرفة الحضانة. الأطفال في هذه الغرفة هم في سنّ السادسة عمومًا. وبعضهم من الأصدقاء المقرّبين إلى شاميّ، أو على الأقل أهلهم أصدقاء أهله.

قبل دخول الغرفة، تشرح الناظرة لشاميّ أنّه الآن سيختار من بين الأطفال من يريد دعوتهم لحفل عيد ميلاده. لم تكن لشاميّ أيّ فكرة كيف سيقوم بهذه المهمّة. ولم يفكّر أبدًا بأيّ إجراء مناسب، مثلًا كأن يعطي الناظرة الأسماء التي يريد. الذي حدث فعلًا جاء صدمة قويّة بقي تأثيرها على شاميّ مدى الحياة. وهو من الأمور النادرة التي يتذكّرها بوضوح من أيّام طفولته، بل لعلّها من أهمّ الحوادث التي ساهمت في تكوين شخصيّته والقيم التي يحملها. والآن يعتزّ شاميّ بأنّ ردّة فعله تجاه هذا الأمر كانت كيف كانت، وهو في ذلك العمر الغضّ.

يدخلان الغرفة. مجموعة من حوالي دزّينة من الأطفال تجلس حول طاولة خشبيّة، بيضويّة، بنّية اللون وسط الغرفة. مجموعتان أخريان من الأطفال، أقلّ عددًا، جلست كلّ واحدة حول طاولة مستديرة، في زاوية من زوايا الغرفة. المعلّمة تأمر الأطفال بالوقوف تحيّة للناظرة. "صباح الخير آنستي"، يردّد الأطفال، ليس تمامًا بصوت واحد.

عندما يعود الأطفال إلى الجلوس من جديد، تحمل الناظرة شاميّ، وتضعه فوق الطاولة المركزيّة، ثم تسأله بصوت مرتفع أن يقوم باختيار من يريد دعوتهم إلى بيته. يصاب شاميّ بهلع شديد، وحرج مديد. يتمنّى شاميّ أن تنشقّ الأرض فتبتلعه خجلًا من أولئك الذين لن يدعوهم. يعرف تمامًا أنّ هذا الأسلوب مغلوط، وأنّ الدعوة كان يجب أن تتمّ بطريقة أخرى. كان مدركًا لذلك تمامًا رغم صغر سنّه. يشعر بالعجز. يشير بيده إلى طفل ويلفظ اسمه، كما أتته أوامر الناظرة. يختار بعض الأطفال متجنّبًا النظر في وجوه الآخرين. يهرع للقفز من الطاولة، والركض نحو الباب. يريد الاختباء من عيون الأطفال الذين جرح مشاعرهم.

حفل عيد ميلاده السابع سيكون أوّل وآخر حفل يقيمه له والداه. عندما يفكّر الآن بالسبب، لا يجد الجواب. طبعًا الرقم "سبعة" مميّز تقليديًّا: سبعة أيّام الخلق، عجائب الدنيا السبع، سبع سموات ... وهو أيضًا العمر الذي يبدأ الأطفال فيه الدراسة الابتدائيّة.

يتذكّر ذلك الحفل بمعظم تفاصيله، أكثر من أيّ بهجة أخرى من أيّام طفولته. هذه الذكريات تأتيه واضحة كمشاهد من صور ساكنة، لا كتسجيلات فيديو متحرّكة. هل هذا سببٌ في تفضيله، الآن، تصوير اللقطات الساكنة عن تسجيلات الفيديو؟

واحد من تلك المشاهد الملحّة هو مديرة المدرسة تجلس في صدر غرفة الاستقبال في منزل شاميّ أثناء الحفل. المديرة عانس، بدينة، وقصيرة القامة. ملامح وجهها حادّة، بعينين زرقاوين ثاقبتين، رغم نظّاراتها السميكة. ولربّما كانت الآن في أكثر حالات مزاجها استرخاءً، بيد أنّ مظهرها الصارم لا زال يحافظ على كلّ مقوّماته. حين يخاطبها الحضور، هي "وداد خانم". حتّى حين يخاطبها أقرب الأصدقاء إليها. مع العلم أنّه في ذلك الوقت كان الناس يتخاطبون بطريقة شبه رسميّة، و"ست" تسبق الاسم المخاطب حتّى بين الصديقات. أمّا حين تُخاطَبْ المديرة وداد، يرتفع المصطلح إلى مراتب أعلى! سلطتها تتجاوز تلاميذاتها إلى أهلهنّ، خصوصًا أمّهاتهنّ.

صوت وداد خانم قويّ، ولكن لا يمكن وصفه على أنّه مدوٍّ. وهو صوت مميّز، لا يمكن خلطه مع أيّ صوت آخر. أولئك اللاتي يصلن إلى الحفل، ولا يعلمن أنّها وصلت، يخفضن من أصواتهنّ لمجرّد سماعهنّ صوتها، حتّى لو كنّ في غرفة أخرى. كلّ الحضور في خشوع من حضرتها. تحاول كلّ أمّ أن تسأل المديرة سؤالًا ما حول تدبير شؤون الأطفال، أو حتّى الحياة. قد تكون

الأجوبة معلومة للسائلات، لكنّ المقصد منها إظهار المحبّة والولاء لأفضل العقول المتوفّرة بينهنّ: أوليست هي وداد خانم؟

وداد خانم لا تخيف شاميّ، ولا تسلّيه. يبدو أنّه كان غير مكترث بتلك الضجّة حولها أو بها، مع أنّ معظم تفاصيل ما يجري منها وبشأنها كانت تتسجلّ راسخة في ذاكرته. كان يحتار دائمًا في ضعف كلّ الذين حوله، بما في ذلك والدته وعمّاته، تجاه وداد خانم.

لم يكن يعلم في ذلك الوقت إن كان صموده هذا نتيجة لعزمه، أم أنّه بسبب مكانة عائلته. عائلته من داعمي المدرسة الخاصّة التي كانت وداد خانم مديرتها. عمّ والده عضو في مجلس إدارتها، والخازن، والمشرف المباشر على المدرسة. عمليًّا هو رئيس وداد خانم، الذي لا رئيس غيره. ولمّا كانت المدرسة مدرسة بنات بشكل رئيس، ما كان يسمح لأيّ رجل أن تطأ قدمه أرض المدرسة وقت الدوام الرسميّ. الاستثناء الوحيد كان الحاجّ عليّ، المشرف، الذي كان يمكن رؤيته في مكتب المديرة في كثير من أيّام الأسبوع. الحاجّ عليّ أعْزب مزمن!

الاستثناءات الوحيدة لقبول الصبيان مع البنات، كانت صفوف الحضانة. واستثناءان، لا ثالث لهما، في الصفّ الأوّل الابتدائيّ، ألا وهما شاميّ وفاروق. فاروق ينتمي أيضًا إلى عائلة ثقيلة الوزن لها علاقة بالمدرسة. الصبيان في الحضانة عادة ينتقلون إلى مدرسة للصبيان حين يصلون إلى الصفّ الأوّل.

وداد خانم تستعرض حبّها وولاءها للعائلات المسؤولة عن دوام وظيفتها. وإنّه لمن أسباب خبرتها، وبدواعي حكمتها، أنّ

الصبيّين المهذبين الرقيقين، شاميّ وفاروق، لا يستحقّان التعرّض لقسوة الصبيان بعد، وأنّ بقاءهما سنة إضافيّة في مدرسة البنات يصبّ في منفعتهما. سنة إضافيّة مع "الجنس اللطيف"، تحت رعايتها، وإشراف المعلّمات، هو لا شكّ من صالح الطفلين برأيها. ويبدو أنّ عائلتي الطفلين لم يكن لديهما غضاضة في ذلك. لا أحد يعلم ما كان التفكير، أو حتّى الجرأة على التفكير، لدى العائلات الأخرى ممّن كان لها صِبيان لم تتلق الالتفاتة نفسها.

تشغل المدرسة مبنى بيت دمشقيّ تقليديّ الطراز العربيّ، بباحّة رئيسة في الوسط، محاطة بقاعات وغرف تنتشر على طابقين. وفي زاوية من زوايا الباحّة هناك ممرّ يقود إلى باحّة أخرى متواضعة الحجم، فيها قاعة واحدة، ومدخل ثانويّ للمدرسة يستعمل لتسلّم البضائع ودخول عمّال الصيانة، ودرج يقود إلى الطابق الثاني من جهةِ مشغلٍ للخياطة والتطريز، يعتبر علامة المدرسة المميّزة بما يخرّجه من شابّات ضليعات من هذا المجال.

تحت الدرج، في هذه الباحّة الصغيرة، يوجد مرحاض "عربيّ" يمكن الوصول إليه بالصعود درجة واحدة. ليس للمرحاض نوافذ. بابه الخشبيّ سماويّ اللون، وله قسم زجاجيّ مصنفر، ومقفول دائمًا. إن كان الزجاج يكشف لنا ضوء المصباح، فهذا يعني أنّ المُستَخدِمة الوحيدة للمرحاض في داخله. وداد خانم هي الوحيدة التي تستعمل المرحاض، بأمر منها طبعًا. لديها مفتاحه، وتتجنّب استعماله عادة حين يكون

الأطفال في الباحّة. هناك مرحاض آخر جانب مكتبها، ولكن يمكن التخمين أنّها تتجنّبه لأنّه يستعمل أحيانًا من قبل زوّار المدرسة. وداد خانم معروفة بهوسها الشديد بالنظافة والترتيب، خصوصًا ما يتعلّق بالصّحة العامّة.

ذات يوم، اتجه شاميّ وفاروق نحو الباحّة الصغيرة حيث يمضيان استراحتهما عادة في فسحة خلف البوّابة الثانويّة للمدرسة، بعيدة عن ضجّة بقيّة التلاميذ. ولكن كانت يومها مشغولة من قبل تلاميذ آخرين. يقرّران الجلوس على العتبة العريضة أمام باب مرحاض وداد خانم. وبمجرّد أن يجلس شاميّ ويميل للخلف ليدعم ظهره بالباب، يرتَدُّ للخلف فينفتح الباب. يصاب بدهشة كبيرة، وربّما هي بصدمة شديدة، حين يلمح تلك الكتلة الضخمة من جانب فخذ وداد خانم العاري، وهي تجلس القرفصاء. ينهض كالبرق ويغلق الباب. سويًّا، مع فاروق المتفاجئ أيضًا، يهرعان إلى الباحّة الرئيسة. لم يسمعا من وداد خانم، التي لا بدّ نسيت تأمين الباب بعد دخولها، أو أنّها اعتقدت أنّه لا يمكن لأحد أن يجرؤ على الجلوس على تلك العتبة. في اليوم التالي تمّ التعميم على كافّة الطلّاب أنّه لا يسمح لأحد الجلوس على عتبة المرحاض لأيّ سبب كان.

الباحّة الرئيسة هي أكثر جهات المبنى تعديلًا، ولهذا البيت العربيّ تشويهًا. لن تجد فيها البركة بنافورتها المعهودة، ولا الأحواض الجانبيّة التي تحتضن النارنج والكبّاد والياسمين. أزيل كلّ ذلك لجعل الباحّة صالحة للهو الطلّاب بلا إعاقة، ودون مخاطر. استثناءٌ واحد هو شجرة نارنج يتيمة، تنتصب جانب

باب مكتب وداد خانم الذي يطلّ على الباحّة. أمّا الباب الرئيس لمكتب المديرة فينفتح، في الجهة المقابلة، إلى فسحة تقع خلف بوّابة المدرسة الأساس.

مكتب وداد خانم يرتفع عن أرض الباحّة، ويمكن الوصول إليه بصعود درجتين عريضتين من الحجر الأسود. يمكن للمديرة وداد خانم أن تراقب معظم الباحّة وهي تجلس إلى منضدتها، ولكنّها غالبًا ما تجلس على كرسيّ تضعه بطريقة تمكّنها من مراقبة الباحّة بأكملها. وأحيانًا تُشاهَد مع صديقة لها تلازمها وهما تجلسان، تستمتعان بدفء الشمس، على كرسيّين من الخيزران في الباحّة، جانب مدخل المكتب مباشرة.

يمكن لكلّ الأطفال اللعب في هذه الباحّة، لكنّ صبيًّا واحدًا يتمتّع بامتياز خاصّ. يمكن لفاروق استعمال سيّارة حمراء تحتفظ وداد خانم له بها في أحد مستودعات المدرسة. كلّما عنّ على باله استخدامها أثناء الاستراحة، تقوم أم هادي، عاملة النظافة المقيمة في المدرسة، بإحضارها تاركة واجباتها الأخرى لتركّز على الإشراف على فاروق. الولد الوحيد الذي يشارك في هذا هو شاميّ، كلّما أذن فاروق. الأطفال الآخرون يراقبون فقط، ربّما بحسد، وغِيرة، وكبت، وربّما بغضب شديد.

لا يتذكّر شاميّ، اليوم، إن كان لديه وقتها أيّ شعور بالذنب تجاه الآخرين الذين كانوا يراقبونه يلهو بقيادة السيّارة الحمراء. لكنّه يتذكر أنّه لم يكن مرتاحًا كثيرًا. لم يشعر في هذا الموقف شعوره حين كان فوق الطاولة يختار المدعوّين إلى بيته.

ربّما كانت ملكيّة فاروق للسيّارة، وسلطته عليها هما ما جعلا شاميّ يشعر أنّه بريء من هذا الموقف.

شاميّ محبوب جدًّا من قبل كلّ معلّماته. معظم الوقت، أثناء الاستراحة في الباحّة، يلتصق بالآنسة بسمة، أثيرته، ويمشي معها حين تشرف على الطلّاب. أحيانًا ترمي بذراعها حول كتفه وهما يمشيان حول الباحّة. ينتهز الفرصة فيلتصق بها أكثر لـ"يشمشم" روائحها، التي عادة ما توحي بأروقة المستشفيات. الآنسة بسمة هي "الممرّضة بسمة" في المساء، وحين لا تكون في المدرسة. حين يكون ملتصقًا بها ما فيه الكفاية، يرفع رأسه نحو صدرها، ويشعر أنّه صدر غاية في الجمال. يفرك جبينه على قميصها القطنيّ الناعم.

يبدأ الأطفال، وبعض الأمّهات المدعوّات، بالوصول إلى الحفل. يحصل كلّ طفل على كيس مملوء بالحلوى واللعب المسليّة. وداد خانم تستقطب اهتمام الزوّار. لكنّ الآنسة بسمة توجّه عنايتها نحو تسلية الأطفال، والمساعدة في استلام الهدايا وترتيبها على طاولة إلى جانب غرفة الطعام. أمّا الطاولة الرئيسة فكانت مليئة بالطعام والفاكهة والحلويّات.

يتذكّر شاميّ العدد الكبير من الهدايا التي تلقّاها ذلك اليوم، لكنّه يسهى عن أيّ من الألعاب مارس مع رفاقه. أمّا ضجيج الصفّارات التي كان الأطفال يلعبون بها، وهي من جملة ما تلقّوه في كيس الهدايا، فلا زال عالقًا بذاكرته.

والدته وعمّتاه اهتممن بالضيوف، بتقديم الطعام والشراب بصورة مستمرّة. الخادمة، مريم، كانت تسعى بين طفل

وآخر لتمنع سقوط الطعام، واندلاق الشراب على السجّاد العجميّ الذي يفترش أرض المنزل. شاميّ يلاحظ حبور أصدقائه وصديقاته بالطعام والحلوى.

شاميّ يرى كلّ ذلك، لكنّه لا يرى نفسه بوضوح بين الزحام. لا يتذكر كعكة العيد، ولا الشموع. وفقط، حين تغادر الزائرات وأطفالهنّ، ويبدأ رجال العائلة بالحضور، يباشر هو بفتح الهدايا. يرى الآن نفسه بوضوح يحمل طائرة أحضرها له عمّه. ويحبّ هديّة أخرى: قطار كهربائيّ. وكانت هناك أشياء أخرى مثل السيّارات، والأحاجي، والمكعّبات، وأقلام التلوين، والكتب، والملابس. عدا عن طائرة عمّه، لا يذكر من أهداه ماذا!

تصبح أخبار الحفل على كلّ لسان في الحيّ والمدرسة. لم يسبق أن أقيم حفل كهذا لولد في السابعة في ذلك المجتمع حينها. وترتقي تلك السمعة بفضل شادية، ابنة عمّ شاميّ، وهي في الصفّ الخامس الابتدائيّ في المدرسة عينها.

كانت شادية كابوس وداد خانم الرهيب. شادية مثال الفشل الأكاديميّ. رسبت أكثر من مرّة خلال سنواتها الابتدائيّة، فصارت في الثالثة عشرة في صف أكبر الفتيات فيه لا تتجاوز الحادية عشرة. جسمها جسم امرأة ناضجة. ولا تشترك فقط باسمها مع واحدة من أهمّ نجوم السينما المصريّة، بل تشبهها شبهًا كبيرًا، وجهًا وجسمًا. أمّا صوتها فلم يكن بمستوى صوت شبيهتها، ولكنّ هذا لم يمنع من أن تكون رائدة المدرسة في المسرحيّات ومهرجانها السنويّ. هي سيّدة مسرح المدرسة، تقوم بتأليف وإخراج والمشاركة بتمثيل مسرحيّات المدرسة بعد أن

تنقل الأفكار من أحدث الأفلام السينمائيّة التي تقوم بحضورها دون علم أهلها أو المدرسة. لديها زميلة تتشارك معها في التغطية على حضورها بالادعاء أنّهما كانا معًا يراجعان فروضهما المدرسيّة.

ظلّت شادية لأسابيع بعد الحفل تخبر زوّار والدتها، والأطفال الذين لم يحضروا، كيف أنّهم خسروا خسارة كبرى. وتخبرهم كيف كانت هي نجم الحفل، تغنّي وترقص أمام إعجاب الأمّهات والأطفال. شاميّ لا يذكر هذا أبدًا!

تقنع وداد خانم نفسها أنّ الحاجة لموهبة شادية المسرحيّة تطغى على مساوئها. صحيح أنّها تعاقب شادية على أشياء كثيرة، لكنّها تغضّ النظر عن أشياء أخرى. في كلا الحالين تتقن اللعبة بامتياز. تُري عائلة شادية أنّها المربيّة المهتمّة، دون أن تتجاوز حدودها في إغضاب ابنتهم المحبوبة.

تعلم شادية أنّها الرابحة، وأنّها يمكن أن تفعل ما تريد باللعب على هذين الحبلين المتعاكسين الملفوفين حول عنق وداد خانم. شاميّ معجب بتمرّد شادية، رغم أنّ شادية لا تبدي أيّ اهتمام بشاميّ. المديرة وداد خانم تنتظر نهاية العام بفارغ الصبر حتّى تتخلّص من شادية بسلام. عندها تذهب شادية إلى مدرسة إعداديّة، وينتقل شاميّ إلى الصف الثاني في مدرسة الصبيان. التقاؤهما بعد ذلك سيقتصر على الاجتماعات العائليّة.

حين انتقل شاميّ إلى الصف الثاني في مدرسة الصبيان المقابلة لمدرسة البنات، بدأ فصلًا جديدًا من حياته، لكنّه ظلّ لفترة على علاقة بمدرسة البنات. كلّ عصر، بعد انتهاء الدوام

المدرسيّ، كان يقطع الشارع لينتظر أخوته الأصغر سنًّا، وحين يجتمعون يكون من حضر لاصطحابهم إلى البيت قد وصل. أثناء فترات الانتظار تلك كان أحيانًا يرى وجه وداد خانم بين جموع التلاميذ المغادرة. ربّما كانت تؤكّد حضورها أمام أهالي الطلّاب لتثبت لهم اهتمامها، مع العلم أنّ الكلّ كان يشهد بكفاءتها ويحلف بحياتها. يستغرب كثيرًا أنّه لا يذكر مطلقًا من كانت الناظرة، أو ربّما إحدى المعلّمات، التي وضعته فوق الطاولة ليغرق في بئر تأنيب النفس. لكنّه، من ناحية أخرى، يشعر أنّه مدين لهفوتها في نشوء وعيه، وصحوة فكره الدائم في التركيز على المساواة والعدالة الاجتماعيّة.

غادرت وداد خانم الحياة منذ أمد طويل. ومنذ مدّة أقرب، غادر بعض ممّن تشارك شاميّ معه الرحلة المدرسيّة. ومعظمهم لا زال مثله على قيد الحياة: منهم من بقي في وطنه الأصل، ومنهم من توزّع في أرجاء الأرض. منهم من لا زال شاميّ على اتصال معه، خصوصًا مع سهولة وسائل التواصل الحاليّة، ومنهم من انعدم التواصل.

يعلم شاميّ أنّ فاروق بخير، ويعيش في بلد غربيّ، لكن ليس بينهما أيّ تواصل.

الآنسة بسمة لا يعرف عنها شيئًا سوى أنّها تزور مخيّلته بين الحين والآخر، وحين تفعل تأتي بكثافة الحواسّ الخمس فتثير في نفسه عواطف حبّ سرمديّة، ومشاعر جنسيّة متأخّرة.

لكنّ أعمق المشاعر تطغى عليه حين يتذكر وقفته على طاولة الصفّ البيضويّة. يستجمع في تلك الذاكرة الأساليب

الاجتماعيّة السائدة بكلّ جهلها وبراءتها، بتعمّدها وعدم قصدها. الاستبداد، والنفاق، والتمييز بين الناس، وعدم التمييز بين المعطيات.

طيلة حياته بقيت معه ردّة فعله المستاءة من كلّ تلك الممارسات الاجتماعيّة دون أن يتخلّى عن محبّته واعترافه بفضل الجوانب الأخرى لمن كان يمارسها، وبعضهم من أقرب الناس إليه. لكنّه الآن فقط ربط بينها وبين تطوّر سلوكه الحياتيّ الذي جعل منه رجلًا مباشرًا صريحًا لا يجامل، ولا يخشى، فيما يعتبره الحقّ، لومة لائم.

لم تترك له أساليبه كثيرًا من الأصدقاء، لكنّه يفتخر بأنّه فكّر بتلك الشوائب المسلكيّة، التي يدّعي الناس أنّهم يريدون التخلّص منها، وهو لم يتجاوز السابعة.

نهاية ... وبداية

منذ كنت طفلًا وأنا أسمع عبارة "هذه نهاية العالم!" كانت جدّتي على وجه الخصوص تردّدها، ضاربة بيديها على رأسها، كلّما أرادت التعبير عن استغرابها أو احتجاجها على مشاكل العالم، أو ما تراه من كلّ ما هو جديد، وخصوصًا ذلك الذي يصطدم مع ثوابتها وأفكارها التي نشأت عليها.

اليوم هرعت حفيدتي ليلى، ذات السنة والنصف من العمر، التي كانت في زيارتنا، باتجاهي تريد مشاركتي بـ"إصبع" من اللوز والبندق والزبيب كنت أتناوله. قسمته نصفين، وأعطيتها النصف الباقي مع ورقة اللف التي كانت حوله لتدريبها على مسكها. أمْسَكَتْ القطعة بيد، ونزعت عنها الورقة محتفظة بها باليد الأخرى، رافضة تسليمها لي، وتفَقّدَتْها عسى تحوي أيّ بقايا. وقبل أن تشرع بالتهام ما في يدها، اتجهت مسرعة بخطواتها، التي لا زالت بحاجة لكثير من التوازن، من حيث كنّا في غرفة الجلوس، إلى المطبخ. فَتَحَتْ الخزانة تحت المغسلة، وألقت الورقة في سلّة المهملات، وعادت إلى غرفة الجلوس تلتهم ما في يدها بلذّة ظاهرة.

كان هذا مفاجأة بالنسبة لي لأنّ حفيدتنا لا تقيم معنا، ولم أكن أتوقّع أنّها تعرف أماكن الأشياء، أو أنّه يمكنها اكتشافها

بالقياس والاستنباط، خصوصًا أنّه لم يسبق لنا مشاهدتها تقوم بمثل هذا عندنا.

أنا متأكّد أنّ كثيرًا ممّن له أحفاد قد يمرّ بمثل هذه التجربة، والمقولة الدارجة في عصرنا التقانيّ اليوم "يا له من جيل ذكيّ". ولذلك حين أرى أنّ من سيخلفنا على الأرض هو بمثل هذه الفطنة، لا يسعني سوى القول: "هذه بداية العالم."

ليلة الميلاد

الجدّ: هل تعلمين يا ياسمين أنّكم ستقضون ليلة الميلاد عندنا؟

ياسمين: هذا جميل. هل ستقدّم لنا بعضًا من مفاجآتك؟

الجدّ: طبعًا، كالعادة. ولكنّني هذه المرّة أحضرت مفاجأة مثيرة لك ولأخيك يعقوب.

ياسمين: هل لي أنْ أحزر ما هي؟

بعد عدّة أسئلة وأجوبة وتلميحات، استطاعت ياسمين، ذات السنوات الخمس، أنْ تعرف أنّ المفاجأة هي مَرْكَبة تعمل بالتحكّم عن بعد، ثم سألت:

وكم لوحة تحكّم لها؟

الجدّ: واحدة.

ياسمين: هذا يعني أنّني سأتقاتل عليها مع يعقوب.

أخ!

أضداد

في مناسبات عنايتنا بالأحفاد، أعمد كلّ مرّة على إشغالهم بتحدّيات عمليّة وفكريّة.

توجّهت اليوم إلى حفيدتنا ذات السنوات الست، وقلت لها إنّ لعبتنا اليوم هي لعبة الأضداد، وشرحت لها المقصود، فقالت مباشرة: "يعني حين تقول 'ساخن'، أقول 'بارد'."

بدأنا اللعبة، وكانت دائمًا تعطي الجواب الصحيح إلى أن وصلنا إلى الكلمة الثامنة. حين ذكرت لها الكلمة، نظرت إليّ نظرة عتاب وقالت بحدّة: "ولكنّي لا أعرف معنى هذه الكلمة!"

قائمة الطعام

واحدة من ألعاب حفيدنا وحفيدتنا المفضّلة "مطعم مع خدمة التوصيل". ياسمين (ست سنوات) تقوم بدور المديرة والطاهية. يعقوب (أربع سنوات) يقوم بدور المساعد وسائق توصيل الطلبات. جدّو (حضرتي) هو زبونهما الموقّر.

غالبًا ما نقوم بهذه اللعبة على شرفة منزلهما الواسعة. أجلس أنا في طرف، ويقيمان "مطعمهما" في الطرف المقابل. يجلس يعقوب في سيارته اللعبة، ويقودها جيئة وذهابًا بيني وبين ياسمين.

خلال المرّة الأخيرة التي كنّا نقوم برعايتهما هذا الأسبوع، وبعد عدد من الألعاب، توجّهت إلى الشرفة لإجراء مكالمة هاتفيّة بهدوء. جلست، دون قصد، في مكان "الزبون".

وبسرعة هرعا خارجَيْن، والتحق كلّ منهما بمكانه المعتاد لهذه اللعبة. لكنّ يعقوب طلب منّا الانتظار، ورجع إلى الداخل. أحضر ورقة وبعض أقلام التلوين، وجلس إلى مائدة الطعام منهمكًا فيما يخطّ.

حين انتهى، أسرع خارجًا إلى أخته يريها الورقة، ويقول إنّ المطعم المحترم يجب أنْ تكون لديه لائحة طعام.

انتظرت بشغف حتّى أرى نوع الكتابة التي يمكن أنْ تنتج عن طفل لا يعرف بعد كيف يكتب. ولكنْ حين قدّم يعقوب لي

لائحة الطعام لأختار، تبيّن لي أنّه وجد طريقة مناسبة ذكّرتني باحتمال ما كانت عليه بداية الأبجديّات. ذهلت بما رأيته من رسوم مختلفة تشبه الكتابة الهيروغليفيّة.

أشرت إلى واحدة. قال هذه "هامبرغر". وسمّى لي كلّ الرسومات. وكان كلّ مرّة يعرف ما يمثّل كلّ رسم.

تعاطف

الخميس: اليوم الذي نقوم فيه برعاية حفيدتنا وحفيدنا، بينما يواصل والداهما العمل من المنزل بسبب تداعيات الوباء "الكوفيديّ" الذي يجتاح سيدني.

عادة كنت أحضر مع زوجتي لتقديم الرعاية، لكنّني الآن أقوم بذلك وحدي لأنّ القوانين تشدّدت، ويجب أن لا يقوم أكثر من شخص واحد بالزيارة. وبما أنّني أنجزت الجرعتين المطلوبتين من اللقاح، بينما زوجتي لا زالت تنتظر الجرعة الثانية، رأينا أنّ المهمّة تقع على عاتقي.

أصِلُ في الساعة العاشرة صباحًا، وأبدأ مباشرة في الإشراف على برنامج تدريس ياسمين، ذات السنوات السبع، من البيت. تقوم بمشاهدة بعض التسجيلات التعليميّة، وتحلّ المسائل، وتجيب عن الأسئلة ... كلّ ذلك وفق لائحة منظّمة ترسلها المدرسة من طريق البريد الإلكترونيّ. اللائحة تشرح الخطوات التي يجب أن يتبعها التلميذ، وتحدّد أوقات الراحة كما لو كان الأمر في المدرسة. والطريف أنّه حالما وصلنا إلى وقت الراحة أوّل مرّة كنت فيها مع ياسمين، كانت هي من نبّهني إلى ذلك، وطلبت منّي أن أعطيها ما جلبت لها من الحلوى، والتي يبدو أنّها كانت في انتظارها منذ الصباح.

عند منتصف النهار تمامًا يأتي موعد التواصل مع الصفّ المدرسي من طريق تطبيق "زووم". المعلّمة، ومساهمات التلاميذ والتلميذات، ترفع الرأس.

بعد ذلك مباشرة نجلس لتناول الغداء "الخميسيّ"، وهو ما أُحْضِر معي من المنزل من لبنة، وجبنة الحلّوم، وزيت وزعتر، وزيتون، وما تيسّر لي ممّا هو عادة عناصر الترويقة الدمشقيّة، لكنّ هذا ما يفضّله الحفيد والحفيدة، خصوصًا بوجود الخبز "العربيّ". يستمتعان بقيامي بتحضير "لفافات" حسب طلباتهما. أفتح ربع رغيف، وأضع فيه نوعًا أو أكثر ممّا يروق للطالب حينها، وألفّ الخبز على نفسه على شكل "سيجار". ويلتهمان أكثر من سيجار!

بعد الظهر نمارس معًا نشاطات مختلفة تهدف إلى تنمية الذهن والترفيه معًا، بما في ذلك التمشّي في الضاحية العامرة بالأشجار، وارتياد أقرب حديقة عامّة، بما فيها من ألعاب.

عند الرابعة، أترك الحفيدة والحفيد يتشاركان في الاستفادة من بعضهما، مثل القيام ببناء عمارات من "ليغو"، وأراقب كيف يتعاونان على خلق مساحات جميلة من الأبنية، والمساحات الخضراء، والمزارع، ومحطّات القطار، وما تجود به قرائحهما وهما يتنافسان على إبراز عملهما المشترك في أحسن حلّة حتّى تنال استحسان الجدّ والأبوين، وحتّى الجدّة بالتواصل صوتًا وصورة على "واتساب". ولا أمانع بعد يوم مفيد حافل أن يستمتعا بمشاهدة التلفاز. أثناء ذلك أبدأ بتحضير العشاء للعائلة.

منذ صباح ذلك اليوم كنت أشعر أنّ يعقوب، حفيدنا، يريد أن يقول شيئًا. كان بين الحين والآخر يسألني متى تنتهي شقيقته من فروضها المدرسيّة. كان يعلم أنّ الأولويّة في الصباح لها بسبب الدراسة المنزليّة، مع أنّني لم أكن أتركه تمامًا، بل أعود إليه مرارًا لأرى ما يفعل، وأشجّعه. لكنّه، ولحسن حظّنا، لبقٌ لطيف المعشر. وكنت أعلم لو أنّ ذلك الشيء الذي يريد قوله عاديّ، لربّما سألني عنه في أيّ لحظة.

ما إن انتهينا من الغداء، والتفتنا إلى نشاطات العصر، حتّى رمى يعقوب عليّ قنبلته. نظر إليّ ابن الرابعة برهبة وترقُّبٍ وسألني: "من هم الأبورجينيّون يا جدّي؟ ومتى سكنوا أستراليا؟"

أحسست من تصرّفاته أنّه كان يعلم أكثر ممّا يصرّح، وأنّه أراد تأكيدًا لمعرفته من جهة يعتبرها موثوقة.

قلت له إنّهم السكان الأصليّون لهذا البلد، وإنّهم كانوا هنا قبل أن تسمّى أستراليا.

عاد يسألني ببعض التلعثم: "ولكن ماذا حلّ بهم؟ ماذا حلّ بهم؟"

بدأت أشرح، محاولًا عدم الوقوع في مأساة تفسير الحقيقة الأولى، أنّ الإنكليز حضروا للاستيطان في أستراليا منذ مئتي سنة، وتبعهم الأوروبيّون، ثم بشرٌ من كلّ أنحاء العالم، وها نحن هنا.

"ولكن ما حلّ بالأبورجينيّين؟"

أخبرته، بتردّد، أنّه نشبت بعض المعارك بين المستوطنين والسكان الأصليّين. عندها تدخّلت أخته، ذات السبعة أعوام، وقالت إنّ الإنكليز قتلوا معظم الأبورجينيّين.

نظر الصغير إليّ برعب أرعبني، وفي ملامحه سؤال. هززت رأسي مصادقًا على قول الشقيقة. عندها أدار رأسه بعيدًا عنّي، وبِصَمْتٍ مطبق رأيت قميصه يتبلل بغزارة دموعه التي حاول كبحها دون أن يفلح.

أدير رأسي بعيدًا، مداريًا دموعي وعذابَ كوني متعدٍّ آخر على حرمة هذه الأرض.

عندما كنت طفلًا

كلّما زار الأحفاد بيت الجدّ والجدّة، ينطلق الجميع إلى منتزه "بحيرات تشيريبروووك". منتزه جميل يقع على مسافة سير قصيرة من المنزل.

"التمشاية" على ضفاف البحيرة، والاستمتاع بنوافير المياه، ومشاهدة فراخ البط تنتظم في أرتال خلف أمّهاتها على صفحة الماء، والطيور التي تحلّق وتحطّ لاهية بين الهواء والماء والشجيرات والتربة، والأشجار الباسقة، والنباتات المورقة، والأزهار المتألّقة، وخشخشة الأوراق التي تفرش الأرض، والروائح التي تدمغ المكان بنكهته الخاصّة، خصوصًا رائحة الأوكاليبتوس، شجر أستراليا بامتياز، تشكّل تجربة روحيّة وجسميّة فريدة يميّزها الأطفال بذكاء.

قبل سنتين، حين كان عمر الحفيد سنتين، كان الجدّ وحفيده وبقيّة أفراد العائلة يستمتعون بهذه المشاهد وهم فوق منصّة خشبيّة تمتد فوق البحيرة لمسافة تكفي لتجعلك تشعر أنّك وسط البحيرة، والماء يحيط بك من كلّ الجهات.

وهم في غمرة هذا السحر، فلتت قنينة الماء من يد الحفيد ووقعت في البحيرة. كان الحفيد يصرّ دائمًا على حمل قنينته معه. ولمعرفة الجدّ بأهمّيّة ذلك، ورؤيته الذعر الذي ارتسم على وجه الحفيد، كان عليه التصرّف بسرعة.

كانت القنينة تنجرف تحت المنصّة مع تيّار الماء من جهة وقوعها إلى الجهة المقابلة المكشوفة. كانت واضحة من الفراغات بين الألواح الخشبيّة التي تشكّل أرض المنصّة.

انبطح الجدّ على الأرض في الجانب الذي توقّع ظهور القنينة منه، ومدّ ذراعه إلى أقصى حد من خلال قضبان الحاجز الذي يحمي المتنزّهين من السقوط، واستطاع التقاط القنينة بمجرّد أن ظهرت في الجانب المكشوف.

البهجة العارمة ارتسمت الآن على وجه الحفيد.

واليوم، والحفيد بلغ سنواته الأربع، كان بصحبة جدّته في ذلك المنتزه. وبمجرّد بدء مسيرهما فوق المنصّة، التفت إلى الجدّة وقال: "عندما كنت طفلًا صغيرًا، فلتت من يدي قنينة الماء هنا وجدّي استعادها لي."

أحبُّكَ بالثلاثة!

مشينا معًا ذلك الصباح. تحمل على ظهرها حقيبة المدرسة المحمّلة بالكتب وصندوق الغداء، والمزركشة بما علّقته عليها من حمّالات الألعاب المتناهية الصغر من سيّارات وحيوانات وشنطات، وهي هدايا أحرزتها من المعلّمات أو الأصدقاء.

وجهها مشرق ناصع بالأمل. تقول لي إنّها تحبّ المدرسة، وتسألني لو كنت أحببت المدرسة حين كنت من عمرها. تجنّبت الإجابة بمبادرتي بسؤالها عن برنامجها لذلك اليوم.

أمسَكَتْ ابنة السنوات السبع بيدي، ورفَضَتْ أن تتركها كلّ مسافة الدقائق العشر من البيت إلى المدرسة. فاجأتني حين أحسست بقبضة يدها الصغيرة تمعن بالشدّ على يدي، وحين التفتُّ إليها والتقى وجهانا قالت لي بابتسامة خجولة: "أحبّك يا جدّي." رأيت وجهها الجميل ينضح بكلّ مشاعري التي تسرّبت إلى كيانها في تلك اللحظة. انحنيت وقبّلتُ يدها التي كانت ملك يدي.

وقفنا نتأمّل أزهارًا صفراء تتشكّل كالعناقيد صارخة الجمال على إحدى الأشجار. عنقودان لا غير، يتفرّعان عن غصن واحد، هما آخر ما تبقّى مع نهاية هذا الخريف. نَظَرَتْ إليهما، وقالت ضاحكة: "لا بدّ أنّهما صديقان حميمان ... مثلنا."

صرنا في منتصف المسافة. ازداد الشدّ على يدي مرّة ثانية، وحين التقى وجهانا قالت: "أحبّك يا جدّي." ومرّة أخرى أنحني بكلّ طيبة خاطر، وأقبّل يدها، وأقول: "وأنا أحبّك كثيرًا."

أذهلتني فعلًا. أعلم تمامًا أنّها تحبّني، ولكن ما سرّ هذا اليوم؟ ألأنّه آخر يوم دوام قبل العطلة الفصليّة؟

ودّعتها عند وصولنا بالعناق المعتاد، متمنيًّا لها يومًا مثمرًا سعيدًا. للمرّة الثالثة، ردّت قائلة: "أحبّك يا جدّي."

وهل يجب أن يكون للحبّ الصادق أسباب وأسرار؟

العشاء الأوّل

غالبًا ما يعلّق من لديه أحفاد اليوم كم ذكيّ هذا الجيل. وهذا تمامًا ما كنت أسمعه من والديّ وجيل أجدادي.

ولكن بتوفّر وسائل التطوّر التقانيّ بين أيديهم بشكل لم يسبقه مثيل، يبدو أنّ ذكاء الأطفال هذه الأيّام يتزايد بشكل أسرع، على الأقلّ من الناحية التقانيّة.

في اعتقادي أنّ الأهمّ من ذلك هو قدرة الطفل على إبداء لمسة من الذكاء العاطفيّ في خضمّ هذا الذكاء "الأوتوماتيكيّ".

ولهذا سرّني جدًّا ما حصل حين حضرت حفيدتنا وحفيدنا لقضاء أسبوع من عطلتهما المدرسيّة عندنا.

كانت الجدّة تحضّر العشاء الأوّل في هذا الأسبوع، وقرّرتُ أن نتناوله في غرفة طعامنا "الرسميّة"، بما يتناسب مع ضيوفنا الكرام. نسّقتُ الطاولة كما أقوم بذلك عادة حين نستقبل الضيوف من الأصدقاء أو الغرباء.

اختارت الحفيدة مكانها، وكذلك الحفيد، واستقرّا باعتزاز كما اتضح من بسمتيهما الوقورتين.

كان الصبيّ، ذو السنوات الأربع، عند لقمته الثانية فقط حين بدأ بالتعليق على لذة هذا الطعام وجودته. تكلّم وفي عينيه لمسة من دموع، وتابع قائلًا: "أتمنّى أن يكون والدي ووالدتي ينعمان الآن بعشاء جيّد كهذا أيضًا."

هَرْوَلَة

عندما أنهيت تخصّصي، وعدت إلى دمشق بدرجة الدكتوراة في العلوم، كان عليّ أن التحق بالخدمة العسكريّة التي كانت مؤجّلة لحين انتهاء الدراسة.

كان حملة الدكتوراة، والأطباء، وأطباء الأسنان، والصيادلة يشتركون في كتيبة واحدة. وأذكر أنّ كتيبتنا ضمّت حوالي ثلاثمئة نفر، لا يزيد حملة الدكتوراة بينهم عن ستة عشر.

وحملة الدكتوراة هم الأكبر سنًّا بين أفراد الكتيبة، نظرًا لأنّ الدكتوراة لا يتمّ التحضير لها إلاّ بعد إنهاء الدراسات العليا الأخرى. أي أنّني كنت واحدًا ممّن هم أكبر سنًّا.

كنت إلى ذلك الحين لا أمارس رياضة منتظمة، وليس لي في اللياقة البدنيّة والقوّة الجسديّة لا ناقة ولا جمل.

التحقت بالمدرسة العسكريّة في مدينة حلب، وتمّ في اليوم الأوّل استقبالنا من قبل حلّاق المدرسة الذي قضى على كلّ شعرة من شعرات رأسنا. ثم سلّمونا ملابسنا العسكريّة، ووزّعونا على مهاجع يتسع كلّ واحد منها لخمسين فردًا، يشترك كلّ فردين في سرير مزدوج: سفليّ وعلويّ. ولحسن حظّي أنّني كنت في سرير سفليّ، فلم أكن على رغبة في بهلوانيّات التسلّق.

وعلى الرغم من أنّ الأوامر جاءت أنّ النوم هو عند الساعة العاشرة مساء، وأنّ الأضواء إن تركت ستكون عاقبتنا وخيمة، بقي المهجع ساهرًا حتّى منتصف الليل. كلّ فرد في سريره، ولكنّ عدّة محاورات أخذت دورها، رغم أنّ الناس لا تعرف بعضها. مثلًا بدأ أحدهم بالصياح: "في حدا من الضيعة الفلانيّة؟" ردّ عليه اثنان بالإيجاب، وبدأت رحلة التعارف.

خلدت بعدها إلى النوم بعد يوم متعب، ولكن حين دوّى في المهجع صراخ أحد المسؤولين عنّا، اعتقدت أنّي نمت قبل خمس دقائق فقط. كانت الساعة لم تصل الخامسة صباحًا. أمرنا الرقيب بالحضور خلال ربع ساعة إلى الساحة العامّة بملابسنا الرياضيّة.

كانت تلك أولى ما واجهت من مفاجآت، لأنّ ما قيل لنا سابقًا هو أنّ اجتماع اليوم التالي هو الثامنة صباحًا. الرسالة واضحة. هذه عسكريّة، وليس لنا سوى الخضوع للأوامر. امتثلنا طبعًا، واجتمعت الكتيبة كلّها في الساحة. صدرت الأوامر بالهرولة، وانطلق الجمع أمامًا في وجهة نعلم بدايتها ولا نعلم نهايتها. كان علينا أن نتبع سيّارة "جيب" تسبقنا وتتوقّف، تسبقنا وتتوقّف ... وفي المؤخّرة بعض الرقباء يتأكّدون أنّ أحدًا لن يغادر.

أنا الذي لم يهرول مئة متر في حياته حتّى ذلك الحين، كان الآن يشارك في "ماراثون" يغطّي عدّة كيلومترات. طبعًا بدأ بعضهم بالسقوط إلى جانب الطريق تعبًا، وما أن يسقط

أحدهم حتّى تنهال عليه شتائم الرقيب، وأهمّها تعييره بأنّه "حرمة"، وحثّه على المواصلة.

لم أكن أعرف متى سيكون سقوطي. لكنّني صمّمت أنّه إذا لم أستفد شيئًا من دورة العسكريّة هذه، فعلى الأقلّ أحسّن أدائي الرياضيّ.

حين انتهى المسير كنت أنا بين الخمسة في المؤخّرة. على الأقلّ لم أسقط. واجهت بقية ذلك اليوم بالدروس والتدريبات، وألم شديد في عضلات الساقين.

فكّرت أنّه حتّى أكون واقعيًّا، ربّما يمكنني تحسين أدائي لأكون بين آخر خمسين من أصل ثلاثمئة. علّمت نفسي كيف أنظّم حركتي وتنفّسي، فلم يكن هناك من يعلّمنا ذلك. يقولون اركض، يجب أن تركض.

مع انطلاقي، كلّ صباح، قرّرت أن ترافقني بعض الكلمات التي تكون لي عونًا على حسن الأداء، ليس في تحمّل المشقة فقط، بل تحويلها إلى فائدة. كنت دائمًا أفكّر بزوجتي وابنتيّ. ولهذا بدأت حين الهرولة أردّد مع كلّ خبطة قدم:

نجاة، عزّة، جمانة: حبّ، حياة، أمانة / نجاة، عزّة، جمانة: حبّ، حياة، أمانة / ....

التأثير كان سحريًّا. صارت الهرولة متعة، ومع كلّ يوم كنت أحسّ بروعة الإنجاز مهما كان بسيطًا.

في آخر مسيرة من هذا النوع، كنت أنا بين العشرة الأوائل. هنّأت نفسي وقدّمت لها الجائزة الكبرى: ابتسمتُ فتجلّت لي

صور تلك القدرات التي رافقت عزمي وإصراري: ثلاثٌ من أجمل نساء العالم.

بعد انتهاء الدورة العسكريّة وعودتي للحياة العاديّة، تابعت رياضة الهرولة لسنين عديدة، ثم عدلت عنها إلى المشي الجادّ، بالإضافة للسباحة وتمارين أخرى لا زلت أمارسها بشكل يوميّ.

عمّة عايدة

ماذا تفعل حين ترقد الإنسانة، التي تعتبرك من أحبّ الناس إليها، على فراش المرض، وأنت على بعد يزيد عن أربعة عشر ألف كيلومتر عنها، ولا تسمح ظروفك الحاليّة، وغيرها من الظروف، أن تسافر إليها؟

بعضُ ما اختزنت الذاكرة يتشبّث بنا لأنّه ينمّ عن لحظات دمغت حياتنا بالحبّ والأصالة. من هذه اللحظات التي لا تبرحني هي حين كانت عمّتي "عائدة"، والتي نخاطبها "عمّة عايدة"،معلّمة الفنون الجميلة، تصطحبني معها إلى "مدرسة مكتب عنبر" العريقة في دمشق القديمة، وكانت لفترة تسمّى "مدرسة الفنون النسويّة" على ما أذكر، حيث كانت تُدرّس مادة الخياطة والتطريز، فتتباهى بي أمام زميلاتها وطلّابها، وأنا صبيّ السنوات السّبع الذي حمل معه مشاهد تلك اللحظات طوال حياته.

أصل تسمية "مكتب عنبر" تعود للعهد العثمانيّ حينما صادرت الدولة "العليّة" هذا الصرح الذي يعتبر من أجمل البيوت الدمشقيّة، وحوّلته إلى مدرسة للصبيان، تخرّج منها بعض أهمّ رجالات سوريا.

يعود البيت لمنتصف القرن التاسع عشر، صمّمه وبناه يوسف أفندي عنبر على مساحة خمسة آلاف متر مربّع، وجعله من ثلاثة أقسام، لكلّ منها باحّته، وضمّت الأقسام أربعين غرفة

تتوزّع على طابقين. وآخر ما توصّل إليه هذا الصرح من تطوّر هو أنّه الآن مقّر لمديريّة دمشق القديمة.

أكثر ما علق في ذهني، من تلك الزيارات، الفُسح التي تصل بين الأقسام المختلفة، والصعود إلى الطابق الثاني لزيارة أحد صفوف الرسم والأشغال اليدويّة. أمسكت عمّتي بيدي وطافت بي بين الفتيات للاطّلاع على ما يقمن بإنجازه. استوقفني كرّاس لتلميذة من معارف عائلتنا، لمياء، التي ابتسمت لي ابتسامة لا زالت تومض في ذهني بكلّ جمالها كلّما عُدت بالذكرى إليها. قامت بتقليب صفحاته من الرسوم، والزخرفات، والنقوش الدقيقة التي قامت بإنجازها، ولوّنتها بألوان تكشف عن ذوق رفيع.

كانت تلك الزيارات تصيبني بنوع من الذهول، وهو ما يمكن أن يكون تعبيري عن إعجابي الكبير بما كنت أرى وأكتشف. كما كانت ترضي غروري، إن صحّ التعبير، لما كنت ألقاه من اهتمام من قبل من كنّ لي نجمات متألّقات في سماء ذهني، وأنا اليافع الذي يتوق لمعانقة السحاب.

العمّة عايدة صارت أيضًا "الحاجّة" عايدة، وربّما كان هذا من أهمّ بهجات حياتها، وهي التي آلت على نفسها (أو ربّما جنت عليها) أن لا تقبل من تقدّم منها للزواج، على قلّتهم. كانت أبيّة النفس عزيزتها، ولا زالت تعيش على تراث سمعة والدها الذي كان في وقت من الأوقات من الأثرياء، لكنّه فقد تلك المنزلة نتيجة لظروف الحرب العالميّة، وتغيّر أساليب تجارة الحرير التي كان يعمل بها. خسر مكانته في الثراء، لكنّه حافظ على مكانته

كأحد أعيان مجتمعه، وهذا ما مكّن أفراد العائلة الاستمرار بشعورهم "الأرستقراطيّ" تجاه الآخرين، رغم أنّ كثيرًا من الجيل الجديد، من عائلات متواضعة، صار يفوق جدّي ثراءً أضعافًا مضاعفة.

حادثتان بقيتا في ذهني، إمّا لأنّي لم أسمع غيرهما، وإمّا لأنّهما فريدتان لا ثالثة لهما. أولاهما، تاجر كويتيّ ثريّ من عملاء والدها تقدّم إليها. رفضته، أو رفضوه، لأنّها لا تريد أن "تتغرّب"، وهي ابنة "الأكرمين". هذا ما وَصَلَنا، نحن الأطفال والشباب، من شذرات الأحاديث أو الإشاعات التي كنّا نسمع ممّن هم أكبر منّا، أو من الخادمات حين يتهامسن.

الحادثة الثانية حصلت بعد سنين من الأولى، وهذه المرّة تقدّم لها رجل يعمل سائقًا شخصيًّا عند أحد الأقرباء. أذكره مائل إلى السمنة، وسيم الوجه، أنيق الملبس، مهذّب الكلام. رَفَضَتْهُ! المسكين سليل عائلة متواضعة، فقيرة، وفوق هذا "مجرّد سائق". أذكر أنّني حزنت جدًّا، لأنّني كنت أحبّه وأحترمه، بيد أنّني احترت على من يتوجه الحزن: أعليه وقد خسر نسب عائلة مرموقة، أم عليها وقد خسرت "فرصة عمرها"؟ أم أفرح لكليهما بفشل ما كان لا يستند على تفاهم خاصّ بين الطرفين؟ لكنّها اختارت، ولا أعتقد أنّها أُرغمت على أيّ قرار. ما كان يتحكّم في ذهنيّتها هو الكبرياء، وعدم مواجهة الواقع والتآلف مع متغيّرات الأمور، مع عبور الزمن.

الكبرياء، وهذه الأنفة، واعتمادها على نفسها بعد أن رمتها الظروف في ربوع الحياة الوظيفيّة طيلة عمرها الفاعل، كانت

خلالها تمشي كثيرًا، وتستعمل حافلات النقل العامّة بكلّ عشوائيّتها وزحمتها، تذهب للتعليم، وتتبضّع حوائج إعداد الطعام، وتحمل الأكياس في طريق عودتها إلى المنزل، التي انتهت إلى العيش فيه وحيدة مع ابنة أخ لها سنين طويلة حتّى اليوم، هو ما يجعلها الآن ترفض المساعدة من أحد.

بعناد شديد طردت كلّ الممرّضات اللاتي حاول الأقرباء إحضارهن للمساعدة في الاعتناء الكامل بها، بعد أن صارت حركتها متعثّرة حتّى باستعمال الوسائل التي تعين على المشي والتنقّل. كما رفضت مساعدة عدد من القريبات اللاتي تطوّعن لذلك بكلّ طيبة خاطر. تلك التي في يوم من الأيّام كانت تتّخذ قراراتها متأثّرة بإرثها "الأرستقراطيّ"، نراها اليوم تتّخذها متأثرة بإرث الكادحة التي لا تحتاج أحدًا.

وأخيرًا وافقت على الانتقال إلى المستشفى بعد إقناع شديد قام به قريب ذو عقل راجح، مستعينًا باستخدام "نفوذي" لديها على أنّني أنا الذي يرغب لها في هذه الخطوة حتّى تتحسّن صحّتها، وهو يعلم ما تكنّه لي من محبّة واحترام، ما دفعه للتنسيق معي حول هذه القضيّة.

كنت أكلّمها مرّة أو مرّتين في الأسبوع عبر الهاتف من سيدني، ولفترة طويلة كنّا نتواصل عبر تطبيق حمّلناه لها على لوحة إلكترونيّة، زوّدناها بها، وتعلّمت كيف تستخدمها للرّد على مكالماتي. أمّا الآن، وهي في المستشفى، فليس لي سوى أن أعتمد على الأقرباء، الذين يقومون بزيارتها، وما لديهم من تطبيقات، في السلام عليها. أربكني هذا، لكنّني حالما اتصلت بأحدهم،

علمت أنّها عادت إلى البيت بعد ثلاثة أيّام، ولا بدّ من العناية المنزليّة. وهكذا عدنا إلى محاولة إقناعها بقبول الممرّضة في البيت، ويبدو أنّها لانت قليلًا بعد تجربتها مع الممرّضات في المستشفى. وبدأتُ بمخابرتها يوميًّا لدوام تشجيعها، وحثّها على الثقة بمن حولها، وأنّهم يعملون لصالحها.

وعلى الرغم من أنّ عمّتي عايدة كانت أصغر عمّاتي سنًّا، وعلاقتي الوطيدة كانت مع عمّتي درّيّة، أكبر العمّات، والتي كانت بمثابة أمّ ثانية لي، إلّا أنّ العمّة عايدة، كانت أيضًا تسبغ عليّ ممّا تيسّر لها من عناية الأمومة كلمّا اضطّر الأمر. مثلًا، في سنوات طفولتي الأولى، لايمكن أن أنسى أبدًا فضلها في تنظيفي والعناية بهندامي حين كنت أزور بيت جدّي، في فترة سبق فيها للعمّة درّيّة الانتقال إلى بيت الزوجيّة. هذه المحبّة والعناية انتقلت، دون استئذان، إلى زوجتي وابنتينا. وامتدّ احتضان الطفولة إلى ابنتينا، فكثيرًا ما تركناهما عندها حين كنّا نلتفت إلى أشغالنا وزياراتنا. وكلّ مرّة، حين أكلّمها هاتفيًّا، يكون أوّل سؤال لها عن زوجتي، وابنتينا. وتستفهم بشغف عن أحفادنا الذين لم تشاهد أحدًا منهم إلّا بالصوّر، وسبق أن أمّلت نفسها بحضورنا جميعًا، لكنّ الوباء الكوفيدي عرقل الخطّة وقتها.

أعتبر نفسي محظوظًا أنّه عام 2010 بدأت بالتخطيط لرحلتنا السياحيّة السنوية المقرّرة عام 2011. قرّرنا أن ندعو عمّة عايدة وشقيقة زوجتي لمشاركتنا في رحلة حول تركيّا، وحجزت بطاقات الطيران بشكل نجتمع فيه في مطار اسطنبول في اليوم ذاته، ونتوجّه جميعًا إلى الفندق الذي سنلتقي فيه

بمنظّمي الرحلة وبقيّة المشاركين. كنت قلقًا حول إمكانيّة عمّتي المشاركة في هكذا رحلة، مليئة بالتنقّل والمسير والاستكشاف. لكنّها أثبتت خلال الرحلة أنّها لا تقلّ عزيمة عن أيّ منّا، ولم تسبب لنا أيّ إزعاج أو تأخير. كانت الرحلة من أجمل ما قمنا به من رحلات. كنّا سعداء جدًّا.

أثناء الرحلة بدأت شعلة الحرب في سوريا تتّقد. وبدأنا نفكّر أنّه ربّما نضطرّ لتغيير وجهة عمّتي ورفيقتها إلى بيروت، حيث تسكن شقيقة لي، عوضًا عن دمشق. لكنّ هذا لم يحصل، وانطلقنا في نهاية الرحلة إلى المطار. العمّة ورفيقتها تتوجّهان إلى دمشق، وأنا وزوجتي نبدأ رحلة العودة إلى سيدني.

عند الوداع، تمنّيا علينا زيارة دمشق في المستقبل القريب. كان جوابي أنّنا ربّما لن نرى دمشق ثانية. غادرتنا العمّة والدموع في عينيها. ومنذ ذلك الوداع لم تطأ قدمنا أرض دمشق. لكنّ تلك الرحلة عنت الشيء الكثير بالنسبة لي.

وكذلك كنت على غاية السعادة حين أحضرنا عمّتي في زيارة إلى سيدني عام 1994، فتعرّفت إلى أسلوب حياتنا واجتمعت بابنتينا من جديد. وصادف حضورها بعد حصول حرائق الغابات، وأوّل ما طلبت منّي هو أخذها إلى إحدى المحميّات التي احترقت.

حين وصلنا، لم تصدّق أنّ حريقًا نشب في تلك الغابات. الذي حصل هو أن امطارًا غزيرة هطلت بعد الحريق، فبدأت أشجار الأوكاليبتوس بتجديد نفسها، وكانت مكسوّة بالنموّ الجديد للأوراق بشكل لم أتوقّعه أنا بالذات. وبما أنّ العمّة لم

تكن على علم كيف كان شكل الأشجار قبل الحريق، اعتقدت أنّها طبيعيّة كما رأتها.

أذكر أعمالها الفنّيّة في تطريز اللوحات، ودقّتها في تفصيل القماش. وأذكر متابعتها لمجلة "بوردا" حين كانت ناشطة في تدريس التفصيل والخياطة.

استطاعت عمّة عايدة التصالح مع نفسها، فكانت حياتها غنيّة بالعمل والعطاء.

يمكن القول إنّها ثبتت دون مساعدة أحد، وكانت جبّارة في قدراتها وكبريائها، لكن ربّما لم تكن تتصوّر أن يأتي يوم تكون فيه عاجزة، وبحاجة لرعاية الآخرين.

كيف يمكن للمرء ردّ أفضال من كانت تمسح أسفله، وكيف له أن يصبر الآن وهو يراها تتداعى بعيدة على فراش النهاية، دون أن يكون له شرف ردّ الجميل، أو على الأقلّ طبع آخر قبلة على يدها؟

ها أنا هذا

ها أنا هذا أجلس على شرفة منزلي أكتب سطورًا من حياتي. أتذكّر طه حسين و"دعاء الكروان"، منه تعلّمتُ "ها أنا هذا"، وهو تعبير أحبّه لفخامته وقوة تأكيده، حسبما أرى، بعيدًا عن الصفات البلاغيّة التقنيّة التي لا أعلم مفرداتها، والتي يمكن أن تستخدم لوصف تعبير كهذا.

ذكريات الماضي تتردّد أمامي كدعاء الكروان الذي "كان يُرَجِّع صوته هذا الترجيع حين صرعت هنادي في ذلك الفضاء العريض". ولكنّها الآن محمولة على حناجر أصناف أخرى من الطيور، منها المهاجر، والمستوطن، والأصليّ. ومنها ما يصادقني ويتردّد على حديقتي، يوقظني على تغريده، ويتناول بذور عبّاد الشمس من يدي.

الفضاء أمامي عريض يكتنف الأفق عند التقاء البحر بالسماء، تاركًا لعينيّ التجوّل ببطء بين نجوم بدأت تتحدّد معالمها مع اقتراب الغروب، مرورًا بمياه المحيط الهادئ التي لا تعرف الهدوء، والتي يُطلق عليها اسم "البحر التسمانيّ" في تخوم شرق أستراليا، إلى الشاطئ، ثم التلال التي ترتفع لتصل إلى الموقع الذي شيّدت عليه مسكني في ضاحية "مرتفعات إيلانورا".

أنا على شرفتي سيّد المشهد. ليس أمامي ما يحجب الرؤية، بل كلّ ما أرى يأتي إلى ناظريَّ آية من آيات الجمال

والإبداع. هذه هي سيدني، أجمل مدن العالم طبيعةً. وهذا هو الموقع الذي أسكن فيه، وأسكن إليه لأمارس حبّي في هندسة العمارة. ليس فقط من حيث التصميم والتنفيذ، ولكن العيش في صلب القضيّة، والاحتفاء بما يبدعه العقل والقلب والأيادي. ولهذا أردت أن يكون مسكني تتويجًا لثقافة الجمال والراحة والطمأنينة والانتفاعيّة. تلك هي فلسفتي المعماريّة، أحاول تنفيذها مراعيًا ما أمكن من شروط الحفاظ على البيئة، والاندماج معها.

بصري الآن يغطّي حديقة الدار التي تقع تحت شرفتي مباشرة، وقد أضاءت مصابيحها تلقائيًا مع الغروب. مصابيح ركّبتها ونسّقتها بيدي. أما مصابيح بركة السباحة، المغمورة بالماء، فتضيء بعد نصف ساعة من ذلك، لينبعث من البركة ضوء أزرق يتراقص مع تموّج سطحها، وينعكس بدلال على أشجار النخيل المصطفّة بانتظام حول ثلاثة أرباع محيطها. أضواء تستهلك قدرة ضئيلة، لكنّها تستكمل أجواء الجمال بفيض من الأناقة، وتزيد من أمان المنزل.

تنهار من عيني حفنة من القطرات، لا حزنًا على صدّام حسين الذي أعدموه منذ أيّام، ولكن أسفًا على تلك المهزلة التي أدّت إلى محاكمة لا يمكن أن تكون عادلة في ظل تلك الظروف التي تعكس ذهنيّة عالميّة مريضة، وذهولًا من هذا الإحباط الذي وصل "الشرق الأوسط" إليه، وبكاء من شعور شديد بالعجز. ها أنا هذا في حضن الغرب الذي آمنت بقيَمِه، وكنت عنصرًا بنّاءً في صرحه، أراه يخذلني برمائه مثلما سبق لبني قومي أن فعلوا. ما

أصعب أن أكون في هذا النعيم الجغرافيّ، ولا ألبث أتلقّى وخز جحيم التاريخ. نعم! عقدة 1967 تلاحقني، لا لأنّها كبّلتني فلجمتني عن مواصلة حياتي، بل لأنّ تطوّر الأحداث نقل المنطقة إلى وضع أشدّ سوءًا، وأكثر تعقيدًا. أسائل نفسي: هل فعلت مافيه الكفاية لأقول إنّي قمت بما عليّ؟

يَرُدّني القمر، الذي كان يقترب من الاكتمال تلك الليلة، إلى الجوّ الساحر الذي أحظى بتنفّس كلّ ثانية تمرّ من تكوينه. وكلّما حلّ الظلام أكثر، كلّما اختال القمر بجماله الوضّاء. استعددت لمثل تلك اللحظات بتركيب فاصم كهربائيّ إضافيّ على شرفتي. قمت فقطعت التيّار عن الحديقة ليصير القمر سيّدة الكون. أردت أن يكون هذا المشهد إحياءً لحدث أعتزّ به، واستذكارًا مسرحيًّا له، فهو من ألهمني الفكرة.

كنت في بعلبك، في لبنان، أحضر إحدى عروض فيروز. بعد فترة من العرض، توقّف كلّ شيئ فجأة، وانقطعت الأنوار كلّها، فأصاب المكان صمت مهيب وظلام دامس، إلّا من ضياء البدر المكتملة الوجه تلك الليلة. وفجأة انطلق صوت فيروز باللحن الرائع "نحنا والقمر جيران". أنا متأكّد أنّ القشعريرة التي أصابتني يومها أصابت كلّ الحضور، ودخلت في نسيج أعمدة معبد جوبيتر. لا أعتقد أنّ مثل تلك اللحظة يتكرّر كثيرًا.

لكنّني اليوم دون فيروز، وبلا هنادي. البدر شفيعتي لكنّها لا تكفيني. أما هنادي التي أنا بصددها، فإنّما سمّاها أبوها كذلك بعد أن قرأ "دعاء الكروان" هو الآخر. لكنّه هو الذي صُرِع، لتبقى ابنته وحيدة بين أربعة أخوة حين لم تتجاوز الثانية

من عمرها. ولترميها الأقدار ذات يوم في حياتي، فتعود لتنتزعها منّي بعد أن تركت لي ولدنا الوحيد.

زيارة

السنوات الخمس الأولى لبداية القرن الواحد والعشرين بدت لكثير من السوريّين على أنّها قد تكون بداية عهد جديد يقوم فيه رئيس البلاد الشابّ بإصلاحات طال انتظارها.

أمّا ذلك الكهل، فكان يعلم تمامًا أنّ هذا مجرّد أمل، لكنّه على الرغم من ذلك لم يفقده ولا للحظة. ولذلك حين اتجه من سيدني إلى دمشق في إجازة إلى وطنه الأمّ، كان فكره يعجّ بتمنّيات الخير والازدهار لوطن سرمديّ. أكثر أفكاره الملحّة كانت أنّه يريده وطنًا دائم الوجود على أرض الواقع، لا مجرّد ذكرى زمنٍ مضى وانقضى، يمجّدها الناس ويبقون عندها ساهين عن مستلزمات الحاضر والمستقبل.

ذات يوم من أيّام الإجازة اتجه مع زوجته إلى مدينة حمص على متن حافلة أنيقة، يدعونها "بولمان"، تعمل على خطّ دمشق-حلب، على أساس أنّها في طريقها تتوقّف عند مدينة حمص، من أجل الركّاب المتوجهين إلى هناك، قبل المواصلة إلى وجهتها النهائيّة.

سبب الزيارة دعوة من رابطة أدبيّة كانت بينه وبينها نشاطات كثيرة، وأرادت الرابطة تكريمه وتعريفه إلى أعضائها، وإلى بعض أدباء وفناني حمص. استعدّت زوجته كعادتها لهكذا زيارة، فارتدت حلّة وثيرة، وتزيّنت بمصاغها من الذهب والألماس،

وتألّقت بجمالها الفتّان، حتّى بدت وكأنّها نجمة سينمائيّة حلّت في بلاد الشام.

أشار مُضيّ وقت الرحلة، وملامح الجغرافيا التي يعرفها، إلى اقتراب مدينة حمص. قدّر أنّ ما تبقّى للوصول لا يزيد عن عشرة كيلومترات. ولكن عند تلك اللحظة توقّفت الحافلة أمام استراحة من تلك التي تخدم المسافرين. ظنّ أنّ التوقّف هو من أجل ركّاب حلب، وأنّ الحافلة ستتابع إلى مركز حمص. لكنّه قبل أن يكمل تقييم الوضع في ذهنه سمع السائق ينادي بصوت غلب عليه الصراخ وصيغة الأمر: "ركّاب حمص انزلوا هون، يللا أوام ... "

حين بدأ احتجاجه، وأنّه لم يعلمه أحد، قيل له إنّ الكلّ يعلم هذا الترتيب، وأنّ القضيّة بسيطة لأنّهما إذا وقفا على الطريق العامّ تمرّ بعض الحافلات الصغيرة التي يسمّونها "ميكرو"، ويمكن بسهولة التوجّه بواسطتها إلى قلب حمص خلال عشر دقائق.

كانا يعلمان أنّه لا خيار لهما. تجاوزا منطقة وعرة بين الاستراحة التي سبق أن توقّفا عندها، والطريق العامّ. وتحمّلت الزوجة تبعات ارتداء "الكعب العالي". (سيضيف هذا إلى لائحة ذنوبه.)

بدأت عمليّة جادّة في تحرّي الحافلات المارّة، ولأيّ منها يجب أن يؤشّرا لتقف. وبعد حوالي ربع ساعة توقّفت واحدة. قام بفتح الباب بصعوبة، وهو من النوع الذي ينزلق للخلف على جانب الحافلة. فوجئ أنّها مليئة، عدا مقعد واحد جانب الباب.

لاحظ الركّاب والسائق ارتباكهما. توجّه السائق إلى الزوجة بصوت فيه بعض العصبيّة قائلًا: "طلعي يا إختي طلعي. قعدي هون،" مشيرًا إلى المقعد الخالي الوحيد. كان يتساءل ضمنًا إلى أيّ مكان سيشير السائق من أجل جلوسه. انحنى السائق قليلًا، وسحب بيده قطعة ظهرت وكأنّ الأمر من فعل ساحر. ضغط السائق عليها للتأكّد من ثباتها، وقال: "شرّف يا أستاذ."

جلس على شبه مقعد مواجهًا زوجته وكلّ الركّاب. الحافلة تغصّ بركّابها الذين لا يشكّلون أكثر من دزّينة من الرجال والنساء. ما إن بدأ بالتأمّل وعواقبه من التفكير، حتّى طلبت شابّة النزول. بعد فتح الباب الذي تطوّع له رجل بثياب عسكريّة كان يجلس خلف الشابّة، ووقف منحنيًا، مادًّا ذراعه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا فأمسك بقبضة الباب وشدّه بكلّ قوّته إلى الخلف. لا يمكن للشابّة النزول دون أن تنزل زوجته أوّلًا وتثني مقعدها. وبعد مغادرة الشابّة التي يبدو، ممّا تحمل من أدوات، على أنّها فتاة في كلّيّة الهندسة، تحاول زوجته إعادة المقعد لوضعه السابق، فيتطوّع هو وأكثر من راكب وراكبة بالمساعدة. تعود زوجته إلى مكانها. يُغْلَق الباب. تنطلق الحافلة، وتتكرّر هذه العمليّة مرّتين على الأقلّ قبل الوصول إلى حمص.

نظر في الركّاب. معظم الشباب والرجال بألبسة عسكريّة. معظم النساء بألبسة قرويّة. رجال ونساء بألبسة بسيطة. لم تتزيّن أيّ من النساء بالحليّ، والخاتم الوحيد الذي لمحه على إصبع سيّدة كان خاتم زواج متواضعًا جدًّا. شَعْر النساء

والرجال شبه "منكوش". لم تكن هناك أيّ إشارات أنّ أحدًا استحمّ ذلك الصباح. يستثنى من ذلك تلك الفتاة الجامعيّة.

السيّدتان المجاورتان لزوجته لم ترفعا أعينهن عن أصابعها وجيدها. حتّى تلك التي تجلس وراءها، إلى يسارها، كانت تشرئب بعنقها قليلًا لتحاول النظر. الوجوه كلّها كانت جادّة، بل أقرب ما تكون ممسوحة بالحزن.

أصابه قلق شديد. هل من المعقول أن يكون ابن هذه البلاد وتفاجئه هذه المشاهد؟ نعم، كانت هذه أوّل مرّة يرتاد فيها حافلة كهذه، وفي مناطق خارج نطاق المدن. حتّى حين كان مقيمًا في دمشق، في طفولته وشبابه، ماذا كان يعلم عن الجماهير؟ يبدو لا شيء. قال لنفسه: نحن أبناء المدن يولد بعضنا و"في فمه ملعقة من ذهب". نستعمل السيّارات الخاصّة، ونستأجر "تاكسي"، وبعضنا يذهب للسياحة داخل وخارج البلاد.

زاد اطلاعه على هذا الجانب من وطنه الأمّ وهو بعيد عنه آلاف الأميال، وبعد سنوات من تلك الزيارة. بعد اندلاع العنف وبداية التهجير واللجوء، ظهر حجم المأساة التي تزداد مع زيادة الفقر والتخلّف الاقتصاديّ. هل أهمّ أسباب المشاكل انعدام الشعور بها، رغم أنّها أقرب من حبل الوريد؟

دخلت الحافلة مدينة حمص، وبدأ يسأل السائق عن العنوان الذي يقصده. طمأنه السائق أنّ العنوان على الطريق نفسه الذي تسلكه الحافلة: "ولا يهمّك أستاذ ما بتنزل إلا عالتمام." اهتم الركّاب بالمسألة. استفسرت احداهن عن طبيعة المكان، وأكّد أحدهم أن لا تثريب عليهما، ولسوف يعلمهما حال

الوصول. أكّد السائق أنّه سبق له التأكيد على هذا: "شو قصتكم، مو قبل شوي قلنا للأفندي إنو حنّزلوا محل ما بيريد؟"

حين توقّف السائق لنا، أكّد كلّ من تكلم سابقًا على صحّة العنوان: "إي هادا هو،" "ليكو المدخل جنب البناية الزرقا،" ...

بدأ يرى في العيون ابتسامات، وخرجت من الشفاه سلامات.

"وداعًا" قالا. "وداعًا" قالوا.

نزل من الحافلة مغادرًا، يحمل معه كرم وطيبة هذا الشعب المغلوب على أمرة، وعقدة ذنب لا يعلم إن كان هو أحد المسؤولين عن ارتكابه.

الطيّارة

أكاد من الفرح أطير!

ها أنا هذه أبدأ بنقل حوائجي الشخصيّة من الغرفة التي تشاركت فيها مع أختي سناء، التي تصغرني بعشر سنوات، إلى غرفة أخينا الأكبر زاهي.

لم يحصل هذا الأمر بسهولة أبدًا. والديَّ، ولأسباب غير واضحة لي تمامًا، أرادا أن أبقى مع سناء في الغرفة التي نتشاركها في الطابق الأوّل من المنزل، ليس بعيدًا عن حجرة والديْنا. حجّة أمّي أنّ سناء لن تستطيع تحمّل بقائها وحيدة في الغرفة. وحجّتي أنّ سناء تكبر، وأنّني، وأنا في آخر سنوات المدرسة، بحاجة للتركيز على دراستي للحصول على المعدّل الكافي الذي يؤهّلني لدخول كليّة الطبّ هنا في بلدي دمشق. ذكّرتها كيف اضطر زاهي للسفر من أجل الدراسة لأنّه لم يحقّق المعدّل المطلوب. وذكّرتها أنّها إذا كانت قلقة على كوني فتاة ستكون في غرفة لوحدها على بعد طابق واحد من غرفة والديها، فحتمًا لن يُسمح لها بالسفر خارج البلاد من أجل الدراسة.

وذكّرتني أنّني فتاة، وأنّ لا أحدَ يطلب منّي المتابعة بعد الثانويّة العامّة، وأنّ والدي، بعون الله وإرادته، قادر على تأمين حياتي إلى يوم زواجي وأكثر.

يبدو أنّها تجاهلت ترتيبي الأوّل في الصف، وعلاماتي التي لم تشهد المدرسة لها من نظير، في كلّ سنة من سنين دراستي. وفكّرْتُ كيف أنّني أريد إتمام تعليمي، وأريد التخصّص والعمل، وأريد وأريد ... لكنّني توقّفت عن الكلام، خصوصًا حين راح ذهني في طريق "أريد أن أكون حرّة"، وحين ذكّرت نفسي أنّ الطبّ ليس ما كان على بالي مطلقًا.

قدّم لي والديّ كلّ الحبّ والعطف والرعايّة بكرم عزّ مثيله: أفضل الطعام وأجمل الكساء. ومقارنة مع أقراني، كنت حتمًا هدفَ أكثر من عين حاسدة.

بيد أنّ شيئًا ما كان مفقودًا. شيء لا أستطيع التعبير عنه بالكلمات. أو ربّما لا أجرؤ أن أقول إنّني رغم هذا النعيم كلّه لا زلت أبغي الحرّيّة. أن أتحرّر من ماذا؟ وكيف أواجه أمّي بهذا الشعور إن كنت أنا نفسي أتخبّط في فهمه؟ وهل يمكن لوالدتي أن تفهمه؟ هل هي حرّة؟ هل رجالنا أحرار أصلًا؟

يصيبني نوع من الرضا (غرور؟) حين أحسّ أنّني أعلم أكثر من أمّي وأبي. ولكن أقرّ بشكري لهما عدم تدخّلهما في عشرات الكتب التي أقرأ. وأطمئن لمديحهما أنّني سابقةُ عمري، وأنّني قادرة على اختيار المناسب. ولعلّ بعض هذا يعود لمحبّة والدي للقراءة، وهو لم يكمل تحصيله أكثر من الابتدائيّة.

جاءتني المساعَدَةُ من أخي قبل مغادرته. أيّد حجّتي في ضرورة الخصوصيّة والتركيز على الدراسة. ذكّر أمّي وأبي بوضعه. وذكّرهما أنّنا في الستينيّات من القرن العشرين، في عصر صار فيه للمرأة مكانة متقدّمة، والمزيد من الفتيات

يكملن دراستهنّ. ونبّه بفائدة أن تُرضي ابنتهما طموحها وهي أمام أعينهما. عندها أقرّت أمّي أنّ التعليم سيجعل من الأمّهات أكثر فهمًا لبناتهنّ، وأكثر قدرة على مساعدتهنّ في واجباتهنّ الدراسيّة، على عكسها هي الجاهلة بهذه الأمور. اندفعت نحو أمّي أعانقها، وأفكّر أنّها لم تقل شيئًا بمثل هذه القيمة منذ زمن طويل.

بقي الشعور بالخيبة يلازمني لأنّه لولا زاهي، الرجل، لربّما ما تحقّق ما أريد. قرّرت أن لا أشغل بالي أكثر بالبحث عن الناطور، وأسرعت أستعد للسعي وراء العنب.

يوم من أيّام آب في دمشق عام 1965. الهواء في باحة الدار ساكنٌ تمامًا، والظلّ وفّر بعض الشعور بالبرودة مقارنة مع شدّة الحرّ في الخارج، لكنّه ما كان ليمنعني أن أذهب بين الحين والآخر إلى البحرة التي تتوسّط الفناء، أو ما يسميه الدمشقيّون "أرض الديار"، بنافورتها، وأداعب الماء بيديّ ثم أجفّفهما على وجهي وصدري. ما كنت لأنقطع لحظة عن أيّ ممارسة تذكّرني بنعيم هذه الجنّة المزدهرة بين جدران وزوايا المنزل ومخادعه.

ما همّني عدد الرحلات التي قمت بها بين الغرف. المهمّ أنّني كنت أوّد الاستقرار والاستقلال في الأعالي بأسرع وقت. أردت جميع كتبي أن تصعد معي. ولهذا كان عليّ أن أجمع ما تركه زاهي على رفوف وطاولة الغرفة من كتب وأدوات، وأضعها في خزانة مخصّصة لمثل هذه الأغراض في سرداب يستعمل أساسًا غرفة

للمؤونة: "بيت المونة". وهي غرفة تحت أرض الديار يحتاج الوصول إليها إلى الهبوط ثماني درجات.

شعائر العمل تركّزت على حملي بعضًا من كتبي، في غرفتي السابقة، في علبة أجتاز بها ممرًّا على طول الطابق الأوّل إلى الناحية المقابلة. وهناك أدخل من باب يؤدّي إلى درج خشبيّ ضيّق يصعد بي إلى سطح المنزل. في نهاية الدرج المسقوف كلّه فسحة فيها باب يؤدّي إلى غرفة زاهي، وآخر إلى سطح المنزل.

أدخل غرفة زاهي، أفرغ ما أحمل، أجمع في العلبة ما استطعت إليه سبيلًا، أهبط الدرج الخشبيّ، أجتاز الممرّ، أهبط الدرج الحجريّ الواصل بين الطابق الأوّل وأرض الديار، أقطع عرض أرض الديار لأهبط الدرجات التي توصلني إلى السرداب، أوزّع حمولتي على رفوف الخزانة، أصعد متلهّفة نحو البحرة، أرطّب روحي وجسدي قليلًا، أتابع صعودًا على الدرج الحجريّ نحو غرفتي السابقة لأجد سناء تحاول جمع بعض الكتب في علبة لأنّها أحبّت أن تساعدني، آخذ ما لديها وأشكرها، ثم أبدأ الجولة التالية.

استمرّت العمليّات لجزء كبير من اليوم، وكنت وسناء نتصبّب عرقًا. لكنّها، على صغر سنّها، كانت فخورة أنّها ستتفرّد بالغرفة. قالت إنّ هذا يشعرها أنّها كبيرة أيضًا.

حين انتهينا، ما كان لنا سوى ما نقوم به عادة بعد مثل هذه الجهود. هرعنا وارتمينا في حضن الماء، وغمرنا جسدينا وما عليهما من كساء وزينة حتّى لامسنا قعر البحرة وأخفنا أسماكها الملوّنة، ثم انتفضنا بارزتين ضاحكتين عابثتين بالماء فرشَشْناه

واحدتنا باتجاه الأخرى، وأصاب مساحة كبيرة خارج البحرة. شاهدتنا والدتنا غاضبة ضاحكة، وشدّدت أنّ علينا تنظيف المكان ونفسينا بأسرع وقت قبل عودة الوالد من عمله.

مقارنة مع كلّ أرجاء هذا البيت، الغرفة على السطح أكثر تذكيرًا بحرّ الصيف الدمشقيّ في عِزّه، فشهر آب يشار إليه على أنّه "اللهّاب". أثناء منتصف النهار تصبح الغرفة أتونًا مُسْتَعِرًا مُسْتَعَارًا من جهنّم. أمّا في الصباح الباكر والليل، فهواء السطح بارد عليل.

كنت قبل اتّخاذ هذه الغرفة مسكنًا أعلم الكثير عن هذا السطح. فيه تُفضّل أمّي نشر الغسيل، رغم الصعود الطويل، لكنّ الشمس "صحّة وعافية" كما تقول. في مواسم المشمش، كنت أساعد أمّي في نقل الصواني لتعريض "المعقود" للشمس ليكتسب قوامه النهائيّ كواحد من أهمّ مكوّنات الترويقة الدمشقيّة: مربّى المشمش. وفي أيّام معرض دمشق الدوليّ كنّا نصعد جميعًا في المساء لمشاهدة الألعاب الناريّة التي كانت تجذبنا رغم بعد موقعها. وأيّام الجمعة كان والدي يتولّى شوي اللحم على منقل الفحم على السطح، وبهذا لا يتأثّر البيت بالدخان وتبعاته. وحين ننزل بالشواء إلى أرض الديار، تكون أمّي قد أعدّت المائدة قرب البحرة في الهواء الطلق، ونتناول الطعام على نشيد النافورة، وفي ظلال الياسمين والنارنج والكبّاد.

أُطلُّ من السطح، محميّة بدرابزين حديديّ، على فناء الدار تحتي لأرى سطح الماء في البحرة، وقد انعكست عليه ظلال

الأشجار والعرائش، وبينها تتبختر الأسماك الملوّنة، ولكأنّ حيلة تصويريّة جمعت بين الكائنات المائيّة والأغصان البرّية.

أرمي ببصري خارج نطاق السطح على مقوّمات دمشق القديمة ببيوتها وشعابها وأزقّتها، وكيف تنتهي عند سفح جبل قاسيون. وكما يفتخرون: "في حضن قاسيون". لكنّ المَعْلَم الأهمّ، والأقرب إلى بيتنا، هو المسجد الأمويّ بمآذنه الثلاث، وهندسته المتميّزة، وما يحويه من تحف: صرح يؤرّخ لحضارة عريقة.

هذه هي الشمس تميل إلى الغروب. ومع تبدّد الحمرة المشرقيّة أتى صوت مؤذّن الجامع الأمويّ رخيمًا بعيدًا، لكنّه مسموع كدمدمات لحن تتقصّد به السماء كلّ أذن صاغية، وتسْتَجِبُّ كلّ قلب صاف. يؤدّي والديّ صلاة المغرب، ثم تبدأ عجقة التحضير للعشاء.

أحسست وأنا على هذا الارتفاع الأرضيّ الذي رافقه صوت يُنسب إلى أعالي السماء، أنّني بتلة ورد محمولة على النسيم. أحسست أنّي أطير بكلّ جوارحي. وفهمت الآن لماذا يطلقون على هذه الغرفة على السطح "الطيّارة". إنّها الغرفة الفريدة عن كلّ المنزل، الشاردة في بُعدٍ وراء منطقة الشفق. الغرفة "البوهيميّة" التي لا تتماثل مع تعقيدات ورسميّات المنزل. إنّها الغرفة التي تناسب محبّتي للعلوّ والسموّ والتمايز والانطلاق في اتجاه النجوم.

أدخل غرفتي الجديدة، وأنظر إليها الآن بعين مالِكَتِها. أحبّ أنّها ستكرّسني على هذا السطح فوق المدينة الخالدة. صحيح

أنّني أحبّ الجنّات الأرضيّة الدمشقيّة، لكنّني أشدّ انجذابًا نحو الانعتاق من أيّ قيد أو شرط يأتي مع الخير والجمال. نعم، أكاد من الفرح أطير!

فَتَلْتُ بإبهامي وسبّابتي زرًّا إلى جانب الباب، فأضاء المصباح الكهربائيّ المعلّق وسط الغرفة بسلك ومَقْبِس من الطراز القديم. الضوء كان باهرًا بقوّة مئة شمعة، ولا شكّ سينفعني في دراستي ليلًا. جدران الغرفة وسقفها مطليّة كلّها باللون الأبيض. الأرض إسمنتيّة مثل أرض السطح. تحدّث زاهي عن تبليطها مرارًا، لكنّ الوقت استبق النيّة. ولذلك كان في الشتاء يفرش عليها سجّادة صوفيّة قديمة من صنع دمشق، طغى عليها اللونين الأحمر والبيج، لكنّ نقوشها فارسيّة التصميم. وفي الصيف تحلّ حصيرة مكان السجّادة.

يتوسّط الغرفة سرير مفرد من الحديد الصبّ المتواضع، ومكتب خشبيّ كبير، بأدراج كثيرة، إلى جانب الباب الزجاجيّ العريض بإطاراته الخشبيّة، وهو الذي يخدم كنافذة للغرفة وكباب إلى السطح مباشرة، فلا يضطرّ من في الغرفة العودة إلى الفسحة في أعلى الدرج ليدخل السطح. وهذا ما أعجبني جدًّا لأنّه يمكّنني من الاستلقاء على الفراش، وأمامي مدى السطح وبعض من السماء التي فيها أُقَبّلُ وجه القمر، وأغمزُ ما تيسر لي من النجوم.

لم أكن أعلم مدى سعة هذه الطيّارة، ولكنّ ما فيها من أثاث يبيّن أنّها غرفة كبيرة الحجم. خزانة للثياب بثلاثة أقسام، ومنضدة جانبيّة بمرآة، تكاد تصل إلى السقف، أمام رأس

السرير، ورفوف قام زاهي بتركيبها على كلّ مساحة متوفّرة من الجدران. بالإضافة لكرسيّ المكتب، يوجد كنبة صغيرة لشخص واحد، يمكنه الجلوس فيها براحة، وسند ذراعيه من الجانبين، وهو يقرأ كتابًا بين يديه.

لن أستغني تمامًا عن غرفتي السابقة التي ستحتفظ بمعظم ثيابي وأدواتي، وعلى كلّ حال لا بدّ لي من النزول إلى الطابق الأوّل لاستعمال المرحاض كلّما دعت الحاجة، وهذا هو العيب الأساس في انتقالي هذا. أمّا الماء، فموصول بالسطح من طريق صنبور وحيد.

صَرَخَتْ أمّي من أرض الديار مرّتين تلك الليلة: "زهرة، زهرة، أما انتهيت من ترتيب الغرفة بعد؟" وأجبتها مرّتين أن لا تقلق، وأنّني سأخلد إلى النوم قريبًا. وأخيرًا، راعني سماع قدميها تطرقان بقبقابهما على خشب الدرج صعودًا نحو الطيّارة. انتفضت خارج السرير بجسدي العاري، وأغلقت الباب تلقائيًّا، ثمّ ارتديت قميص النوم. أعدت فتح الباب وسمعت خطوات أمّي التي كانت تزداد تثاقلًا وتباعدًا مع زيادة الصعود على هذا الدرج الضيّق المغلق. انفجرتُ ضاحكة وأنا أسترجع في ذهني مشاهد من أفلام هتشكوكيّة.

تمالكت أعصابي، وتظاهرت أنّني في آخر مراحل إعداد سريري للنوم. وكذلك هيّأت نفسي لسماع محاضرتها التالية، التي لن تكون سوى إعادة لما هو معهود منها في مثل هذه الحالات. "ألم يكن من الأفضل لو بقيت في الغرفة مع أختك؟

ماذا لو أردت الذهاب إلى المرحاض في منتصف الليل؟ ألست خائفة من البقاء هنا لوحدك في الليل؟ ألن تفتقدي أختك؟"

عانقت أمّي وقبّلتها على وجنتيها، مُصْدِرَةً كلّ مرّة تلك الأصوات المألوفة التي تؤكّد على صدق المشاعر. حبّي لها حبّ أصيل بلا شكّ. لا بدّ أنّها تشعر بذلك.

"تصبحين على خير يا زهراء". كانت تذكر اسمي الآن كما هو في قيد النفوس، وكأنّ "زهراء" أهمّ من "زهرة"، وتستعمله كذلك إشارة إلى رضاها عنّي في نتيجة الأمر. أمّا أنا فانجذابي لم يكن إلى "زهراء" أو "زَهْرَة"، بل إلى الزُهرة ... نعم، إلى مناطق خارج نطاق الحدود المألوفة.

شعرت فجأة بتعب شديد، لكنّني بكلّ سرور كرّمت جسدي العاري بأن جعلت كلّ ناحية منه تلمس نعومة الفراش القطنيّ، قطن بلادي، أجمل قطن في العالم. تقلّبت كثيرًا قبل أن أستقرّ على ظهري وأنظر عبر الباب المفتوح إلى السطح. عندها بدأت جرعات من شذى الياسمين الدمشقيّ، المحمولة على نسائم الليل الباردة، تدخل كلّ منافذي وتضرب عميقًا في مهجتي. كتمتُ تأوّهات نشوتي وأنا أتخيّل لو أنّ فرعًا من عريشة الياسمين، ذلك الذي وصل في صعوده إلى ما تحت الطيّارة بقليل، يتجرّأ أكثر ويتسلل إلى فراشي باحثًا عن جسد يتفتّح للحبّ، فيمعن في مداعبته حتّى الذروة.

استكان البيت وأهله والليل الذي لا أعرف كم سيطول أو يقصر. أحسست أنّني وحدي بلا رقيب، وعلمت أنّ الطيّارة بكلّ

حمولتها لن تطير، وأنّها مجرّد اسم مستعار. أمّا أنا، فلا جنّة البيت، ولا طيّارته، ولا روابطي ستلجمني عن التحليق.

صدرت عنّي، رغم إرادتي، واحدة من تلك الآهات المكبوتة، واندفعتُ خارج السرير بجسدي الغضّ العاري، حافية القدمين، وخرجت من الغرفة راكضة نحو السطح.

توقّفت في مركزه. مددت ذراعيَّ فوق رأسي، وبيدي اليسرى قبضت على الزُهرة، وبسطت يدي اليمنى لتلامس أصابعي وجه القمر.

أبواب

الأحلام الأولى كانت بلا نوافذ أو أبواب. كنت فيها أسيرَ "لاحول ولا قوّة!" أمّا الحلم الرابع فكان له باب. لم أتساءل أو أناقش، بل ارتعشتُ حين تجسّد البُراق أمامي، ناصع البياض، وأنا على عتبة باب الحلم الرابع.

"و أنا أنا، لا شيء آخر
واحدٌ من أَهل هذا الليل. أَحلُمُ
بالصعود على حصاني فَوْقَ، فَوْقَ ...
لأَتبع اليُنْبُوعَ خلف التلِّ
فاصمُدْ يا حصاني. لم نَعُدْ في الريح مُخْتَلِفَيْنِ"

لم أكن بحاجة لبذل أيّ جهد: وجدت نفسي على صهوته أذوب أثيرًا رقيقًا كأنّه الحلم داخل الحلم. حين حطّ بي بعد طيرانه اللحظيّ، أدركت أنّي عبرت المجرّات بسرعة الضوء، وأنّني الآن على أرض لم أزرها من قبل، في مدينة طالما تُقت إلى الوصول إليها.

أوّل من قابلت في القدس كان حبيبًا من أحبّة القلب: محمود درويش! يمشي حاملًا جداريّته على كتفه. يمشي ويمشي

ويمشي، لكنّه لا يبرح مكانه أمامي. ألُفُّ ذراعي حول ذراعه دون أن أنبس ببنت شفة. يشدّ على ذراعي دون أن ينبس بحرف.

"سأصير يومًا ما أُريدُ
سأصيرُ يومًا شاعرًا،
والماءُ رَهْن بصيرتي. لُغتي مجازٌ
للمجاز، فلا أَقولُ ولا أشيرُ"

لكنّني بدأت أسمع تلاوتنا الكاملة للجداريّة، نشيد ينطلق منّا سويًّا: هو المبدع وأنا المتلقّي. كان بإمكاني أن أراني وأراه في الوقت عينه، وراعني أنّ دمعة سقطت من عينه وعيني في اللحظة نفسها حين وصلنا إلى:

"أما أَنا وقد امتلأتُ
بكُلِّ أسباب الرحيل
فلستُ لي.
أنا لَستُ لي
أنا لَستُ لي."

ثم انفجرنا معًا في بكاء جنونيّ.

لم نكن بحاجة لبذل أيّ جهد: وجدنا نفسينا على صهوة البُراق أثيرًا رقيقًا، لكنّ الجداريّة بقت صلبة كالصخر، وكادت تطيح بنا في الفضاء العريض، لولا أنْ غدرتها سرعة الضوء فهبطنا في دمشق. نمشي معًا كما مشينا في القدس: الذراع حول

الذراع، والجداريّة تثقل كتف محمود، وأنا مثقل بنشوة محمود وجداريّته.

البقعة التي هبطنا عليها في دمشق القديمة كانت وسطًا بين البيت الذي ولدت فيه وبيت نزار قبّاني، حبيبي الأكبر، وحبيب دمشق الأعظم. بدأت بسحب محمود باتجاه مكان ولادتي، لأنّي كنت متشوّقًا إلى التباهي أمامه وتسجيل نقطة لصالحي في سجل مقامه العالي، وأنا مجرّد فرد عاديّ كان من حظّي أنّه قبل تأبّط ذراعي، ولعلّه الآن يُخلِّد مسقط رأسي بقصيدة من قصائده العصماء. أمّا هو فبدأ يسحبني باتجاه منزل نزار. تعجّبت كيف عرف. وتعجّبت كيف عرفت أنا أنّه كان يعرف. وأكبر العجب أنّه لماذا لم نكن نتواصل بالكلام ونحن نقف جنبًا إلى جنب؟

وجاءت كلماته التي تردّدت حولنا دون أن نعلم من يلقيها:

"يا بنتُ: ما فَعَلَتْ بكِ الأشواقُ؟
إن الريح تصقُلُنا وتحملنا كرائحة الخريفِ،
نضجتِ يا امر أتي على عُكَّازَتَيَّ،
بوسعك الآن الذهاب على "طريق دمشق"
و اثقةً من الرؤيا. مَلاَكٌ حارسٌ
وحمامتان ترفرفان على بقيَّة عمرنا، والأرضُ عيدُ ...
الأرضُ عيدُ الخاسرين(ونحن منُهمْ)."

وفي غمرة حيرتنا، تلقَّفَنا البُراق ثانية، واجتاز بسرعة الضوء عتبات أحلام كثيرة، منها بأبواب ونوافذ، ومنها بلا منافذ. ما هي إلاّ لحيظات وأعرف أنّ البُراق منحاز إلى هواي. ها هو على عتبة باب الحلم اللامعدود يلفظنا أمام عتبة داري في سيدني. يفلت محمود من يدي ويهرع إلى الجلوس في سيّارتي. لا يعبأ بالبيت، ولا بحديقته، ولا بصيحات أهل البيت: "تفضّل ... تفضّل ... " أُسرع خلفه وأبدأ قيادة السيّارة باتجاه يعرف كلانا أين ينتهي، لكن دون أن نتشاور أو نتحاور.

الرغبة في الوصول إلى محطّتنا الجديدة، وأنا الآن في بلدي، وبكامل سيطرتي على القيادة، على عكس الوضع مع البُراق حين كنت مسلوب الإرادة، أبْعَدَتْ عنّي مجرّد التفكير في كيف لمحمود أن يعلم أنّ مارسيل خليفة في سيدني، وأنّني ومارسيل على معرفة ببعضنا. لكنّ حَمْلَهُ للجداريّة على ظهره بإصرار، رغم ثقلها الباهر، أوحى لي أنّه يريد توصيلها إلى مكان ما. ولكنّه ألم يكن يعلم أنّ الجداريّة بالحفظ والصون، وأنّها وصلت للعالم كلّه؟ أم هل يريد شيئًا آخر؟ هل يريد ما يريده مارسيل، وما سبق أن خبّرني عنه، ألا وهو أنّه يعمل منذ مدّة، ولمدة ست ساعات يوميًّا على "تلاوتها وموسقتها" بناء على رغبة سبق لمحمود التعبير عنها؟ هل جاء محمود يستعجل هذا العمل؟

حين لمحت مارسيل يتمشّى في نهاية الطريق الذي يقع فيه مقرّ إقامته، منتظرًا موعدي معه، كان محمود قد اختفى من سيّارتي. فتح مارسيل الباب وجلس حيث كان يجلس محمود،

وانطلقنا إلى مطعم على ضفّة الماء نتناول الغداء ونتجاذب أطراف الحديث.

لم أخبر مارسيل عن مغامرتي مع محمود، ولكن سواء أحسَسْنا أم لا، كان محمود حاضرًا ...

الفنّان مارسيل خليفة

ملامح من ثقافة الاستبداد

يحكم العالم العربيّ اليوم (ومنذ مئات السنين) طغاة مستبدّون فاسدون، ومعظمهم يبقى في الحكم إلى مماته، ومن ثمّ يؤول الحكم إلى وريث على الأغلب هو ابنه.

مهما تنوّعت مسمّيات أنظمة الدول العربيّة، لا يمكن إيجاد نظام واحد يمكن التأكّد من أنّه ديمقراطيّ ولو على قدر بسيط.

هذا الوضع هو من أهمّ العوامل التي أدّت إلى انهيار المنطقة العربيّة، والتي يمكن أن تكون بداية لاندثار العرب تمامًا كما اندثرت شعوب كثيرة عبر مسيرة التاريخ.

ليس غرضي هنا الدخول في مجال استبداد الحكم، سوى التنويه بالقول الشائع "كيف تكونوا يولّى عليكم". ومع أنّ فيه كثيرًا من الصحّة، خصوصًا ما قد يستنتجه القارئ من مقالي هذا، لكنّه، برأيي، قول منقوص، ويهدف إلى تبرير بقاء الطغاة، أو التغاضي عن فعل أيّ شيء ضدّهم، ربّما بسبب العجز عن ذلك. وهو استخفاف بذكاء الشعب. ومقابل ذلك لا يمكن التقليل من أهمّيّة تأثير الحاكم المستبدّ في عمليّة برمجة الأمّة لتقبل الخنوع والخضوع للأمر الواقع، غالبًا بالترهيب. أيْ أنّ

السؤال الذي يرد دائمًا هو: من الذي يخلق الاستبداد، الحاكم أم المحكوم؟

المشكلة، برأيي، أوسع من عمليّة العلاقة بين الحكومة والشعب. وتعود في جزء كبير منها إلى طبيعة البيئة الاجتماعيّة السائدة، والتي أعتبرُ أفرادها يشتركون في ثقافة استبداديّة من الولادة حتّى الممات. وهذا هو الجانب الذي أركّز عليه هنا. والاستبداد لا يعني القمع بالقوّة والعنف والقتل فقط، بل يصبح أكثر خطرًا وتغلغلًا حين يصبح ثقافةً تساهم في اغتيال الفكر الحرّ، وتحدّ من القدرة على التجديد والابتكار، وتمعن في تقييد الحريّة الشخصيّة. وكما يأتي الاستبداد نتيجة الخصومة، فإنّه يأتي نتيجة الحبّ أيضًا، وهنا قد يكون أشدّ بأسًا لأنّه يأتي مقنّعًا بسلاح مُضَلِّل. في كلّ الحالات يقود إلى النفاق، وتعطيل الفكر، وتمرير الأمور دون تمحيص.

ومع أنّي أركّز على العالم العربيّ، لا أعني أبدًا أنّ هذا العالم هو وحده الواقع في هذه المعضلة، لكنّ القضيّة قضيّة نسب متفاوتة، والأهمّ من ذلك هو أنّ أصولي تعود إليه.

وأنا على مقاعد المدرسة كنت أزور بيت جدّي دائمًا. وكانت عمّاتي وجدّتي يحطنني برعاية وحبّ كبيرين. وحين يحين موعد الطعام، يبدو أنّ الشعور السائد كان هو أنّ "الأكل على قدر المحبّة". بعد أنْ أكتفي من الطعام، كان لا بدّ لواحدة من النسوة أنْ تطلب منّي أكل المزيد. كان من شبه المستحيل أنْ أرفض، أو أقنعها بأنّي لا أستطيع. لم أكن على قدر كاف من "اللباقة"، وكانت تغلب على تصرّفاتي منذ ذلك الوقت الصراحة

الكاملة، والتمسّك بموقفي. كنت أرفض مزيدًا من الطعام. وكنت أرى الانزعاج في وجوه أحبّتي وتصرفاتهنّ التي كانت تختلط فيها الأصالة مع شعائر العادات والتقاليد. وكنت أعي ذلك وأكرهه، على الرغم من تقديري التامّ لجوانب المحبّة، لكنّ خلافي كان حول أسلوب التعبير عنها، وقناعتي أنّ المحبّة الصادقة لا تحتاج أصلًا لكلّ هذا التكلّف.

طبعًا كان رفض الضيافة أو المزيد منها الجانب الآخر لتلك الشعائر. وكان هذا يعتبر جزءًا من التهذيب. أيْ إذا عرض عليك أحدهم شيئًا، يكون من الأدب رفضه أوّلًا، حتّى لو كنت ترغب فيه. ثمّ يلحّ عليك المضيف، وتتمنّع، ويلحّ، وعندها تقبل. وهكذا تكون "مؤدّبًا" لأنّك تماهيت مع قوانين اللعبة. المشكلة أنّه إذا كان رفضك الأوّل يعود فعلًا لعدم رغبتك في الشيء، أو قدرتك على تناوله، وواصلت الرفض. عندها تصبح فظًّا غليظ القلب.

دخلنا مرّة بيت صديقة عزيزة فأرادت أن ترينا تغييرًا أحدثته في ديكور جانب من المنزل. كانت سعيدة فخورة بتغييرها الحديث الذي كلّفها آلاف الدولارات. وسألت عن رأينا. ولمّا ألحّت بنظراتها إليّ، قلت لها: "بالهناء والسعادة." لكنّها غضبت وعيّرتني أنّني لم أبدِ رأيًا واضحًا حول جمال هذا التغيير النفيس على حدّ تعبيرها. الواقع أنّ التغيير لم يعجبني مطلقًا، والنموذج القديم كان الأقرب إلى ذوقي. ماذا تفعل حين يفترض الآخر أنّه لا بدّ أن يعجبك عملهم طالما وجدوه جميلًا، وبذخوا عليه كثيرًا؟ تمالكت نفسي، وكتمت صراحتي، وقلت لها: "المهمّ أنّك راضية عنه."

يريد الناس أن نحبّ ما يحبّون. هذا مفهوم ومعقول. ولكن حين تعبّر عن وضعك المخالف، لا يُقدّرون. بل المضحك أنّهم غالبًا ما يبدؤون طرحم بقول شيء مثل: "تذوّق، أليست هذه الطبخة لذيذة؟ صنعتها بيديّ." فإذا كنت مثلي، ولم تستسغ تلك الطبخة، حتّى لو كانت من صنع أحبّ الناس إليك، فسيكون جوابك انعكاسًا للواقع، لا لرغبة الآخر. وهذا ما سيضعك في موقف حرج، يفضّل معظم الناس المسايرة عوضًا عن الوقوع فيه.

واجهتني خلال مسيرتي في مراجعة وتحرير النصوص مواقف محرجة مع كثير من الكتّاب والشعراء العرب، خصوصًا ذلك الذي يرسل أعماله ممهورة بعبارات مثل: "سيعجبك هذا النصّ كثيرًا." أو "هذا أفضل ما كتبت." والقائمة تطول، فيها ما أهو أشدّ غرابة من هذا.

للمجتمع والمسؤولين "توقّعات" تتحدّد بموجبها الأحكام على أفكار وتصرّفات الناس. إن توافقت هذه الأفكار والتصرّفات مع تلك التوقّعات رضي الجميع. وإن خالفت تكون عندها الطامّة الكبرى!

كنتُ من المتفوّقين في المدرسة، لكنّني لم أكن أحبّ طريقة التعليم السائدة، رغم أنّ مدرستي كانت واحدة من أهمّ مدارس البلد. ورغم شهرتي على أنّني من المهذّبين، لم أكن أحبّ الانصياع للأوامر. لكنّني لم أكن هجوميًّا أو مشاكسًا. أمّا حين أضطرّ للكلام، فلم أكن أهادن في حال وجدت أنّ المسألة لها وجهٌ آخر غير ذلك الذي يعرضه المدرّس علينا. كنت أشعر

بالملل الشديد أثناء الموادّ الفكريّة والتاريخيّة التي كانت تُملى علينا وكأنّها الحقّ المبين. كنت أحسّ بخلل وهشاشة بعض ما يرد فيها، أو بطريقة التعامل معها. وأذكر مرّة كيف ضاق ذرع أحد أهمّ المدرّسين بي حين عجز عن ردّ نقاشي بشيء مقنع، فطردني من الصفّ، وطلب إليّ أن أذهب مباشرة إلى المدير لأقول له إنّ الأستاذ فلان الفلاني أخرجني من الصف.

خرجت إلى باحّة المدرسة أتمشّى، ولم أذهب إلى غرفة المدير. لمحني الناظر واستغرب وجودي. لمّا أخبرته، لم يصدّق ما سمع، وقال بذعر: "رغيد النحّاس يُطرد من الصف؟ لا، لا، ما عهدناك كذلك." طبعًا، عهدني أنا وكلّ الطلاب "مهذّبين" نسمع الكلام وننضبط. وعَهْدُه بالمدرّس أنّه صاحب الحقّ بلا منازع. هذه الذهنيّة السائدة منعت النقاش الحرّ. حتّى لو لم تكن الضغوط مباشرة، إلّا أنّ المناخ العامّ كان يشكّل سجنًا فكريًّا كبيرًا لا يسهل على الفرد تخطّي حواجزه بوجود الأكثريّة المنصاعة، التي صارت تقبل ما يقدّم لها على أنّه الحقّ السليم، وأنّ معارضته "كفر" وجحود. المشكلة طبعًا هي مع نظام تعليميّ راكد لا يتطوّر.

حتّى الأقران في عمرهم المبكّر تشبّعوا بنماذج من هذه الثقافة لدرجة أنّ بعض التلاميذ، من عائلات أكثر تحرّرًا، كان يصاب بالحرج حين تأتي وليّة أمره، دون حجاب، لاصطحابه إلى البيت بعد الدوام. المدرسة كانت ذكوريّة بامتياز، سواء من حيث جنس الطلاب، أم ممّا تمثله من بيئة محافظة. ولكنّ شهرتها اجتذبت الدمشقيّين من مختلف الملل والعلل. انتقد

صديق لي مرّة والدة أحد أصدقائنا لأنّ، برأيه، "منديلها" شفّاف ولا يستر ملامح وجهها تمامًا. رددتُ عليه متهكّمًا، يومها، أنّه بعدم غضّ بصره ارتكب معصية أكبر.

تنحفر هذه الثقافة في نسيج البشر، فيكبرون ويتعلّمون، ويستخدمون ما استجدّ من وسائل التقانة الحديثة، ويسافرون ويخالطون، لكنّهم نادرًا ما يتغيّرون. بل تجدهم يُسَخّرون كلّ هذه الوسائل لتعزيز تلك "الثوابت" التي رضعوها مع حليب أمّهاتهم. أو على الأقلّ لا يستخدمونها في سبيل اكتشاف ما هو الأجدى في التعامل.

ويواجه الشخص المتصالح مع نفسه، الواثق ممّا يقوم به، لأنّه صريح يعتمد على الواقع، مطبّات كثيرة تصل أحيانًا إلى اتهامه بالغرور. هذه التهم تأتي عادة ممّن لا يستطيع مجاراة ذلك الشخص فكريًّا أو عمليًّا، فيتحوّل شعوره بالنقص إلى هجوم ومحاولةٍ لإيجاد "علل" في الآخر، عوضًا عن أن يعيد النظر في تحليله للأمور. لكنّ هذا ما يحتاج إلى نوع من الموضوعيّة، لا تتوفّر لديه.

وأعجب ما في الأمر تفشّي هذه الثقافة بين العرب الأستراليّين حتّى لو مضى على وجودهم في أستراليا عشرات السنين، بل حتّى بعض المولودين فيها.

وأعطي مثالًا عن صديقين لي، من أعزّ أصدقائي السوريّين، مضى على وجودهما هنا أكثر من ثلاثين-أربعين سنة. لقد خسرت صداقتهما نتيجة لمناقشات جرت بعد اندلاع الحرب السوريّة. (رغم كلّ هذا، أفتخر أنّ شعوري بحبّهما لم ينقص

على الإطلاق.) واحد منهما اعتبرني عدوًّا للنظام السوريّ، والآخر اعتبرني مؤيّدًا لذلك النظام. هذه الاعتبارات ناتجة، دون شكّ، عن عدم تكريس الموضوعيّة في الذهنيّة السائدة. إنّها الذهنيّة القبليّة، العشائريّة، الطائفيّة، المترسّبة حتّى العظم. إنّها ذهنيّة "يا معي، يا ضدّي". والسبب هو أنّ الموقف المستقلّ غير مقبول. أي أنّ الثقافة السائدة هي ثقافة خنوع، لا ثقافة استقلال فكريّ. والمؤسف أنّ هذه الثقافة لا ينجو منها أحيانًا حتّى الواصلين إلى أعلى المراكز الأكاديميّة.

القضيّة هنا ليست مجرّد اختلافات في الرأي. إنّها بسبب غياب تحديد واضح للقيم المشتركة التي يجب أن تسود المجتمع. مثلًا، حين نشترك جميعًا في أنّ الوطن للجميع، بغضّ النظر عن الانتماء العرقيّ أو الطائفيّ، لا يمكن بعدها أن نقول إنّنا نختلف في الرأي حول مادة الدستور التي تقول إنّ دين رئيس الدولة الإسلام. حين تكون العلمانيّة قيمتنا المشتركة، يمكن لأيّ فرد كفو أن يكون رئيسًا للبلاد مهما كان دينه. يمكن أن يترشّح من يترشح من كلّ الأديان، وإذا أُحسن استخدام الديمقراطيّة بانتخابات نزيهة، يمكن للشعب أن يقرّر مثلًا أنّه يريد رئيسًا مسلمًا، بانتخابه المسلم. وإن رأى الشعب في مرشّح مسيحيّ مثلًا أنّه الأجدر، فيمكن انتخابه، وهكذا. أي أنّ قيمتنا المشتركة هنا تدعونا لإلغاء هذه المادة، إذا كنّا موضوعيّين وغير متناقضين مع أنفسنا.

طبعًا، القضيّة ليست بهذه البساطة، ولا أدّعي أنّ هذه هي القيمة المشتركة التي يريدها الشعب السوريّ، خصوصًا أنّه،

برأيي، هو الأحقّ في تكريس ما يريد من القيم، وهو مقيم في بلاده ولم يتركها مثلي. أنا أبدي رأيي من ناحية فكريّة إنسانيّة، وأنا شخصيًّا لا أقبل بمبدأ أن يقوم ما يسمّى "المغتربون" بالاقتراع في انتخابات بلدهم الأصل، مثلًا.

مفجعٌ حقًّا أن نكون في القرن الواحد والعشرين، وفي أستراليا، بلد من أكثر بلاد العالم تقدّمًا ورخاءً، ولا زال البعض في ذهنيّة شبيهة بذهنيّة الرهبان الذين سلخوا جلد هيباشيا الإسكندرانيّة في ساحة المدينة، بعد أن نزعوا ثيابها تمامًا، ثم انهالوا عليها بالضرب حتّى الموت عام 415 ميلاديّة. ذنبها: كانت أعلم أهل زمانها، وتخالفهم في الموقف.

أيادٍ غير مجهولة

الأيادي التي تغتال الفكر، غارقة أصحابها في الظلام.

الأيادي التي تغتال من له رأي مخالف، غارقة أصحابها في الاستبداد.

الأيادي التي تغتال من يكشف العورات، غارقة أصحابها في العار.

الأيادي التي تغتال من يجتهد، غارقة أصحابها في تدمير التقدّم.

الأيادي التي تنصب نفسها بديلًا عن القانون، غارقة أصحابها في تقويض العدالة.

الأيادي التي تبني دولة ضمن دولة، غارقة أصحابها في تدمير الوطن.

الأيادي التي لا تتقن سوى استعمال السلاح، يؤكّد أصحابها أنّهم على طريق الانحلال التامّ.

الأيادي التي لا تقطعها التوبة والحكمة والاستقامة، ستقطعها السفالة إن عجزت عن قطعها العدالة.

الأيادي التي لا تتوضّأ بالرحمة، ستحلّ على أصحابها لعنة الله.

كيف تعيد مجد بلادك

هل تذكرون، أم هل حتّى سمعتم عن، عيدي أمين دادا؟ كان رئيس أوغندا من 1971 حتّى 1979. كان يُعرف أيضًا باسم "جزّار أوغندا"، تكريمًا لمقامه كواحد من أكثر الطغاة قساوة في التاريخ البشريّ.

أتذكّر فيلمًا عنه، قام فيه هو بتمثيل دوره. قد أسهى عن بعض التفاصيل في سردي هنا، ولكنّ الأفكار الأساس راسخة في ذهني تمامًا، وهي ما يهمّني.

أحد مشاهد الفيلم يدور حول بركة للسباحة. أمين، وكبار قادته العسكريّين يستعدّون للقفز في البركة والدخول في سباق. يذهب الجميع إلى نقطة الانطلاق، لكنّ أمين يتمشّى على طول البحيرة، يعطي إشارة بدء السباق، ويرمي بنفسه فيها على مسافة تتقدّم على جميع المتنافسين، وهكذا يصل قبلهم إلى خطّ نهاية السباق. يعلن، بنفسه، أنّه هو المنتصر. يقوم بذلك راقصًا، ضاحكًا، منتعشًا، دون خجل أو وجل.

بعد خمس وأربعين سنة من تلك الحادثة، رجل آخر، وهو رئيس الولايات المتّحدة الأميركيّة، الذي من المفترض أنّه "زعيم

العالم الحرّ الديمقراطيّ"، والذي تعهّد بجعل أميركا "عظيمة من جديد"، يدخل في سباق مع رجل آخر.

أعلن عن نفسه أنّه الرابح قبل أن يبدأ السباق. ويواصل رقصه، وتهديداته، واتهاماته، وإساءاته، وشكاويه، وبكلّ الضحك والانشراح يهزأ بذكاء مواطنيه والعالم أجمع.

لا أذكر أنّ عيدي أمين دادا قال إنّه يريد *جعل* أوغندا عظيمة من جديد!

تشرين الأوّل، 2020

السيّدة رئيسة الوزراء

لا، لن يخدع تكليفكِ هذا الحبيب بورقيبة، أوّل رئيس لبلادك تونس الخضراء (1957-1987)، وأجرأ من اتخذ القرارات الإصلاحيّة الاجتماعيّة في مجتمع هو جزء من مجتمع عربيّ أكبر متخلّف، وسيبقى متخلّفًا إلى يومنا هذا.

لدى مجتمعات مشابهة، تولّت المرأة هكذا منصب ولكن كان شبيهًا بالتوريث. مثلًا جاءت بنازير بوتو كتحصيل لإرث والدها العظيم. يعني بغضّ النظر عن كفاءة وإمكانيّات بنازير المتميّزة بلا شكّ، لولا سابقة والدها، والظروف المحيطة بالفراغ الذي تركه، ربّما ما كانت لتتبوّأ هذا المنصب.

اختيار النساء في هذه المجتمعات لا يتمّ احترامًا ولا اعترافًا بفضل النساء. وإنّما يأتي نتيجة لطغيان المجتمع الاستبداديّ الذكوريّ الذي يستغل المرأة على وجهها وقفاها وجانبيها، من رأسها إلى أخمص قدميها. يريدها بالمجّان: أمًّا، وأختًا، وزوجة، وضرّة، وعشيقة، وآلة إنتاج للأولاد، وخادمة، ومزارعة، وعاملة، وكيفما استطاع إلى فركها وعركها وتقطيعها سبيلًا. كلّه مباح إذا أرضت رغباته الجنسيّة، ومصالحه الماديّة، وبقيت طوع إشارته يحرّكها كيف يشاء.

أمّا أسوأ أنواع الاستغلال فهو المبطّن بالادعاء أنّ حرّية المرأة مصانة، وأنّ مساواتها بالرجل أمر طبيعيّ. لا! حين تأتي

بنازير كما أتت، فهذا ليس اعترافًا ببنازير، بل هو حلّ سياسيّ لأزمة بين ذكور متصارعة على الحكم. وحين تعيّن إحداهنّ رئيسة للوزراء، أو وزيرة، بسبب كفاءتها العلميّة فهذا استغلال مزدوج. من ناحية يستفيد من عيّنها من ذكائها وخبرتها، وفي الوقت عينه يدّعي أنّه نصير للمرأة. أما هذه المرأة في هذا المنصب لن يكون لها أيّ قرار سياسيّ تستطيع فيه تغيير الأمور. ستكون عبدة للذكور الذين يوجّهون دفّة الحكم، ويجيدون استغلال القطيع.

وعلى كلّ حال، التحيّة والإجلال للسيّدة نجلاء بودن، متمنيًّا أن تثبت أنّني على غلط في كلّ ما ذكرت، وأن تقود الطريق إلى وزارة فاعلة تتخطّى مجرّد تصريف الأعمال إلى التأثير على القرارات السياسيّة كما يجب أن يؤثّر فيها القائد، سواء كان رجلًا أم امرأة.

وأتمنّى لها حسن الخاتمة كما كانت خاتمة أنجيلا ميركل، لا كما انتهت إليه بنازير بوتو التي استغلّها الجانب الأشدّ قتامة للمجتمع الذكوريّ، فاغتالتها جماعة تتحدّث باسم الإسلام.

2021/09/30

من الديكتاتور إلى "القائد العالميّ للمعرفة": أمّة تحفر قبرها بيدها

حين زار بنيامين نتنياهو أستراليا عام 2017، استقبلته الوزيرة الأولى في ولايتنا، غلاديس بيرجيكليان، في مكتبها في سيدني. ساءني هذا لأنّ نتنياهو مجرم حرب بنظري، كما أنّ رسالة وقّعها حوالي ستون شخصيّة أستراليّة هامّة اعترضت على هذه الزيارة. وساءني أكثر أنّني، وعلى الرغم من أنّني لست على سياسة حزبها، أكنّ الحبّ والتقدير لهذه القياديّة الكفوة. طبعًا قامت بواجبها العاديّ بحكم وظيفتها، وعلمْتُ أنّ تركيزها كان على النواحي التجاريّة.

رغم تفهّمي ذلك، نشرت يومها على صفحتي على فيسبوك ما يشير إلى استيائي منها لاستقباله، واصفًا نتنياهو على أنّه مجرم حرب. أيّدت كلامي الصديقة الفلسطينيّة-الأستراليّة "ريدا" بتعليق على المنشور. ردّ علينا أحد أصدقائي اليهود (ولا أريد القول "الصهاينة"، كي لا أظلم هذا الرجل) على فيسبوك ساخرًا بقوله إنّني و"ريدا" على الجانب الغلط من التاريخ.

حزّ ذلك في نفسي، وفكّرت كيف تنقلب المفاهيم لصالح من له القوّة، لا من يملك الحقّ. فالذي يقصده هذا الصديق عمليًّا هو أنّ كلّ شيء يتجه نحو انتصار إسرائيل النهائيّ، وتصفية القضيّة الفلسطينيّة بشكل حاسم.

كنت إلى وقت قريب لا زلت أتمسّك بخيوط الأمل أنّ شيئًا ما قد يحصل ويصحّح المسار. وكان قلبي ينتعش كلّما ظهرت على الساحة شخصيّة فلسطينيّة واعدة تستطيع المواجهة الفكريّة لهذا الغرب المؤيّد لإسرائيل عمومًا. أنا دائمًا بانتظار إدوارد سعيد جديد. ذلك العقل الذي تحدّى المفاهيم الغربيّة المغلوطة حول المشرق. ذلك الرمز الفلسطينيّ العالميّ الفريد. ولكن كلّما مرّ الوقت، كنت أشهد التداعي الفكريّ في منهج الثقافة التي تعمل وفقه الجماهير المعنيّة بالدفاع عن نفسها وتحرير بلادها، وعلى الأخصّ ما يتعلق بالقضيّة الفلسطينيّة.

فرحت منذ سنين طويلة لظهور شخصيّة اقتصاديّة فلسطينيّة هامّة تشقّ طريقها عالميًّا، لما للمال والاقتصاد من دور كبير في كلّ المجالات التنمويّة. فعلى الرغم من أهمّيّة الإعداد العسكريّ، لن تكون القوّة فعّالة ما لم يكن من ورائها ثقافة ذكيّة تدرك أين تقع مصالحها، وكيف، ومتى تستعمل هذه القوّة.

كلّنا يعلم أهمّيّة السيطرة الصهيونيّة على المال والإعلام، وعلى أهمّ مؤثرات التواصل الاجتماعيّ والترفيهيّ، وهوليوود مثال معروف في هذا المجال، ما يدلّ على أنّ وعي الثقافة اليهوديّة عريق في أهمّيّة التوصيل لترويج المصالح.

حين زار الزعيم السوريّ أمين الحافظ "صديقه" إلياهو كوهين في سجنه بعد القبض عليه لقيامه بالتجسّس على سوريا، وتزويد إسرائيل بمعلوماتٍ ستكون عاملًا أساسًا في خسارة حرب 1967، عاتب أمين إلياهو كيف يفعل ذلك وهما صديقان (كاد كوهين المتخفّي باسم مستعار أن يصير وزيرًا، كما شاعت الرواية، وطبعًا كان الحافظ مخدوعًا به). أجاب كوهين: "أنا يهوديّ".

أورد هذا لأقول إنّه من الطبيعيّ أن يعمل العدوّ ضد خصمه بكافة الوسائل المتاحة. ما هو غير طبيعيّ (أو يجب أن يكون غير طبيعيّ) هو أن يعمل المجتمع الواحد ضد نفسه.

مثلًا الحكومات الاستبداديّة (حتّى لو كانت وطنيّة شريفة)، التي كان أمين الحافظ يرأس إحداها في سوريا، لا تترك المجال لبلورة ثقافة واعية لأنّها، كما أثبتت الأيّام، منذ تولّي حزب البعث للسلطة، تترك المجتمع في أحد خيارين: إمّا الولاء للسلطة، وإمّا الانضواء تحت عباءة التطرّف الأعمى. وفي كلا الحالين تكون الأكثريّة مُسيّرة بثقافة متداعية، لأنّ طرفي المعادلة يحاربان الفكر المستنير الذي يمكن أن يولّد مجتمعًا حواريًّا سلميًّا.

فاجأني هذا الرجل، الذي لفت نظري، وكسب ودّي واحترامي، مع بداية صعوده وتألّقه منذ عشرات السنين، وبعد انقطاعي فترة طويلة عن سماع أخباره، بأنّه بدا لي الآن شخصًا آخر تمامًا.

من أخطر أعداء الفكر المستنير، ليس فقط العدو الخارجي، ولا "القائد الأوحد إلى الأبد"، ولكن من يدّعي أنّه قائد عالميّ لهذا الفكر، وهو لقب "اشتراه" بنفوذه الماديّ، واستزلامه لطغمة من الملوك والحكّام الذين يعملون على تصفية قضيّة وطنه، بل إلغاء وطنه بشكل كامل، ويعتبرهم كما قال تكرارًا إنّه تلميذ دائم لهم. وبما أنّه ليس عضوًا في أيّ حكومة، ولا ينتمي لأيّ تنظيم متطرّف، بل يعمل لحساب نفسه، وهمّه زيادة ثروته ونفوذه، يُفتن به الشباب لأنّه لاجئ فلسطينيّ اضطر لترك بلاده، ثمّ استطاع بناء نفسه، ويروّج على أنّه متواضع يتعلّم الحكمة من الآخرين. هكذا يصبح مثلًا أعلى لجيل من الشباب يتوق إلى تغيير مسار الانكسار الواقع فيه.

يمكن لهذا الشخص، بذكائه وعلاقاته ونجاحه، أن يكون ذا فائدة كبرى لقومه لو كان همّه الحقيقيّ قضيّتهم. أمّا حين يكون همّه الحقيقيّ التزلّف لكلّ أصحاب الأمر والنهي من أيّ مكان أتوا، وعلى أيّ مذهب كانوا، بغية تعزيز مكانته ومصالحه الخاصّة، فيصبح أكثر العوامل خطرًا لأنّه يضخّ السمّ في شرايين الشباب على غفلة منهم، وهم الذين ينظرون إليه كقدوة.

يماثله في السوء، وأكثر، نخبة من "المثقّفين" والمسؤولين الذين يثنون على حديثه ومقابلاته الصحفيّة. إمّا أنّهم أيضًا من الجاهلين المغرّر بهم، أو أنّهم من الطامحين إلى مراكز ومناصب، أو إلى مجرّد سبق صحفيّ مع هذا الرجل. وطبعًا هناك من يتفّق معه.

في مقابلة جرت مع هذا "العبقريّ"، ونشرت على فيسبوك يوم 2021/10/02، راعني أن أرى أنّ بعض الاستحسانات جاءت من صحافيّين وفلسطينيّين يفترض أنّهم من الواعين، والمثقّفين، والقياديّين. لا أدري كيف أعجبهم كلام شخص فلسطينيّ يبجّل الملوك التي باعت القضيّة الفلسطينيّة، ويفتخر بجنسيّة اكتسبها دون أن يكون هناك ما يماثل ذلك بالنسبة لأصوله الفلسطينيّة. وقد يكون من استحسن المنشور لم يشاهد المقابلة، ولكنّه يجامل الجهة التي نشرته، وهذا أيضًا أمر خطير جدًّا برأيي.

يحزّ في نفسي أنّ من "يقول" لي الآن إنّني على الجانب الغلط من التاريخ هو هذه الشخصيّة "العمليّة"، لأنّه بنجاحه المادّيّ، وكيفيّة تحقيقه، لا شكّ يعتبر نفسه على الجانب الصحيح من التاريخ، وسيهرع إلى التطبيع مع إسرائيل، مثله مثل "أساتذته" الذين يعتبر نفسه، كما ذكر، التلميذ الدائم لهم.

الفكر والإرادة مستهدفان

بدأت تتجلّى موجات التطبيع مع الكيان الصهيونيّ العنصريّ الذي يمارس الإرهاب وجرائم الحرب منذ نشأته وقبل الإعلان عن تأسيس دولة إسرائيل. وعند تأسيسها أضاف على لائحة ممارساته إرهاب الدولة، وترسيخها كدولة يهوديّة عنصريّة.

لم تكن مفاجأة أن يبدأ المبادرة حكومات كانت لها علاقات مع الكيان الصهيونيّ منذ تأسيس دولة إسرائيل، أو على الأقلّ من مدّة طويلة. الذي تغيّر في الأمر أنّ هذه الحكومات لم تعد تأبه، علانية، بجماهيرها، وجماهير ملايين المسلمين والمسيحيّين في أنحاء العالم، وكثير من المؤيّدين للعدالة الإنسانيّة.

وعلى الصعيد الفرديّ، من الطبيعيّ أن يكون لدى الناس اتجاهات مختلفة. لكنّ ما فاجأني كثيرًا هو بعض الأصدقاء الذين سبق أن تبنّوا القضيّة الفلسطينيّة، رغم كونهم من غير الفلسطينيّين، باعتبار أنّ اتجاهاتهم "يساريّة"، أو أنّهم قوميّون، يأخذون الآن خطًّا مختلفًا. قال لي واحدهم: "أعتقد الآن أنّ المسألة الفلسطينيّة هي قضيّة الفلسطينيّين وحدهم."

أنا أرى غير ذلك. فلسطين، برأيي، هي جزء من الوطن السوريّ، وطني الأصل. أي أنّ سوريا، ولبنان، والأردن معنيّون

مباشرة بتحرير جزء سليب من وطنهم الأكبر، اقتلع بغير حقّ. وفلسطين موطنٌ لأهمّ مقدّسات ديانتين عالميّتين، المسيحيّة والإسلام، وأتباعهما الذين يزيدون عن أربعة بلايين نسمة. معظم هؤلاء يرون في مدينة القدس (القبلة الأولى)، وكنيسة القيامة، والمسجد الأقصى صروحًا مغروسة في عمق مشاعرهم ورحلتهم الإيمانيّة. وعلى ذلك كلّهم معنيّون بالحفاظ على هذه المقدّسات، ومنعها من الوقوع تحت سيطرة فئة صهيونيّة عنصريّة تدّعي أنّ فلسطين لها وحدها.

لذلك ليس غريبًا أن تندفع إيران المسلمة بهذا الزخم في المساعدة على تحرير فلسطين. الغريب أن تتخلّى الدولة التي نصبت نفسها حاميّة للحرمين الشريفين، وتتحدّث بلغة القرآن الذي "أنزلناه عربيًّا"، عن هذه المهمّة، بل تقوم مع الدول التي تدور في فلكها بدور كبير في تعزيز مكانة إسرائيل، وترسيخ وجودها الاقتصاديّ الدائم في كلّ مناطقهم. وعوضًا عن التفاهم والتعاون مع إيران في سبيل إعلاء شأن المنطقة، وتلافي الصدام، وتطهير الإسلام من شوائبه، تقوم بالتآمر وضرب إيران بشتّى الوسائل المتاحة، رغم كلّ ما ثبت مؤخّرًا عن لؤم وغدر "الحليف" الأميركيّ وما شاكله. هذا ليس حليفًا، بل هو سيّد مُستَغِلّ.

وليس غريبًا أن يكون هناك عدد كبير من اليهود المستنيرين العادلين، داخل إسرائيل وخارجها، ينادي بالعدل والإنصاف للشعب الفلسطينيّ، يضاف إليهم عدد كبير من العلمانيّين،

وغير المتديّنين، والملحدين، والمشكّكين (عددهم الإجماليّ يزيد عن البليون في هذا العالم).

تشكّل اليهوديّة 0.18% من سكّان العالم، بينما تشكّل المسيحيّة 31%، والإسلام 25%، والعلمانيّون والملحدون 16%. فإذا سلّمنا أنّ للجميع الحقّ في ما له من مقدّسات، فعلى الأقل يجب أن نراعي هذه النسب. لكنّ حجّة "أرض الميعاد" هي ما يتّكل عليه الكيان الصهيونيّ، مع أنّ من اليهود من يؤمن بعدم وجوب إقامة الدولة اليهوديّة.

صحيح، مضى على هذه الأطروحات أكثر من سبعين سنة، ووصلت المنطقة الآن إلى ما تريده إسرائيل من الدمار الشامل، بما في ذلك الدمار الاقتصاديّ الذي وصلت إليه سوريا ولبنان. وفي الوقت الذي ركّز الجميع فيه على النواحي الفيزيائيّة لهذا الدمار، كانت الصهيونيّة منذ البداية تعمل على تدمير النواحي الفكريّة للمنطقة، ونجحت في خلق بديل للثقافة العامّة، التي كانت في الستينيّات من القرن الماضي تبشّر بمستقبل مستنير. ميّزت الصهيونيّة كلّ الثغرات الفكريّة والأخلاقيّة في الثقافة الجمعيّة لمجتمعات محيطها، فاستغلّتها بجدارة فائقة، وبسهولة عجيبة. وهكذا نشأت الردّة نحو عصور الظلام، وانتشرت عصابات الإرهاب والتكفير، وكانت الحروب الداخليّة أشد ضراوة وتدميرًا.

عشت جزءًا هامًّا من حياتي في لبنان الذي غادرته عام 1976، أي في فترة بدء الحرب الأهليّة. ولقد نجوت في مرّتين من موت محقّق دون أن يكون لي في تلك الحرب لا ناقة ولا جمل.

وقبل ذلك كنت على علم من نفور بعض اللبنانيّين من تصرّفات بعض أفراد المقاومة الفلسطينيّة الذين تجاوزوا حدودهم بطريقة أو أخرى. ولا شكّ أنّ "رمي" المقاومة الفلسطينيّة على الارض اللبنانيّة وحدها دون أن يكون ما يماثلها في سوريا والأردن تسبّب في كثير من الإشكالات والمشاكل. وكما أُخرجت المقاومة الفلسطينيّة من الأردن أُخرجت أيضًا من لبنان.

أذكر هذه الحقائق المعروفة للتأكيد على أنّه ما كان يمكن لأيّ دولة محيطة بفلسطين أن تتفرّد بالعمليّات وحدها. أمّا العمل الجماعيّ المطلوب فلم يكن ممكنًا أيضًا لأنّ لكلّ دولة مصالحها وعلاقاتها، ولعدم توفّر الإرادة، ولوجود بؤر تابعة للاستخبارات الأميركيّة. ويجب هنا أن لا ننسى أنّ هذه الدول ما هي إلّا كيانات مصطنعة فرضتها القوى الاستعماريّة بعد انهيار الإمبراطوريّة العثمانيّة، وهذا من أهمّ أسباب تبديد فكرة الوحدة السوريّة التي كان يمكن أن تكون السدّ المنيع في وجه قيام دولة إسرائيل.

ومع ذلك أظهر الشعب الفلسطينيّ والمقاومة جدارة كبيرة في الاستمرار أمام كلّ الضغوط الآتية من كلّ حدب وصوب، ومن كلّ الجهات، حتّى الجهات الصديقة، التي استغلت القضيّة الفلسطينيّة لمصالحها السياسيّة، خصوصًا اتخاذ مقاومة إسرائيل كحجّة للحكّام المستبدّين في البقاء على كراسيهم.

الصهيونيّة أدركت منذ البداية، وبكلّ واقعيّة، أنّ مسيرتها طويلة الأمد، وأنّ الظفر النهائي لن يأتي سوى بتدمير الفكر. ولذلك حين حجّمت وعزلت بقايا الفلسطينيّين في "السجن"

الكبير الذي تحرسه، وبعد اطمئنانها أنّ معظم المعنيّين بالقضيّة الفلسطينيّة قد تخلّوا عنها، بقي أمامها تهديد المقاومة في غزّة، والمقاومة اللبنانيّة وحلفائها، وهذا ما تحاول القضاء عليه بشتّى الوسائل. وحتّى تنجح، لا بدّ من إنهاء أيّ دعم لهذه المقاومة، ولا بدّ من جعل الجميع يتخلّى عنها. وهنا تأتي أهمّيّة الناحية الفكريّة، لأنّ المقاومة إن فقدت وجودها في أذهان الناس، تبقى مسألة انتهائها مسألة وقت. أي حين يذهب الفكر، تذوب الإرادة.

وليس بعيدًا عن أذهاننا ما قامت به الصهيونيّة من هجوم على جيرمي كوربين زعيم حزب العمّال البريطاني، وها هي تواصل هجومها على الفكر بالاستفراد بأساتذة الجامعات، ومنهم البروفسور دافيد ميلر الذي طردته جامعة بريستول بحجّة العداء للساميّة، رغم أنّ التحقيق بيّن عكس ذلك. وتتميّز الصحيفة الأسبوعيّة البريطانيّة "ذي جويش كرونيكل" بهذه الحملات العنيفة ضدّ كلّ من ينتقد إسرائيل. أي أنّها مُسخّرة لمحاربة الفكر.

ولا يمكن أن ننسى أنّ من أهمّ ضربات الفكر كان القضاء على أنطون سعادة عام 1949، ذلك المتنوّر الذي أدرك أهمّيّة الأمّة السوريّة وخطر الصهيونيّة عليها، وكان يعمل لتكريس كلّ الوسائل لمنع قيام إسرائيل، بما في ذلك مقدرته على لفّ الناس حوله وإنارة فكرهم. صادَق وقتها رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة ورئيس وزرائها على حكم الإعدام بعد محاكمة (مهزلة) مرتجلة.

العمليّة كلّها كانت "اغتيالًا" في وضح النهار، قامت به السلطات اللبنانيّة فيما يبدو على أنّه تنفيذ لأوامر خارجيّة.

ولهذا أرى في وصول بعض أصدقائي إلى استنتاجاتهم أنّ المسألة الفلسطينيّة تخصّ الفلسطينيّين وحدهم هو عنصر من عناصر نجاح الحركة الصهيونيّة في خلق الأجواء الملائمة لتدمير الثقافة الجمعيّة للمنطقة، وجعلها ثقافة مسخّرة لتأكيد الهزيمة الذاتيّة. أي يقنع الفرد نفسه أنّها ليست قضيّته حتى يسهل عليه استسلامه. حينها تخرج هذه القضيّة من تفكيره، وتزول الحاجة لتوفّر الإرادة لمتابعة المسار. سَلْبُ الأرض يمكن عكسه بفعل عسكريّ. أمّا سلب الإرادة فعكسه شبه مستحيل. والقضاء على الفكر لا يمكن عكسه عمليًّا، لأنّ البناء الفكريّ الجمعيّ هو مسألة مئات، بل آلاف السنين.

القضيّة الفلسطينيّة هي قضيّة الإنسانيّة كلّها. الأمل الوحيد الباقي هو أن لا يموت الفكر الذي يؤمن بذلك.

2021/10/18

ما انكسرنا، ولكن ما اكتملنا!

أعجبتني الكلمات التي توجّهت بها الشابّة الشاعرة أماندا غورمان إلى موطنها، الولايات المتّحدة الأميركيّة، خلال حفل تنصيب الرئيس جو بايدن، يوم 2021/01/20.

ولن أتناول الناحية الفنّيّة للقصيدة هنا، لكنّني سأركّز على بعض الأفكار التي عرضتها الشاعرة. وجدت أنّ ابنة الثانية والعشرين هذه تتمتّع ببصيرة ثاقبة، وتنظر إلى الأمور بذهنٍ وقلبٍ وعينٍ الناضج من البشر.

لا شكّ أنّ إلقاءها الجميل أضفى على مسامعي جوًّا مريحًا، وشدّني إلى الإصغاء. لكنّ شيئًا مميّزًا تحرّك في ذهني حين وصلت إلى عبارة تتحدّث فيها عن حال بلادها فقالت: "دولة لم تنكسر، لكنّها ببساطة لم تكتمل."

هذه الفتاة السوداء، سليلة قوم تعرّضوا إلى كافة أنواع الذلّ والتمييز، لم تتّخذ الموقف الانتقاميّ المألوف الذي يتّخذه بعض من ينتمي إلى الفئات المضطهدة، والذي لا يميّز بين بلده وبين الفئات المسيطرة، فيعتبر أنّ نظام الحكم وكلّ من انتمى إلى الأكثريّة المهيمنة عدوًّا يستحقّ السحق. أي أنّ الوطن كلّه عدوّ. عوضًا عن ذلك، كان موقفها إيجابيًّا واقعيًّا ينطلق من

مبدأ أنّ البلد بلدها مثلما هو بلد للآخرين من المواطنين على اختلاف مشاربهم وأصولهم، ورغم الفظائع التي ارتكبت بحقّ أسلافها.

فهي لا تقول إنّ الدولة "انكسرت" لمجرّد وجود فئة تعيث في الأرض فسادًا، حتّى لو كان تعدادها يقارب ربع سكان البلاد، وحتّى لو قامت فئة تمثّلهم بأعمال شغب لتعطيل عمليّة تنصيب الرئيس الجديد.

العبارة البديلة التي استخدمتها هي أنّ الدولة "لم تكتمل". هذه العبارة تكريس لواقع أنّ بناء الدول يستغرق مئات السنين، والأهمّ من ذلك فهمها لهذا الواقع بإيجابيّة. عدم الاكتمال يعني الحاجة للسعيّ الدائم في سبيل التطوير والإصلاح. الكمال لن يتم، ولكنّ اكتمال الدولة على أسس عادلة ممكن. هذا خصوصًا أنّ الديمقراطيّة، مهما كانت شوائبها، مترسّخة تمامًا، ولولا ذلك ما أمكن، سلميًّا، إزالة رئيس فاسد له قاعدة شعبيّة لا يستهان بها. وأرجو أن يتذكّر هذا كلّ من يعيب على الغرب ديمقراطيّته لمجرّد أنّ الغرب لا يأبه كثيرًا بديمقراطيّة الغير رغم الادّعاء. وهذا بحث آخر.

إيمان أماندا السوداء بهذه الديمقراطيّة واضح من تلميحها إلى طموحها في الوصول إلى منصب رئاسة الجمهوريّة، أو على الأقل الحلم بذلك. تقول: "**نحن ورثة زمن ودولة / فيها بنت نحيلة سوداء / سليلة العبيد / ربّتها أمّ عزباء / يمكنها أن تحلم برئاسة الجمهوريّة / لكنّها وجدت نفسها تتلو الشعر للرئيس ...**"

نعم، من أهمّ حسنات الديمقراطيّة أنّ كلّ مواطن يمكنه أن يحلم بخدمة وطنه بهذه الطريقة. حلم بعيد المنال على الصعيد الفرديّ لعوامل كثيرة، أهمّها أنّه لا يمكن لكثير من الأشخاص الوصول إلى هذا المنصب، مهما كانت مؤهلاتهم، لأسباب عمليّة، لكنّ المهم أنّ دابر الفرصة لم يُقطع، وإلاّ يكون تقويضًا للديمقراطيّة كما هو الحال في كثير من بلدان العالم، خصوصًا البلدان العربيّة.

وتضيف في قصيدتها: " **... نحن أبعد ما نكون عن الصقل / و أبعد ما نكون عن نقائنا الأصليّ / لكنّ هذا لا يعني أنّنا نناضل لتشكيل اتحاد لا شيّة فيه / بل نناضل لصياغة اتّحاد هادف / لتأليف دولة تتبنّى كلّ ثقافاتِ، وألوان، وصفات، وأحوال الإنسان / ولهذا نرقى بنظراتنا الثاقبة لا إلى ما يقف عائقًا بيننا / بل إلى ما يقف أمامنا / نزيل الانقسام بيننا لإنّنا نعلم، أنّنا إن أردنا الأولويّة لمستقبلنا، / علينا أوّلًا أن نضع خلافاتنا جانبًا / نلقي بسلاحنا / لنمدّ أذرعتنا / الواحد ليصل الآخر ...** "

إذن، النظرة هنا مستقبليّة تتجاوز العوائق وتمتدّ إلى ما يجمع الجميع، ويضمن استمرار وطن سليم عادل. وتعود فتؤكّد في قصيدتها: " **... حتّى حين كنّا نحزن، كنّا نكبر / حتّى حين كنّا نتألّم، كنّا نأمل / حتّى حين كنّا نتعب، كنّا نحاول / و أنّنا إلى الأبد مرتبطون معًا، منتصرون / ليس لأنّنا لن نعرف الهزيمة ثانية / بل لأنّنا لن نزرع الانقسام من جديد ...** "

لنلاحظ هنا الواقعيّة الممزوجة بالإيجابيّة في هذه الكلمات. فالحزن لم يمنعنا من أن نكبر، والألم لم يمنعنا من الأمل، والتعب لم يوقفنا عن المحاولة. في الارتباط انتصار، وحين الهزيمة لن يكون انقسام! وكيف نحقّق هذا عمليًّا: "**لن يأتي النصر من سيفنا / بل من كلّ الجسور التي بنينا ...** "

وتدعونا للتفريق بين مفاهيمنا عن الأمور وحقيقة هذه الأمور: " **...الهدوء لا يعني السلام دومًا / فهم المبادئ والعقائد للعدالة / لا يعني دائمًا عدالة ...** "

وحول حادثة اقتحام المباني الحكوميّة تقول: "**لم نشعر أنّنا مستعدّون لهذه الساعة المريعة / لكنّنا منها استلهمنا القوّة لكتابة فصل جديد / نقدّم فيه الأمل والسرور لنا ... وحين مرّة تساءلنا / كيف يمكننا قهر الكارثة / سؤالنا يجب أن يكون الآن / كيف يمكن للكارثة أن تقهرنا**"

وتؤكّد في سياق القصيدة كيف أنّ تخبّط هذا الجيل سيكون حملًا ثقيلًا على الأجيال القادمة. وتعبّر عن تصميمها على تغيير هذا العالم المجروح إلى عالم ممدوح.

وتختتم بقولها: "**سيزهر الفجر الجديد حين نحرّره / لأنّ النور أبدًا ساطع / إذا تجرّأنا كفاية لنراه / إذا تجرّأنا كفاية لنكونه.**"

وعلى هذا أرى أنّ من أجمل أقوالها في هذه القصيدة: "**يمكن أن تُعاق الديمقراطيّة، لكنّها لن تهزم أبدًا ...** "

نيسان 1975

جلس الطالب مع أستاذه البريطانيّ في كافتيريا الجامعة، كعادتهما بين الحين والآخر، يتبادلان الآراء حول البحث العلميّ الذي يقوم به الطالب بمنحة من المجلس الوطنيّ اللبنانيّ. لكنّ الحديث اليوم لم يكن حول فيزيولوجيا الأسماك، ولا وحيدات الخليّة البحريّة التي يمكن تنميتها لتغذية هذه الأسماك.

منذ يوم الثالث عشر من نيسان عام 1975، والذي صادف قبل أسابيع من جلسة الأستاذ وتلميذه، كان حديث الناس الذي لا يتوقّف هو عن الحرب الأهليّة التي اندلعت في لبنان. وهكذا كان الحديث بينهما. كلاهما كان يعشق بيروت، كلّ على طريقته. والتلميذ يعتبر نفسه لبنانيّ لأنّه ولد لأمّ لبنانيّة. لا تهمّه "ورقة" الجنسيّة. يكفيه أنّه يحمل على ورقة فكره أختامَ فيروز، وسعيد عقل، ومنير البعلبكي، وسهيل إدريس، وغسّان التويني، وأحمد عارف الزين، وأنطون سعادة، وكمال جنبلاط، وغيرهم ممن كانت لهم بيروت مرتعًا للحرّية فأبدعوا فيها مثل نزار قبّاني وغادة السمّان، وهواء الجبل، والسهل، والبحر، ورائحة الأرز والصنوبر. كان الأستاذ يستمتع بأحاديث التلميذ عن تاريخ لبنان، وشخصيّاته، ويترافقان في جولات سياحيّة في ربوعه.

أبدى البريطانيّ قلقًا كبيرًا على الأوضاع السائدة، وسأل تلميذه متى يعتقد أنّ الحرب ستتوقّف. أجاب التلميذ بثقة: "مع حلول الأعياد، في نهاية العام، سيكون كلّ شيء على ما يرام." وأضاف: "ألم تر أنّ هذا بلد التعايش والمحبّة؟ خذ الجامعة مثلًا. نحن هنا من كلّ حدب وصوب، ومن كلّ دين وملّة. نتشارك جميعًا في كلّ الأنشطة وكافّة المجالات. هذه دلال، مثلًا، صديقتي منذ سنة، وكانت تعتقد أنّني مسيحيّ، وأنا أعتقدت أنّها مسلمة. اكتشفنا حقيقة الأمر صدفة لأنّه لم يكن همّنا."

قهقه البريطانيّ وقال: "هذا ما أتمنّاه يا عزيزي، ولكن لا أشاركك تفاؤلك. خذ مثلًا الصراع الكاثوليكي البروتستانتي، في أيرلندا الشماليّة، المستمرّ منذ سنين طويلة، رغم نفوذ بريطانيا القويّ وسيطرتها على المنطقة."

جاءت الأعياد ولم تنته الحرب. وتأخّر تخرّج التلميذ سنة كاملة بسببها. كانت هناك أسابيع يمضيها في مكتبه في الجامعة دون أن يستطيع المغادرة إلى بيته. وخلال نومه في مستودعٍ ملحقٍ بالمختبرات التي يعمل فيها، كان أحيانًا يستيقظ على أصوات الميلشيات المسلحة العابرة، فيراقبها في الظلام من نافذة المخبر.

كان كلّ صباح، فور استيقاظه، يجري اتصالات هاتفيّة مع أصدقائه ليطمئنّ عنهم ويطمئنهم أنّه لا زال على قيد الحياة. وفي صباح يوم توجّه كعادته نحو غرفة تجهيزات الغوص البحريّ، وفيها الحمّامات والمغاسل. وحين كان يحلق ذقنه، سمع صوتًا مفاجئًا غريبًا كأنّه نبضة سريعة هزّت المكان فوق رأسه. لحسن

الحظّ أن نوافذ هذه الغرفة مرتفعة بطبيعة الحال. التقط من على الأرض رصاصة القنّاص الطائشة التي مرّت فوق رأسه بأقل من مترين.

حين سمعت بذلك إحدى صديقاته المقرّبات، استغلّت فرصة هدوء، بعد أيّام من الحادثة، وحضرت من الجبل إلى الجامعة لتطمئنّ عليه. كان هذا آخر لقاء بينهما. بعدها ما عادت تحضر، لكنّهما استمرّا بالتخاطب هاتفيًّا إلى أن جاء يوم يرنّ الهاتف فيه دون جواب. هل غادرت البلاد؟ هل بقيت على قيد الحياة؟ إلى اليوم لا يعلم أين هي.

وحين أنهى أموره وحصل على التواقيع الرسميّة التي كانت جواز تخرّجه، أراد العودة إلى دمشق، مسقط رأسه، لكنّ الطريق الرسميّة غير سالكة بسبب الاشتباكات. ترك سيّارته في بيروت بعهدة قريب له، والتحق بسيّارة أجرة يقودها درزيّ يستطيع العبور من مناطق جبليّة تسيطر عليها طائفته وحلفاؤها. عبر إلى دمشق، وخلال المشوار كانت هناك مواقع تحفل بأصوات الرصاص والمدافع.

عدا عن ذلك، وخلال تلك الفترة التي قضاها في بيروت منذ بدء الحرب الأهليّة، تعرّض مرّتين للهلاك، وهو الذي لا ناقة له بتلك الحرب ولا جمل. لكنّها كانت أوقاتًا يمكن أن يذبح فيها لمجرّد إبراز هويّته السوريّة. كان يمكن أن يحصل هذا على حاجز للقوات اليمينيّة، أو على حاجز فلسطينيّ، وفقًا لما كان عليه التحالف مع الدولة السوريّة في ذلك الوقت، والذي كان يتغيّر وفق المصالح، أو وفق تعليمات الأسياد الإمبرياليّين.

مجرّد الشعور بالخلاص من مأزق كهذا ترك في نفس صاحبنا صدمة نفسيّة عنيفة، ازداد شعوره بها مع تقادم الوقت. ذلك أنّ السنين التي مرّت بيّنت أنّ الحرب الأهليّة لم تتوقّف أبدًا. هذا هو يرى أنّ لبنانه ينهار من تداعيات الحرب ومخلّفاتها. وهنا في أستراليا قابل أشخاصًا لهم قصصهم وحكاياهم، مثل هذا الذي قُتل أخاه على أيدي مجموعة من طائفته لأنّ هويّته سوريّة، واسمه لا يدل على طائفة معيّنة.

كلّما سمع قصّة مثل هذه يتذكر المأزق الكبير الذي وقع فيه مرّة ونجا منه لمجرّد أن صدف عدم تفتيشه، ولا يحبّ أن يكرّر تفاصيله لأنّها تشير إلى فئة معيّنة، ولأنّه يعلم أنّ الجميع سواسية في السفالة والطغيان. (كلّن يعني كلّن!)

كلّما شاهد العنف على أرض فلسطين، والاعتداءات في أوكرانيا، يتجدّد في ذهنه استحضار تلك المواقف الصعبة. يتصوّر نفسه مكان تلك الضحايا البريئة، سواء استهدفت بقصف، أو عصف، أو رمي بالرصاص، أو اغتصاب، أو أسر، أو تهجير. يعلم أنّه محظوظ بنجاته ومكان وجوده، لكنّ هذا لا يلغي الصدمة المستوطنة في تلافيف الذاكرة.

عدم حصول الفعل فيزيائيًّا لا يعني النجاة من استحضاره ذهنيًّا، والعيش في جحيم مدلولاته. أن لا تكون أنت الضحيّة، لا يعني أنّك لا تشعر مع الضحيّة. ويصاب بخيبة كبيرة لأنّه يعلم أنّه لا حول له ولا قوّة. مجرّد متفرّج على الأحداث.

وطبعًا، يتذكر أستاذه البريطانيّ الذي كان أكثر فهمًا لطبيعة الأمور.

أستراليا
والمكانة الضائعة

أعتقد أنّ لأستراليا مكانة دوليّة لا توظّفها بالطريقة اللائقة، بل ربّما لا تريد أن تقوم بهذا، رغم تصريحات زعمائها بعكس ذلك.

ما يجعلني أقول هذا ليس حنكتي السياسيّة، والتي تقارب الصفر. بل هو محبّتي وشعوري بالمسؤوليّة نحو بلد تبنّيته بكامل وعيي وإرادتي الحرّة.

منذ وصولي إلى أستراليا، عام 1988، للاستقرار فيها، تمتّعتُ بكلّ المزايا التي يمكن لأستراليا أن تعطيها. كما أنّني بدوري قدّمت لها كلّ ما استطعت في حدود كفاءاتي وإمكانيّاتي، وزوجتي كذلك. أنا وزوجتي الآن متقاعدان على حسابنا الخاصّ، دون الحاجة لأيّ معاش تقاعد من الدولة. وهذا أمرٌ يدعوني للفخر، لأنّه تتويج لعلاقة صحّيّة بين الفرد والمجتمع الذي احتضنه. ابنتانا استفادتا من النظام التعليميّ، وهما الآن في أعلى مراتب مهنتيهما، وتنعمان بحياة عائليّة ناجحة. حقّقتا، خلال سنين قليلة، أفضل ممّا حقّقنا في عمر كامل.

في الواحد والعشرين من هذا الشهر (أيّار 2022)، مارسنا حقّنا الديمقراطيّ في انتخابات حرّة أدت إلى تغيير الحكومة من الليبراليّين إلى العمّال. كلّما قمت بالاقتراع، أتذكّر أوّل مرّة

شاركت فيها في الانتخابات الأستراليّة عام 1993، وكانت تلك أوّل انتخابات حرّة مارستها في حياتي، وكنت تجاوزت الأربعين من العمر. هذا الشعور بحرّية الاختيار لا يقدّر بثمن. وبالمناسبة، لا أقترع لحزب أو فئة معيّنة. أفضّل أن أقترع للشخصيّة التي أرى فيها الجرأة والعدل والحكمة، إن وجدت.

تمثّل أستراليا القيم الغربيّة التي تبنّيتها، وكان انتقالي إلى أستراليا قرنًا لقولي بفعلي. وهنا تكمن مشكلتي. ليس فيما تبنّيت من قيم، بل في الغرب الذي لا يعيش وفق مبادئه، خصوصًا حين يتعلّق الأمر ببقيّة بلاد العالم غير الأنكلوسكسوني أو الأوروبيّ. وما غزو العراق، وتدمير سوريا سوى أمثلة حديثة على ذلك.

كما أنّنا شهدنا بوضوح "الكيل بمكيالين" الذي يقوم به الغرب حين يندّد بالغزّو الروسي لأوكرانيا، ولا يندّد بالغزو الإسرائيليّ لسوريا، وضمّ إسرائيل لمرتفعات الجولان منذ سنين. وكذلك فيما يتعلّق بمعاملة اللاجئين الأوكرانيّين مقارنة مع اللاجئين غير الأوروبيّين، كمثال آخر من أمثلة كثيرة.

أستراليا خادم أمين للغرب، خصوصًا الولايات المتّحدة الأميركيّة. ويبدو أنّ أستراليا عاجزة عن التفرّد بصوتها، رغم أنّ الولايات المتّحدة الأميركيّة بحاجة كبيرة لأستراليا.

قدّمت أستراليا تضحيات كثيرة للغرب، رغم وجودها في شرقها البعيد، تحت حجّة القيم الغربيّة، وصون الحرّيّة والديمقراطيّة. وتحالف "أنزاك" مثال كبير على ذلك.

معظم التحدّيات الأساس التي تواجه العالم اليوم لا يمكن التصدّي لها إلّا بتضافر العالم كلّه. المناخ، الطاقة، الاقتصاد، السلام، من أهمّ ما يجب التعاون عليه.

لا شكّ أنّه لا يمكن أن تتخلّى أستراليا عن تحالفها مع الولايات المتّحدة الأميركيّة، والغرب عمومًا، لكنّ هذا يجب أن لا يمنع أستراليا من حرّيّة كيفيّة التعامل مع بقيّة العالم، خصوصًا الصين.

ميول أستراليا الغربيّة، وجغرافيّتها الشرقيّة يضعانها في موقع مميّز لتكون "سفيرة سلام"، ووسيطًا فعّالًا بين مختلف الفرقاء حول العالم، خصوصًا بما تتمتّع به من تقدّم علميّ واقتصاديّ. وحتّى تقوم بذلك، لا بدّ لها أن تثبت مصداقيّتها وتستعيدها أمام جيرانها. ويبدأ هذا بأن تتعامل مع جيرانها وفق مبادئ الاحترام المتبادل. على أستراليا أن تثبت للعالم أنّها ليست عبدًا للولايات المتّحدة الأميركيّة، وأن أيّ تحالف يجب أن لا يكون مانعًا من تحالفات أخرى تفيد البلد. إن الإصرار على التحالف مع الغرب فقط ليس سوى تأكيد على روح "الحرب"، خصوصًا إذا كان الشرط هو "إمّا معنا أو علينا". كلّنا نعلم الآن بوضوح أنّ هذا الشرط أميركيّ بامتياز، فالولايات المتّحدة الأميركيّة ليس لديها مانع من القضاء على معظم العالم لتبقى مسيطرة. منذ الحرب العالميّة، وحتّى الحرب الأوكرانيّة، لا زلنا نتلقّى التأكيدات بأنّ الولايات المتّحدة الأميركيّة لا تمانع من المحاربة حتّى أخر جنديّ أوروبيّ. وبرأيي أنّ ما تقوم به الولايات المتّحدة الأميركيّة اليوم ليس مجرّد حرب ضد روسيا، وإنّما ضدّ

أوروبا لأنّها تريد إبقاءها تحت سيطرتها، ولا تريد لدول مهمّة مثل ألمانيا أو فرنسا أو بريطانيا أن تحرز دور القيادة.

بعبارة أخرى، يمكن للولايات المتّحدة الأميركيّة أن تتخلّى عن أستراليا في أيّ وقت ترى أنّها تستغني عن خدماتها. لن يكون هناك أيّ صيانة لأيّ ميثاق شرف. هذا لا يعني أنّ روسيا والصين سيكونان مثاليّين في أيّ تحالف معهما، ولا أقول إنّه يجب أن يكون (عدم وجود تحالف لا يلغي التعاون). ولكن حتمًا لن نجد أسوأ من طريقة التعامل الأميركيّة. وحتّى لا ننسى، وعلى الرغم من المساعدة الروسيّة في سوريا، رأينا مؤخّرًا كيف تتغاضى روسيا عن انتهاكات إسرائيل لحرمة الأراضي السوريّة. ولهذا، أيّ تحالف يجب أن يبنى على المصالح المشتركة والاحترام المتبادل، وتمييز أنّ العالم اليوم مهدّد من عوامل مختلفة.

القضيّة الفلسطينيّة من أهمّ قضايا العالم التي تحتاج إلى تسوية عاجلة. بقاؤها على هذا الحال سببٌ لكثير من التوتّر العالميّ العام، والاضطهاد للشعب الفلسطينيّ بشكل خاصّ. وأعتقد أنّه يمكن لأستراليا أن تقود مبادرات هامّة في هذا المجال. بعض مواقف رئيس وزرائنا الجديد تجاه الشعب الفلسطينيّ مشرّفة جدًّا، ولكنّها كانت حين لم يكن في الحكم. هل يا ترى سيتمسّك الآن بقيمه السامِيَة؟ لا أعلم، خصوصًا أنّ شخصيّة سياسيّة بارزة أخرى من الحزب نفسه صارت مؤيّدة لقضايا الشعب الفلسطيني فقط بعد أن اعتزلت السلطة، ولم تكن كذلك حين كانت في السلطة.

لا أقول هذا الكلام لأنّني شخصيًّا متفائل (أو متشائم) بالتغيير من حزب لحزب. عوّدنا نظام "وستمنستر"، الذي يعتمد على حزبين رئيسين، أنّه في كلّ مرّة يملّ الناس من حزب يقومون باختيار الآخر أملًا في الأفضل. أمّا في واقع الأمر، لكلّ طرف محاسنه وسيّئاته، وفي كثير من الأحيان لا يترجم هذا التغيير إلى فائدة تعود على الناخبين أو البلد. ولكن يحدث أن يكون بعض القياديّين على درجة من الوعي والمسؤوليّة بحيث يتقدّم بمشاريع تُحْدِث تغييرات هامّة في حال موافقة المجلسين، النيابيّ والتشريعيّ، عليها.

رئيس الوزراء الجديد أنثوني ألبانيزي شخصيّة معتبرة، أرجو أن تحتل أستراليا مكانتها العالميّة اللائقة العادلة على يديه.

كم سيسعدني أن يتدخّل بلدي "أستراليا" في حلّ أهمّ قضيّة مستعصية في بلدي "الشام".

أوليغاركيّة

لا اعتقد أنّ الابتذال يمكن أن يكون أشدّ انحطاطًا ممّا وصل إليه لدى البعض في ردود الفعل حول غزو روسيا لأوكرانيا، خصوصًا أنّه يأتي من جهات غربيّة تدّعي التحضّر والتقدّم، ونحن نقترب من إنتهاء الربع الأوّل من القرن الواحد والعشرين، أي على مسافة زمنيّة بعيدة من العصور الوسطى وملحقاتها، وعلى مسافة أقرب من الحربين العالميّتين، وما لحقهما من دمار في أوروبا نتيجة الهمجيّة التي سادت، والتي توّجتها النازيّة بالحصول على كأس العنصريّة، والقيام بتنفيذ جريمة فظيعة في التطهير العرقيّ بالمحارق التي قضت على الملايين دون ذنب اقترفوه.

العقلانيّة تقول إنّ السنين التي مضت بعد ذهنيّة محاكم التفتيش الأوروبيّة، والمذابح التي ارتكبت باسم الدين، كفيلة بتثقيف الشعوب بأهمّيّة السلام، خصوصًا أنّ تلك الفترة الزمنيّة ترافقت مع تقدّم علميّ وفلسفيّ مذهلين. أي أنّه كان من المفروض تجنّب هاتين الحربين .

والعقلانيّة تقول إنّ ويلات هاتين الحربين كان يجب أن تكفل إحلال السلام الدائم على وجه الأرض، خصوصًا مع تزايد المعرفة بضرورة الحفاظ على البيئة التي صارت مهدّدة من عدّة

جهات، وهناك حاجة ملحّة لتوجيه المال والطاقة نحو المشاريع التي تحلّ مشاكل الاحتباس الحراريّ، على سبيل المثال.

من الواضح أنّ هذا لا يحصل، لأنّ القرار ليس بيد الخبير أو صاحب الحكمة، بل بيد السياسيّ الذي يخدم مصالح لا علاقة لها بالمواطنين الذين انتخبوه، أو الذين أُجبروا على الانصياع لحكم دكتاتوريّ يتستّر أحيانًا بانتخابات مزيّفة، أو بحجّة دفاعه المستميت عن الوطن.

من ضِمن هذه الحكومات المستبدّة ما يعرف بحكم الـ"أوليغاركيّة". وهو حكم جماعة قليلة همّها الفائدة الذاتيّة واستغلال كلّ مشاريع البلد لحسابها. ويتراوح حجم الجماعة من عدّة أفراد، ربّما من عائلة واحدة، إلى مجموعات أكبر لها مصالح استغلال متشابهة، ويكون لها حصّة من مجمل الحصص وفق موقعها ودورها، أو وفق ما يمليه الرأس الأكبر المسيطر عليها وعلى البلد. ولقد شهدت البلاد العربيّة أمثلة من ذلك، كان الرأس المسيطر فيها يضيف إلى سجلّه ألقابًا وطنيّة يغطّي بها فساده وفساد الطغمة التي تأتمر بأمره. وحتّى يحافظ على مركزه السياسيّ الذي وصل إليه من طريق غير شرعيّة، ولا علاقة لها بالنزاهة الانتخابيّة، ولا بالممارسات الديمقراطيّة، ليس لديه مشكلة في تصفية خصومه السياسيّين، وقمع أيّ معارضة محقّة.

المشكلة في هذه الأنظمة أنّ سيطرة هذه الفئة على مفاتيح الاقتصاد والمال والعمل، تعني أنّ فئة كبيرة من أفراد الشعب تعتمد عليها في تأمين لقمة العيش. حتّى ما يظهر على أنّه وظيفة

لدى "الدولة"، يكون في الواقع وظيفة لدى قطاع تسيطر عليه فئة من هذا الفئات، أو فئة تابعة لها. صحيح، كمثال، أنّ بعض هذه الدول يؤمّن الدراسة المجّانيّة لشعبه، لكنّ النظام القائم، المسيّر من قبل الأوليغاركيّين، لا يمكن أن يسمح بأي آراء تعارض الوضع القائم، ولو جاءت من أكاديميّين مرموقين، حتّى لا يتزعزع مركزه. وهكذا تصبح البلاد بكلّ مرافقها مرتهنة لمن هو "الباب الوحيد للرزق"، في عمليّة ابتزاز من عواملها قليل من الترغيب وكثير من الترهيب.

الرئيس بوتين مثال "أنيق" على هؤلاء الأوليغاركيّين. من الواضح أنّه يتمتّع بذكاء عظيم ومقدرة فائقة، خصوصًا في تعزيز مصالحه والسيطرة على بلاده، دون أن يستثني أيّ طريقة تضمن بقاءه، بما في ذلك اغتيال أو سجن خصومه. كان رئيسًا للمخابرات السوفياتيّة، والآن رئيسًا لدولة "عظمى" يمكنها التأثير على كلّ ما في هذا العالم. يعتقد كثيرون أنّه أغنى رجل في العالم، ولكن لا يعتقد أحد أنّ رواتبه في أيّ من مناصبه كفيلة في جعله غنيًّا حتّى على المستوى البسيط. وطبعًا سيرة حياته صارت معروفة، بما كان فيها من بؤس وتشرّد، إبان طفولته، لدرجةٍ تفتّت القلب.

أنا أعتقد أنّ الحروب يجب أن لا تحصل مهما كانت الأسباب، لأنّ التاريخ علّمنا أنّ الخاسر الأكبر دومًا هو الإنسان العاديّ الذي ربّما ما أراد الحرب ولا المشاركة فيها. لكنّ واقع الأمر أنّها تحصل، ولن تتوقّف. وقد يكون واقع الأمر أنّ بوتين فعلًا يحمي بلاده من خطر الهيمنة الأميركيّة على أوروبا،

خصوصًا على الدول المجاورة لروسيا. وسواء كانت هذه الخطوة "ضربة معلم" من قِبله، أو أنّه وقع في فخ المكائد الأميركيّة التي تريد تحطيم اقتصاد روسيا وإزاحة بوتين، وربّما القضاء عليه، أمر لا أستغربه. لكنّني ضدّ الحرب من إيّ طرف أتت. وأعتقد أنّ الولايات المتّحدة الأميركيّة وحلفاءها لم يحترموا مشاعر واحتياجات روسيا الأمنيّة، ولم يفوا بوعودهم حول الاتفاقات المبرمة.

أذكر بوتين لأنّ الولايات المتّحدة الأميركيّة، ومن يلعق حذاءها دائمًا، بدأت بحملة دعائيّة شرسة ضدّه. هذا مع أنّه معروف تدخّل مخابراتها في قلب الأوضاع الأوكرانيّة وتنصيب رئيس موالٍ لها عوضًا عن رئيسها الشرعيّ الذي كان يعي أهمّيّة موالاته لروسيا بالنسبة لمصلحة بلاده. أضف إلى ذلك تسليحها لجبهة "ناتو" بما يضمن دوام المواجهة مع روسيا. لقد توسّع "ناتو" نحو الشرق بأكثر من ألف كيلومتر خلال الثلاثين سنة الماضية، ومن الواضح من تدخل دوله في أوكرانيا أنّه يريد مواصلة التوسّع. وطبعًا ليس من الضروريّ أن تكون أوكرانيا رسميًّا في الناتو لتحصل على الدعم بطرق أخرى. هذا تهديد واضح لأمن روسيا، وهو أكبر من التهديد الذي شعرت به الولايات المتّحدة الأميركيّة إبان مسألة الصواريخ السوفياتيّة في كوبا، كما أجمع كثير من المعلّقين.

وبما أنّ كبار اللاعبين بهذا العالم يعرفون كيف يستغلّون الظروف حتّى لو أخطأوا في مبادرة ما، نرى أنّ الولايات المتّحدة الأميركيّة ستسطيع بعد هذه الأحداث أن تزيد من سيطرتها على

"ناتو"، وتلغي أيّ دور لبروز ألمانيا كالدولة القائدة لأوروبا، وبهذا تخسر أوروبا القيادة القويّة، فلا يكون لها دور مستقلّ عن الولايات المتّحدة بحيث تلتفت للمصالح الأوروبيّة التي ستكون الآن متضرّرة أكثر من الأضرار التي ستصيب روسيا. وسمعت، في مقابلة تلفازيّة حديثة، السفير الأميركيّ السابق للإتحاد السوفياتيّ في عهد جورج بوش الأب، جاك ماتلوك، يذكّرنا بما صرّح به الأمين العامّ الأوّل لحلف ناتو عن أهداف الحلف وهي ثلاثة: إبعاد الروس، وقمع الألمان، وإبقاء الأميركان. بينما كان الرئيس غورباتشوف ينادي بوجوب التفكير بشبكة أمنيّة مشتركة تضمّ كلّ أوروبا. ويضيف السفير المتقاعد، الذي يزيد عمره عن التسعين، وعاصر الأزمة الكوبيّة، أنّ السياسة الأميركيّة في عهد جورج بوش الابن بدأت تعمل على الانسحاب من كلّ المعاهدات التي سبق أن أنهت الحرب الباردة، وتنادي بنظام عالميّ جديد لم يكن منه سوى الخراب. ففي التسعينيّات قصفت الولايات المتّحدة الأميركيّة صربيا دون موافقة الأمم المتّحدة. "ثم غزونا العراق بادّعاءات كاذبة، وبدون موافقة الأمم المتّحدة، وضد نصيحة حلفائنا الألمان والفرنسيّين. ولهذا لم تكن الولايات المتّحدة الأميركيّة تتقيّد بالقانون الدوليّ الذي كانت واحدة من داعميه."

لا تتوقّف ازدواجيّة المواقف الأميركيّة عند هذا، بل تتعدّاها إلى التغاضي عن واقع أنّها لم تقم بمثل هذا الاحتجاج، واتخاذ مثل هذه العقوبات حين ضمّت إسرائيل القدس الشرقيّة، مخالفة القانون الدولي، وأعلنت كلّ القدس عاصمة

لها. وقبل ذلك حين احتلّت إسرائيل مرتفعات الجولان السوريّة وضمّتها إليها، مع العلم أنّ هذه المنطقة كانت مأهولة بالسوريّين فقط، وليس الحال كوجود الروس في مناطق أوكرانيا الشرقيّة، وهذا ما لا تريد الولايات المتّحدة الاعتراف به، ولا الاعتراف أنّ هؤلاء الروس تعرّضوا للبطش من قبل السلطات الأوكرانيّة، ولهم مظالم كثيرة، مثل حظر استعمال اللغة الروسيّة في كلّ مرافق الحياة. وهذا من الأسباب في رغبتهم بالاستقلال، بغضّ النظر عن التحريض والدعم الروسيّين. ولا حاجة لي بالتذكير بمواقف إسرائيل العنصريّة تجاه الشعب الفلسطينيّ، وإجراءاتها القمعيّة، وجرائمها الحربيّة، وعمليّاتها الإرهابيّة ضد من يدافع عن حقّه في الحياة في أرض هي ملكه منذ مئات السنين.

مشكلتي مع الولايات المتّحدة الأميركيّة، ولاعقي حذائها، كبيرة جدًّا بعد الفظائع التي ارتكبوها في وطني الأمّ سوريا، والأكاذيب التي اقترفوها، مُهينين ذكاء العالم. لقد تغاضوا عن عشرات الألوف من المرتزقة الذين دخلوا البلاد يعيثون فسادًا وتدميرًا لابسين عباءة "المعارضة"، والخوذ البيضاء، وغيرها من الألبسة ووسائل الافتراء والتضليل. طبعًا هذا ما تمّ التحقّق من حصوله لاحقًا، فكثير منّا ظنّ في البداية أنّ هناك حركة أصيلة، خصوصًا أنّ الحكم لا يمكن تنزيهه عن الفساد وسوء الإدارة والاستبداد. فلماذا نصدّق الولايات المتّحدة الأميركيّة وأذنابها في حال أوكرانيا؟ هل نسينا العراق؟ وهل نسينا كيف ورّطت الولايات المتّحدة الأميركيّة الإتحاد السوفياتيّ في أفغانستان،

وأنشأت "القاعدة" التي لا زال العالم يعاني من تداعيات همجيّتها؟

بدأ المساس بشخص بوتين على كلّ صعيد، وتمّ التركيز على كونه يمثل حكومة أوليغاركيّة، أو أنّه أوليغاركيّ. وهذه الناحية بحاجة لبعض الإنارة، لأنّ العرف العامّ أنّ الحكم في الولايات المتّحدة الأميركيّة حكم ديمقراطيّ، ولا يمكن أن يكون أوليغاركيًّا. لا شكّ أنّ الولايات المتّحدة الأميركيّة ديمقراطيّة في إتاحة الفرصة للجماهير بإدلاء صوتها وانتخاب من تريد. لكن يجب أن لا نغفل عن أنّ المرشّح للرئاسة، وكذلك لعضويّة مجلسي النوّاب والشيوخ، بحاجة للقيام بحملة انتخابيّة باهظة التكاليف. هو أشبه ما يكون بسلعة يتمّ الترويج لها. ومهما كانت ثروة المرشّح، هو دائمًا بحاجة لدعم ماليّ. وواضح أنّه في المجتمع الرأسماليّ لا يقدّم أحدهم المال "لوجه الله"، كما يقال. البعض قد يكون له توجّه أصيل، يريد ترسيخ فكره وعقيدته، فيقوم بالتمويل على هذا الأساس. والبعض له مصالح اقتصاديّة هائلة، ويريد ديمومتها بضمان أنّ أصحاب القرار مرتهنون له. وهذا الأخير هو من يملك المال الوفير. ولهذا، وباختصار، ينتهي مجلس النواب والشيوخ بممثلين عن المصالح الخاصّة، لا عن الشعب، ولا قضاياه، ولا ما يضمن رخاء الولايات المتّحدة الأميركيّة على المدى الطويل، ولا ما يمكن أن يساعد في الحفاظ على الكرة الأرضيّة. طبعًا ينطبق هذا على النخبة صاحبة الحلّ والربط، أي "المفاتيح".

فهل يمكن القول، إنّه لمجرّد وجود هذه "الديمقراطيّة"، تتنزّه الولايات المتّحدة الأميركيّة عن الأوليغاركيّة؟ دعوني أوّلًا أؤكد أنّني لا أطرح هذه المواضيع من منطقٍ أو معرفةٍ أكاديميّة، بل أطرحها من منطق المتأثر بنتائجها، شأني شأن كلّ سكان العالم الذين يشتركون في مكان واحد، لا بديل لنا عنه، من هذا الكون، ويتقاسمون محنة واحدة، لأنّه بات أكثر وضوحًا أنّ "ما يصيب عضوًا ... يتداعى له سائر الجسد ... " على كوكبنا الأرضيّ.

رئيس الولايات المتّحدة الأميركيّة، وأعضاء مجلسي النوّاب والشيوخ، في معظمهم، يمثّلون مجموعات "أوليغاركيّة" بامتياز. وكنت دائمًا أؤكد هذا لأصدقائي الذين كانوا يصرّون على أنّ الصهيونيّة هي المسيطرة على العالم. لكنّ أحداث أوكرانيا دعت المؤلّف مايكل هدسون إلى نشر موضوع في "كاونتربنش"، يوم 2022/03/03، حول ما سمّاه "انتصار أميركا الثالث على ألمانيا"، يحدّد فيه ثلاث مجموعات أوليغاركيّة تسيطر على السياسة الخارجيّة الأميركيّة. (أعدّدها هنا مع تعليقاتي أنا.)

على رأس القائمة من هذه المجموعات شركات السلاح. وهي، برأيي، صاحبة المصلحة الأساس في استمرار الحروب أينما كانت، وكيفما كانت. المهمّ بيع السلاح والربح الوفير على حساب القيم، والشعوب، والله، وملائكته، وكلّ ما يمكن استغلاله. وهذه الشركات هي من يسيطر على سياسة الولايات المتّحدة الأميركيّة، والحركة الصهيونيّة وأمثالها من الحركات المرتزقة

التي ليس لوجودها أسس موضوعيّة، بل نمت على السلب والغشّ والخداع، وهو ما يناسب السيّد الذي يديرها.

وبعدها تأتي شركات النفط والغاز والمناجم التي تتحكّم بعصب الحياة الاقتصاديّ في كلّ أنحاء العالم. وهنالك قصص كثيرة حول تدخّل هذه الشركات في توجيه السياسات العامّة. وما حادثة الانقلاب، المدبّر من المخابرات الأميركيّة، على الجنرال مصدّق الذي انتخب ديمقراطيًّا ليكون رئيس الوزراء زمن شاه إيران، والذي أراد للنفط أن يكون ملكًا لبلاده لا لبريطانيا، سوى مثال على ذلك. أنا أعتبره بداية تدمير المنطقة كلّها من أجل السيطرة على النفط الذي بدأ اكتشافه في السعوديّة ومناطق الخليج، فخاف الأمريكيّون على مصير مصالحهم هناك، وما أرادوا النجاح لمبادرة مصدّق الإيرانيّة حتّى لا تكون بداية لمبادرات شبيهة في الخليج.

ثم شركات المال والمصارف والعقارات. وهذه لها أهمّيّة في تخديم المجموعات كلّها.

يضاف إلى ذلك ما هو مألوف عادة مثل تأثير "لوبي" الأسلحة الفرديّة، واللوبي الصهيونيّ على انتخابات وسياسة الولايات المتّحدة الأميركيّة، ولكنّي أعتقد أنّ التاثير العظيم لهذين يعود لكونهما خادمين أمينين لمصالح أسيادهما في مجالس إدارة شركات السلاح والنفط.

مشكلتنا كأناس عاديّين، أو دافعي الضرائب، أو الباحثين عن راحة البال، أنّنا دائمًا نجد أنفسنا محصورين بين خيارين متناقضين لا ثالث لهما، على الرغم أنّ الخيار الثالث هو

الواضح الذي نريد، وهو الخيار الذي يجب أن لا يحمل رقمًا ترتيبيًا. هو ليس الخيار الأوّل، بل الوحيد الذي يجب أن يكون. مثلًا، لا نريد أن نختار بين روسيا والولايات المتّحدة الأميركيّة. ما نريده هو أنّنا مع حرّية التعاون مع أيّ كان على أسس الاحترام والمنفعة المتبادلين. ما نريده، والأوكرانيّون، هو أوكرانيا المستقلة المستقرّة لتكون عضوًا نافعًا ضمن المنظومة الأوروبيّة، وبالتالي العالميّة. ما نريده هو اعتراف بفلسطين، وحقوق الشعب الفلسطينيّ أسوة بكلّ شعوب العالم. ما نريده هو أن يقرّر كلّ شعب مصيره بحرّيّة، تمامًا كما يدّعي الغرب، وشريعة حقوق الإنسان، وقرارات الأمم المتّحدة.

وأنا الأستراليّ-السوريّ لا أريد لبلدي أستراليا أن تكون من لاعقي حذاء الولايات المتّحدة الأميركيّة، ولا من المؤيّدين لغزو أوكرانيا. لا أريد لأحد أن يخيّرني بين بوتين وبايدن، ولا بين الحكم السوري وبين "المعارضة". الخيار المناسب هو لا هذا ولا ذاك، بل أن يُترك الشعب يتمتّع بنظام علمانيّ ديمقراطيّ شريف.

ستكثر التحليلات، وسيتّهم كلّ فريق خصمه ما استطاع، ويلفّق الأكاذيب بتطويع الكوادر الإعلاميّة المناسبة، وسيستمر الصدام إلى حين، وبعدها سيتوقّف بطريقة أو أخرى، يكون الجميع بعدها خاسرًا بطريقة أو أخرى، إلّا تلك الشركات العملاقة التي تعرف كيف تبتلع كلّ شيء، وتستفيد من الوضع كيفما اتجه. إن استطاع بوتين أن يصبح قيصر أوروبا الأعظم، أو أن يُرمى في مزبلة التاريخ، الأمر سيّان لديها طالما أنّ الطلب

على بضاعتها لا يتوقّف. بل قد لا تريد شركات الأسلحة للولايات المتّحدة الأميركيّة الانتصار إن كان هذا سينهي الحروب. بينما قد تجد شركات النفط فائدة في انتصار الولايات المتّحدة الأميركيّة وسيطرتها على مرافق العالم الحيويّة، ما يضمن تدفّق النفط دائمًا. وهذا، من حيث المبدأ، قد يسبّب نزاعًا بين هذه القبائل الأوليغاركيّة. أي عند المصلحة، لا شيء مقدّسًا سوى مواصلة الربح.

كما كان الحال في سوريا، وقبلها العراق، ستكون أوكرانيا هي الخاسر الأكبر تحت عجز العالم عن اختيار العقل والعدالة كوسيلة للمناوشة، عوضًا عن القنابل والتجويع.

سيدني 2022/3/6

شعوب لا حول ولا قوّة

أعادتني الحرب الأوكرانيّة إلى تأمّلاتي إبّان حرب الخليج، وهي أفكار لا تبرح ذهني سواء بحرب جديدة أم لا.

الجنون، القسوة، التبذير، الاستهتار، تدمير البيئة، القضاء على المنجزات، على الإنسان، وبالنتيجة التمهيد للقضاء على كوكبنا الأرضيّ.

أتذكّر ما شعرت به وحرب الخليج (1990-1991) تشتعل. تابعت الأحداث بشكل رئيس من طريق وسائل الإعلام الأستراليّة والأميركيّة. الانحياز لوجهة النظر الأميركيّة كان جليًّا لدى القنوات الأستراليّة الخمس التي كنت أتابع. هذا ما توقّعته. لكنّ أكثر ما استفزّني هو عرض الأحداث بطريقة "رعاة البقر". لم يكن يهمّهم عدد المدنيّين أو العسكريّين الذين كانوا يُقتلون أو يُجرحون بالمئات كلّ يوم. أوليس هذا جزءًا من اللعبة على كلّ حال؟ وبناء على ذلك، لماذا لا نضيف بعض الـ"دراما"؟

في أوّل يوم من أيّام الحرب قيل لنا إنّ الأميركيّين وحلفاءهم سينهون العمليّة بسرعة وبراعة. لكنّ اللهجة اختلفت بعد أيّام قليلة. وبعدها، عندما سُئل مواطن إسرائيليّ، في مقابلة تلفازيّة، عن التهديدات الصاروخيّة ضد بلاده، أجاب أنّ هذه ستكون أوّل وآخر فكاهة يُطْلِقها صدّام حسين. في اليوم التالي، هبطت صواريخ صدّام على إسرائيل.

لم أصرف وقتًا طويلًا في التفكير بادّعاءات العراقيّين حول عدد الطائرات التي أسقطوها. هم كبقيّة الأنظمة العربيّة يسقطون طائرة واحدة ويقولون لمواطنيهم إنّهم أسقطوا مئة طائرة. الاختلاف هذه المرّة كان أنّ صدّام استطاع أن يحقّق بعض ما وعد به. لم يكن غريبًا إذن أن يجد كثير من العرب في سقوط هذا الصاروخ على أرض إسرائيل فرصة للانتقام من الذل الذي عانوا منه منذ عشرات السنين. أمّا عن سقوط بعض الصواريخ على أرض السعوديّة، فكثير من العرب كان ينظر إلى السعوديّين بازدراء لأنّهم يفتقرون إلى الأصالة، ومغمورون بثراء لا يستحقّونه، ويتعاملون مع مغتصبي الأراضي العربيّة. وبمهاجمتهم، كان العراقيّون، باعتقادهم، يحرزون مزيدًا من الدعم الشعبيّ العربيّ.

الحرب ليست فكاهة أو نزهة. أنا لا أوافق عليها مهما كانت. ولكن لم أتمالك شعوري في أنّني في الوقت الذي أردت فيه أن يتمكّن أحدهم من وقف صدّام حسين، أردت أن يدفع الأميركيّون ثمنًا باهظًا. صدّام حسين، وأمثاله، ما هم سوى "تحصيل حاصل" في مجمل الاستراتيجيّة الغربيّة. قالت إحداهنّ إنّ صدّام وحش خلقه الأميركيّون. المشكلة هنا، أنّ عربيّة تهاجم السياسة الأميركيّة، لا تستطيع تبرير الدفاع عن من مثل صدّام.

الغرب متّهم أنّه يكيل بمكيالين. كان هذا واضحًا من حيث أنّ معظم الأمم تصرّف نتيجة وقوعه تحت تأثير الولايات المتّحدة الأميركيّة، لا وِفْقَ ما يمليه عليه ضميره أو التزاماته

الدوليّة، أو على الأقل الموضوعيّة، فكان ما كان من قرارات هيئة الأمم المتّحدة المجحفة بحقّ العراق. بالمقابل، عندما قامت دول أخرى، بما فيها الولايات المتّحدة الأميركيّة، بمخالفة القوانين الدوليّة وشرعة حقوق الإنسان، وحاولت الأمم المتّحدة تمرير قرارت رادعة، كان ڤيتو الولايات المتّحدة الأميركيّة جاهزًا على الدوام لوقف الإجراء.

لكنّ الزعماء العرب الذين يظهرون التديّن المفاجئ، أو أنّهم حريصون على تحرير الأرض العربيّة، وأنّ مصلحة شعوبهم تهمّهم، لا يقلّون نفاقًا عن زعماء الغرب، بل هم أشدّ ظلمًا لأنّهم يطعنون أهلهم، لا أعداءهم.

هذا كلّه تجارة قذرة يتمّ من خلالها استغلال الجماهير، فيدفع الأبرياء الثمن. وعندما تستمرّ في دفع هذا الثمن الباهظ دون حقّ، يأتي يوم لا تستطيع بعده تحمّل الوضع. تلجأ للتمرّد. يمكنك التصادم مع نظام الحكم الفاسد الذي يستعبدك، أو يمكنك لعن أميركا إلى الأبد. الخيار الأوّل قد يفقدك حياتك، والثاني لن يجديك نفعًا. ولكن حين يقوم "قائد" أو "بطل" بحمل لواء قضيّتك والثأر لك، قد تسامحه وتتقبّل كلّ موبقاته الأخرى. هذا ما يبدو لك على أنّه الحلّ الوحيد. وهكذا يتحوّل الطاغية إلى بطل، فتتجنّب الصدام معه. ويأتي الآن دورك في استغلاله. أنت أيضًا تكيل بمكيالين.

الفرق هو أنّك أنت الضعيف. ولا أستطيع لومك، خصوصًا أنّني آمنٌ في بلاد أخرى على بعد آلاف الأميال. اخترت هذه البلاد البعيدة لأنّني اعتقدت أنّها ما يتناسب وطموحاتي

وأفكاري. وهي كذلك فعلًا من حيث مجتمعها ومفكّريها. ولكنّ سياسة الدولة، المتماهية مع سياسة الولايات المتّحدة الأميركيّة لدرجة التبعيّة، مدعاة لإحباط شخصيّ كبير.

الشعوب في الغرب، مثل شعوب الشرق، يقعون في خانة الأكثريّة التي لا حول لها ولا قوّة في مسألة العدالة الإنسانيّة الشاملة.

الثامن من تمّوز

ذكرى يوم من أشدّ الأيّام سوادًا في تاريخ سوريا.

في مثل هذا اليوم من عام 1949 تمّ "اغتيال" أنطون سعادة، واحد من أهمّ المفكّرين والمناضلين الذين عرفتهم سوريا الطبيعيّة، من خلال محاكمة صوريّة مرتجلة، صادق على حكمها حكّام لبنان في ذلك الوقت.

هذه العمليّة تتخطّى قضيّة التخلّص من شخص كان بوطنيّته خطرًا على الحكّام المستسلمين لإرادة المتربّصين بالبلاد، خصوصًا الرغبة الصهيونيّة في السيطرة على المنطقة، وهو من أوائل من نبّه إلى هذه القضيّة. إنّها قضيّة واحد من أعتى المسامير التي دُقّت في نعش البقاء السوريّ، بل أعتبرها من أوائل هذه المسامير الضارية التي ستؤدّي فيما بعد إلى غيرها ليكتمل القضاء على المنطقة كما نعرفها، وكما يتّضح الآن جليًّا.

إنّها قضيّة القضاء المبرم على الديمقراطيّة، بل اغتيالها قبل أنْ تولد في تلك المنطقة. وكذلك القضاء على العدالة والنزاهة واحترام حقوق الإنسان. وهذا ما أراده من كان وراء الاغتيال، لأنّ زوال هذه المُثل من المنطقة يعني أنّها ستكون عرضة للطائفيّة، والاقتتال الداخليّ، والاستسلام المستمر، والهزائم المتلاحقة. وكذلك يعني أنّ الحكّام خانعون دائمًا، أو

أنّهم لصوص مستبدّون ولا يمثّلون شعوبهم. وهذا ما حدث ويحدث إلى يومنا هذا.

أنا ما انتميت ولا أنتمي إلى أيّ حزب سياسيّ. وأنا هنا لا أدافع عن أحد. أنا واحد ممّن يصرخون تلك الصرخة المكبوتة في وجع القلب عبر هذه السنين الطويلة من الذل الذي وضَعَنا فيه حكّامنا، وخذْلِنا من قِبَلِ كلّ من يدّعي التقدّم والديمقراطيّة.

أنا أذكر أنطون سعادة الإنسان، المفكّر، الفيلسوف، السياسيّ، المناضل، الوطنيّ، الشريف، السوريّ الحقّ— مهما كانت عقيدته.

أذكر أنطون سعادة الذي وقف وقفة العزّ فخاوى بين مبادئه وأفعاله.

أذكر أنطون سعادة بحبّ واعتزاز واحترام، وأنتحب على أمّة لا زالت تنحر محرّريها وتصفّق لمستعبديها.

السيّدة الأولى

استعمال "السيّدة الأولى" كلقب غير رسميّ يطلق على زوجة رئيس البلاد أمر لا أستسيغه مطلقًا ولا أفهمه. لا شكّ أنّ بعض هذه السيّدات على قدر كبير من الكفاءة، وقدّم لبلاده خدمات هامّة. لكن كيف يمكن ترقية إحداهنّ إلى "السيّدة الأولى" لمجرّد أنّ زوجها تبوّأ المركز الأوّل؟ وما دخلها في الحكم وتصريف الأمور؟ ما ميّزتها عن غيرها من النساء اللاتي قد يكنّ أكثر كفاءة وخدمة للبلاد؟ كيف تقبل البلاد الراقيّة أن تقدّم هذا اللقب كتحصيل حاصل؟

كنت أستغرب تفشّي هذه الظاهرة في كلّ العالم إلى أن حصلت واقعة وضّحت لي الأسباب التي تعود لسلوك الناس وحبّهم للظهور والتسلّط. وكذلك أضحكتني كثيرًا فأضفتها إلى فكاهات حياتي. (أعتبرها من فئة "المضحك المبكي".)

وصل أحدهم إلى رئاسة جمعيّة أهليّة، وهي واحدة من مئات الجمعيّات في أستراليا، وفورًا صار يشار إلى زوجته على أنّها "السيّدة الأولى". هل هي من عمّم ذلك، أم هل أراد البعض "مسح الجوخ"، لا أدري. النتيجة مهزلة.

إذا انطبق الأمر على مئات الجمعيّات في أستراليا، لكان لدينا مئات السيّدات برتبة "الأولى".

أين السيّدة الأولى؟

في انتظار العودة

من رسالة رغيد النحّاس إلى مهرجان العودة السينمائيّ الخامس
في غزّة، 2021، الذي حمل شعار "انتظار العودة ... عودة"

في الحياة لحظاتٌ فارقةٌ، كتلك اللحظات التي كنت أشاهد فيها على شاشة التلفاز نساء غزّة ينعين شهداءهنّ، يعبّرن عن سخطِهنّ، وإصرارِهنّ، ومقاومتِهنّ، رَغم الضعف والقلّة والغبن والسَجن. يَقِفْنَ وَقْفَة العزّ التي تصلح لتكون درسًا للعالم.

تذكّرت عندها كيف يتحوّل الموقف إلى رمز أبديّ، لمجرّد أنّه مجبول بالصدق والحقّ. يتحوّل إلى صرخة تهزّ الضمائر الحيّة، وتبقى نغماتُها معلّقةٌ على أهداب التاريخ.

مثلًا هيباشيا الإسكندرانيّة، المولودة عام 360 ميلاديّة، كانت عالمة فلك ورياضيّات، وفيلسوفة، ومعلّمة خارقة، ومحبوبة من كلا الوثنيّين والمسيحيّين (لم تكن مسيحيّة). قامت مجموعة من الرهبان المسيحيّين بقتلها في ساحة عامّة، وذلك بسلخ جلدها وهي حيّة، وضربها. شكّل موتُها صدمةً عنيفة للإمبراطوريّة، واعتبرت شهيدة الفلسفة. بعد ذلك أصبحت رمزًا لكلّ من تاق إلى الحقّ. منهم من اعتبرها رمزًا للفضيلة المسيحيّة، ومنهم من جعل منها رمزًا ضد الكاثوليكيّة في عصر التنوير.

وكذلك تابعتُ كيف من غزّة، هذا السجن الكبير، المحاط بأعتى السجّانين قسوة وإرهابًا وعنصريّة، كانت تخرج

الاختراعات ليقول الشعب الفلسطينيّ إنّه فعلًا لازال على قيد الحياة: يحيا وليس مجرّد أنّه يعيش. واليوم أتفاجأ بمهرجانكم يأتي أيضًا من غزّة.

حين خبّروني عن مهرجان العودة السينمائيّ، كنت أظن أنّ عدد الأفلام يمكن عَدّه على الأصابع. ولكنّ الواقع أنّ العدد زاد عن المئة والسبعين.

وفي ندوة نظّمتها مؤسّسة الجذور الثقافيّة في أستراليا، تعرّفت إليكم أكثر، واستمعت إلى طموحاتكم وهِمَمِكُم وأعمالِكم، فاطمأننت أنّكم أنتم من يلتقط تلك النغمات المعلّقة على أهداب التاريخ ليعيد سردها، وأنّ "انتظار العودة" هو فعلًا "عودة"، طالما وجد من يقرن الأفكار بالأفعال.

والسينما فعل من أهمّ الأفعال، فبواسطتها يمكن ترجمة الأفكار إلى مشاهد قادرة على النفاذ إلى المتلقّي صورة، وصوتًا، وموسيقا. وهكذا تستحوذ على معظمِ حواسِّه. يضاف إلى ذلك أنّها توثيق متكامل للأحداث. هي إعادة لإحياء الرموز على أرض الواقع.

والأهمّ من ذلك أنّ السينما، بكلّ التقنيّات الحديثة، يمكن أن تكون الحارس الأمين على ذاكرة فلسطين. هذه الذاكرة التي يجب أن تبقى حيّة، وأن تُوَرّث إلى الأجيال الجديدة حتّى لا يَصمُتَ صوتُ الحقّ.

والحقّ أنّ فلسطين مغتصبة من الدجّالين وشذّاذ الآفاق، المسيطرين على سياسة العالم، الذين لم يتركوا مجالًا إلّا كان لهم فيه باع طويل، من علم وفلسفة، وخصوصًا السينما،

فكانت هوليوود لهم مرتعًا خصبًا. لم يعتمدوا فقط على النهب والسلب والغشّ والخداع وقوّة السلاح، بل سخّروا حنكتهم الفكريّة في كلّ وسيلة يستطيعون فيها ترويض الرأي العامّ العالميّ لمصلحتهم. ولذلك تكون مهمّتكم السينمائيّة في مواجهة ذلك مهمّة صعبة شجاعة، لكنّها تستحقّ كلّ هِمَمِكم.

إنّها مهمّة تتعلّق ببقعة من أهمّ بقع الجغرافيا والتاريخ، ويكفي أن تكون مدينة القدس دليلًا على ذلك. وهي دليل على عالميّة المسألة الفلسطينيّة، لخصوصيّتها لدى بلايين البشر. ولا ينكر ذلك إلّا الجاهل أو المتجاهل. ويبدو أنّ بعض الجاهلين، أو على الأغلب المتجاهلين، لا يريد أن يكون أقرب إلى صلب المسألة. المسألة الفلسطينيّة مسألة شاميّة بامتياز، لا تنفصل عن الكيانات اللبنانيّة والأردنيّة والسوريّة، فمصير هذه المنطقة متعلّق بمصير فلسطين.

مهمّتكم عسيرة، لكنّكم أثبتّم أنّها غير مستحيلة. وفي بعض الحالات شاركت معكم جهات غربيّة، مثل مخرج من بريطانيا. وهذا في حدّ ذاته انتصار آخر في تثبيت عالميّة هذه المسألة. نتمنّى لهذا الزخم أن يستمر.

أنا الشاميّ الذي زار كثيرًا من بلاد العالم، حين سنحت لي الفرصة مرّة، منذ أكثر من أربعين عامًا، لزيارة القدس، وهي مدينة ذات مكانة خاصّة في ذهني، بل وطني الذهنيّ منذ نعومة أظفاري، رفضت الزيارة، وآليت على نفسي أن لا أزورها إلّا وهي محرّرة.

أنا أيضًا أنتظر العودة.

نعيم خوري:
ذاتٌ تفيض بالضوء

يقول نعيم:

وأجمل الضوء ما فاضت به ذاتي

هذه هي الجملة التي اختتم بها نعيم قصيدَتَه "صديقي الضوء" التي تصدّرت مجموعته "صوت من الضفّة الأخرى". أذكرها، بداية، لأنّي أرى معظم شعره ونثره أضواء من فيض ذاته. وهي بهذا المعنى، برأيي، الأجمل لأنّها مرآة صادقة أرادها نعيم أن تفي بأحاسيسه المرهفة المفعمة بالحبّ والوفاء. أراد أن يؤكّد لنا ذلك. ولو لم يفعل، لكنّا استنتجنا ذلك دون عناء على أيّ حال.

لقد قضى نعيم على الموت حين قال "**حين يكون الموت حياة، يفقد الموت معناه.**" والقضيّة ليست في أنّه مجرّد قال ذلك "فلسفةً"، بل أرى أنّ نعيم هو نعيم في حياته وموته. إنّه ذلك الإرث الذي تركه نابضًا بكلّ زفرات الحياة، ومستمرًّا معنا بزخمه، فلا يبقى من المعاني إلّا تلك الناطقة بالروح الأزليّ.

حين استحْضَرَ نعيم خوري شموخ صنّين في مجموعته "قال صنّين"، عام 1986، قال عن هذا الجبل الرمز:

أنا منه قلبٌ يطوف على الدنيا / وزندٌ مشمّرٌ بنّاءُ

وهو في بِعاده عنه يعتبر نفسه في سجن غريب يغنّي للمواعيد، ويخاطبه قائلًا:

أنت في كلّ شهقة من حنيني
و انتمائي لك انتماءٌ أصيلُ

ويقول:

أنا في البعد أستشفُّ هواك
فتضيق الدنى، ويدنو البعاد

يعبّر عن استيائه ممّا أصاب وطنه الأصل، وتتجلّى في كلماته ثورة متأجّجة ضد الاحتلال والعدوان الصهيونيّ، بل إنّ في سطورهِ مخطوطةً لمقاومة فكريّة وقودها المعاناة ممّا أصاب تلك البلاد التي استقرّت في ضلوعه:

ربّ بيروتَ في الضلوع استقرّت
و أفاقت على هدير المحابر

هذه المقاومة لا تقتصر في مواجهتها على المعتدي، بل أيضًا على المتخاذل والفاسد والمتاجر بمقدّرات البلاد من بني قومه.

نسمع بين السطور صرخاته مدوّية، ومع ذلك تنساب بأسلوب رقيق: أسلوب الشاعر الحقّ الذي ولد من رحم هذا

الوطن، وهو الذي أكّد أنّه شاعر لأنّه من هذا الوطن. فمع كلّ المعاناة، يبيّن لنا كيف يخطر الوطن على باله:

مرّكالحلم خاطفًا ورقيقًا،
في خيالي، وثارفيه العتابُ
نغمةُ الحبّ في عروقه تغلي،
والهناءاتُ والشذا، والرضابُ

تعرفت إلى نعيم خوري حين التقيته مرّتين، لا أكثر، عند صديق مشترك. كان هادئًا قليلَ الكلام كثيرَ التدخين. سبق أن مضى على رحيل زوجته عدّة سنين. ونعلم كم كانت علاقته بها وطيدة.

لم تمهله الحياة كثيرًا بعد مقابلتي له، فرحل. ولم أتمكّن من بناء صداقة معه، لكنّ آثاره التي تركها هي من أجمل أصدقائي.

كان رحيلُه أثناء إعدادي، في شهر أيّار عام 2000، العدد الثاني من "كلمات" الذي أدخلتُ فيه بعضَ أبيات نعيم، ومن بينها مختارات من قصيدة "إلى سمراء"، وجدتها منشورة في جريدة الشرق، ووردت مؤخّرًا في ديوان "انكسار الظلال" الذي نشرته "الجذور" عام 2021، وهي من أحبِّ أبياته إلى قلبي.

لي في جُفُونِك أسرارٌمعتقةٌ، لا تذبحيها، فإن الحبّ أسرارُ
ما زال حبُّك، من عينيك، يحمله منذ افترقنا، إلى الشفتين، تذكار
إن تنقشي الليل في وجهي بلا قمرٍفكلّ حبّة صوتٍ منك أقمار

في كلّ شمس لنا دنيا متيّمةٌ، لخصرها الريح، والسموات زُنّار
مِدي جناحيك في هبّات نشوتنا ما دام في دمنا للنار أمطار
ولا تقولي انتهى التاريخ من زمنٍ، نحن النُدَوّر تاريخًا فيندار

نلاحظ في كثير من أعماله، وعلى مدى السنين بعد وفاتها، استرجاعًا لذكرى حبيبته الزوجة اللبنانيّة-الأستراليّة التي شاركته مسيرة حياته وكانت السبب في وجوده في أستراليا أصلًا، بعد أن كانت في زيارة إلى بطرّامِ بلدتِه اللبنانيّة، فتزوّجا وترك بلده لبنان التي سبق لأنظمتها السياسيّة والقضائيّة أن سجنته وعذّبته ظلمًا بسبب توجّهاته التي لا تنسجم معها.

يقول في "البطاقة الأخيرة" وهي من مجموعته "وكيف يزعل القمر" (1995):

كلّما ينزاح يومٌ
أو تطوف الشمس في شفتيك
أحلامًا ودفئًا،
صرت في حبّك أكبرْ
لو تغيب الشمس عن وجهي،
أنت يا شمسَ عيوني،
حبُّك الشمسُ و أكثرْ

صدرت مجموعته "وكيف يزعل القمر" بعد سنتين من وفاة زوجته، ونجد أنّ الإهداء جاء "إلى من كانت أجمل ما في الحياة وأحلى ما في الحبّ".

يستمرّ استحضاره لذكرى زوجته سنين بعد وفاتها، حتّى لكأنّ بعض ما يكتب يأتي مستوحىً من هذه المشاعر. يقول في قصيدته "عندما ينتهي الكلام"، المكتوبة عام 1998:

ألا ليتهم يعلمون / بأنّك أنت معي،
في كلّ همسة جفنٍ، / في كلّ رفّة حرف،
في كلّ ليل، / وكلّ نهارٍ، / وكلّ صباحْ.

ويبدأ نشيده الأوّل من مجموعة "صمت على شاطئ العاصفة" (1993) قائلًا:

أزور قبرَك، والآلام تعصِرني،
وفي يدي من الأزهار أغمارُ

على تُرابِك، يا روحي، يفيض دمي
ويركع القلب، والأعصاب تنهار

وفي دموعي رسالاتٌ يفلفشها،
من احتراقي عليك، الحبُّ والنارُ

أرشّ صوتي على الدنيا، يهزهزها،
فمي الزوابعُ ... والشفتان إعصارُ

وأتوقّف عند هذه الأبيات لأغراضٍ ليس مجرّد كونِها استذكارًا لحبيبةٍ رحلت. في اعتقادي أنّ هذه الأبيات تحدّد لنا مزايا شعر نعيم التي نجدها في كلّ وجوه أعماله.

لفت نظري اعتناءُه الدائم بالتنقيط المفيد الصحيح، وهذا أمر لا يعتني به معظم الشعراء العرب برأيي. فعلى سبيل المثال، في السطر الأوّل، وضع فاصلة بعد "قبرك" وأخرى بعد "تعصرني". فهو يزور القبر وفي يده أغمار من الأزهار، ولكنّ الجملة المعترضة هنا هي "والآلام تعصرني". وضعها في الموضع الصحيح فأعطاها قيمتها الخاصّة المنفردة للتأكيد المتميّز عليها، ثم تابع في السياق.

ونلاحظ الشيء عينه في السطر الثاني حين يضع "يا روحي" بين فاصلتين. فنحن حين نتوقّف قليلًا بفعل الفاصلة الأولى بعد "ترابك"، ثمّ مرّة أخرى بعد لفظ "يا روحي"، نكون نميّز "يا روحي" بمكانتها الخاصّة التي تستحقّ.

بعبارة أخرى، أرى أنّ للتنقيط الصحيح مدلولات لغويّة وجماليّة ضروريّة تفيدنا في القراءة والإلقاء. وهي، إن صحّ التشبيه الموسيقيّ، تأتي كأنّها ربع النوتة التي تضيف بعدًا على اللحن، وتعطيه ميّزاته الشرقيّة.

أمّا اللغة التي يستعملها نعيم فتكسر الحدود بين الفصيح والمحكيّ. مثلًا "يفلفشها" التي تعود لأصول سريانيّة، وتستعمل في اللهجة المحكيّة لتدل على "البعثرة"، جاءت هنا تعكس نوعًا من النزق والتوتّر الناتج عن الحرقة والتلوّي بين الحبّ والنار. وكذلك "الأعصاب تنهار"، و"احتراقي عليك"، و"أرشّ"، و"يهزهزها"، و"الزوابع". كلّ هذه كلمات ترد كثيرًا في لغتنا المحكيّة لتعبّر عن أحاسيس حميمة، يستخدمها لغة فصيحة لا غبار عليها.

صحيح أنّ هذه الأبيات مصنّفةٌ ضمن الشعر التقليديّ، لكن كما قال جوزيف بو ملحم عن شعر نعيم: "وإذا بشعره التقليديّ – شكلًا وقالبًا – يتشاوف على الشعر الحديث فحوى ومعاناة." ولكنّي هنا أحبّ أن أقول إنّ شعر نعيم هو في الواقع شعر حديث حتّى لو لبس رداء ما نسمّيه الشعر التقليديّ. هذا ينطبق خصوصًا على حقبة الثمانينيّات وما بعدها.

شعر نعيم فيه من الموسيقا الداخليّة ما يطغى على الشكل. وبهذا يصبح اللبوس ثانويًّا، فكم من شعر تقليديّ لا يحوي سوى الوزن والقافية ويخلو من أهمّ مقوّمات الشعر. قوّة نعيم في أنّه مقتدر في الأوزان والقوافي، ولكنّه أكثر قدرة على تسخيرها في سبيل الغاية الحقيقيّة، لا الوسيلة الاستعراضيّة. أي أنّه يتخطّى مجرّد النظم الذي يستخدمه كثيرون لمجرد اعتقادهم أنّهم شعراء. يماثلهم أولئك العاجزون عن النظم التقليديّ فيهاجمونه بحجّة الحداثة لتبرير أعمالهم التي لا ترقى حتّى إلى النثر الجيّد. آن الأوان لننظر إلى الشعر خارج حدود تلك القيود المضلّلة التي نخترعها لمصالحنا الشخصيّة. وتجربة نعيم مثال يحتذى كدليل على ذلك.

نشر عام 1998 مجموعة "هناك كان وطني"، تألّفت من أربع قصائد كلاسيكيّة طويلة، لكنّها مثال جيّد على غنى الحداثة والموسيقا الداخليّة في شعره الموزون المقفّى. يقول في قصيدة "كمشة فرح":

أنا كلّي زوابعٌ تزرع الكونَ / وكلّي على الربيعِ جنونُ

طاف في لهفة السنابلِ صوتي / فاستفاقت رؤى، وهامتْ جفونُ
أنت فيها شعرٌرقيقٌ، يغنّي، / وتر اتيلُ صبوةٍ، وفتونُ
أيّها الشبلُ، يا إضاءةَ سيفٍ / أنت حلم العيونِ، أنت العيونُ

ومن قصيدة "سيف النار" يقول:

من آخر الدنيا أتيتكَ، في دمي، / وطنٌ ... إذا ارتعش الهوا يزدانُ
وكأنّ قلبي لا يزال على الرُبى / أسطورةً، ولباسها الأجفان

وقصيدة "وطني كان هناك"، التي حمل الكتاب شبيه عنوانها، جاءت سلسلة من النقد الأخلاقيّ والسلوكيّ المحمّل بالنصائح من محيط الفرد الضيّق إلى مدى الكوكب الأرضيّ في شرقه وغربه.

في تأكيده على ضرورة التعاون الإنسانيّ، يقول:

فلولا الشرق ماكانت أماسي، / ولولا الغرب ما كنّا ضَحينا
ستبقى الأرض واحدةً، و إنّا / سنبقى واحدًا أنّى حَيينا

يخصّص في مجموعته "صوت من الضفّة الأخرى" (1996)، قصيدتان من الوفاء والحبّ: واحدة لأبيه، وواحدة لأمّه. يقول في قصيدة "أبي":

إنّي أرفرف في عينيه / طيرَ ندى، / وهو، على العين، / طيفٌ لست أنساه

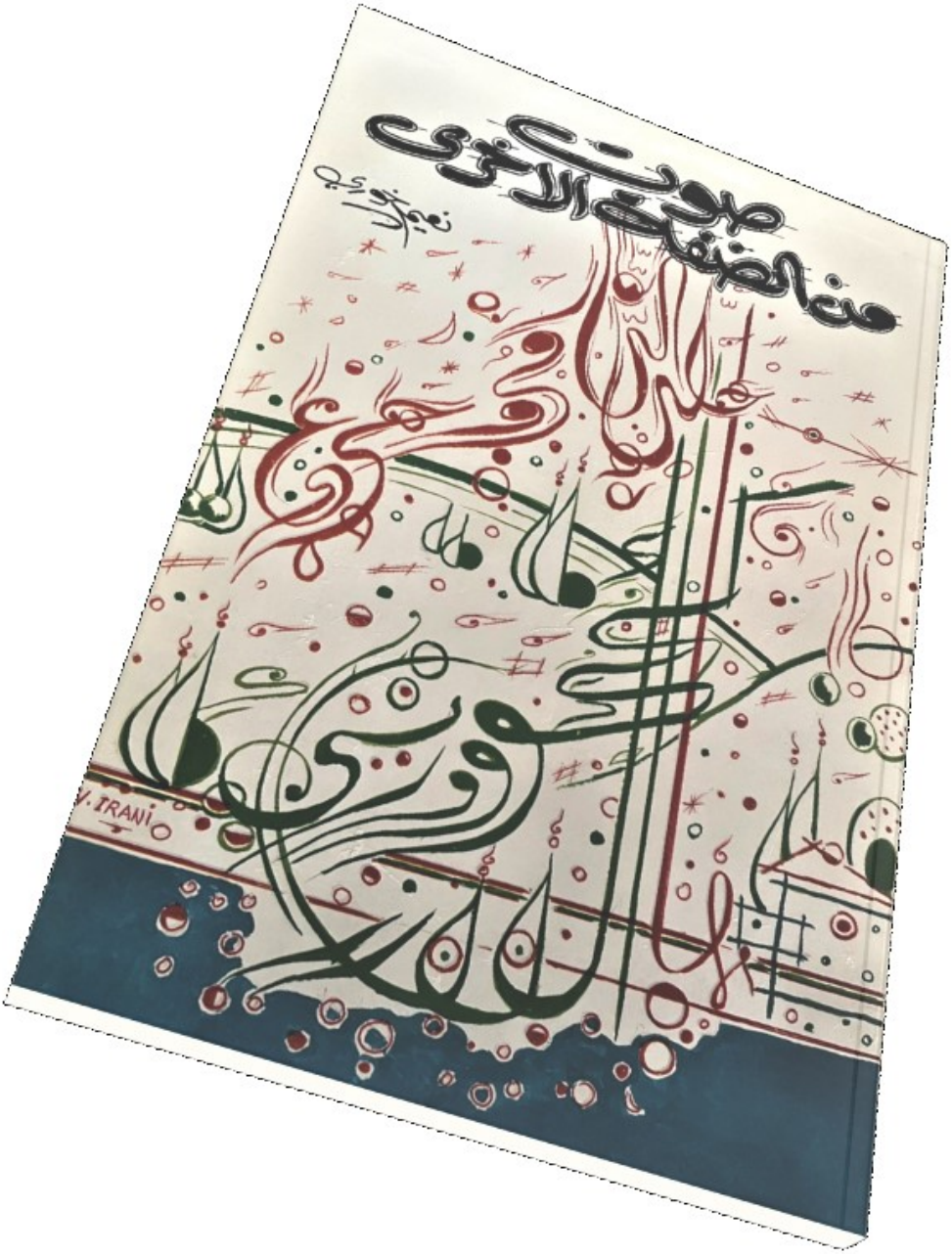
V. TRANI

هذي عصاه، / وهذا ظلّ جُبّتِهِ، / على الجدار، / وعُرفُ العطر جفناهُ

ترقرق الدمع من عينيه، / و انفرطَتْ، على يديَّ، / نجيماتٍ، / شكاواهُ

وإذا افتقدتُ أبي، / بكيتُ غيابَه، / ما كان أدناهُ، / أو كان / أقصاه

فلأنّ في ذكرى الحبيب / هواجسًا / لا / ليس يفهمها، / في الحبّ، / إلّاه

هل كنت أقرأُ، / في عينيه، / ما كتبتْ أسطورةُ الحبّ، / أو أحكي مزاياه

وهل يكون أبي وجهًا؟ / وهل قرأت أمّي، / عليه، / ما كنت أخشاه؟

أبي الحبيب، / عرَفتُ الكون، / في يده، / بحرًا من الضوء / ما أبهى محيّاه

ويقول في قصيدة "أمّي":

ما زلت أبحث، / في رياض دفاتري، / عن سوسنٍ / في خدّها يندادُ

عن ستّة كانوا / رغيف همومها، / أتراهمُ، / كبروا هنا؟ / أم راحوا؟

أمّي / إذا سكر النبيذ، / فإنّما، ببهاء عينيها، / له أقداحُ

حبّه ووفاؤه لبلدته بطرّام تجلّى في تخصيصه مقدّمة نثريّة، لمجموعته "صوت من الضفّة الأخرى"، تحمل عنوان "إلى بطرّام ... بلدتي". ويقول في قصيدة "أحلى الكلمات" من المجموعة نفسها:

وطبعت، في هذا التراب، / حقيقتي، / فإليكَ، / يا أغلى التراب، / سلامي
سبحانَهُ، / من في السماء، / كأنّما نام الإلهُ، / وقام في (بْطِرّامِ)

وخصّ بيروت بقصيدة في مجموعته "شاطئ النار" (1998)، يقول فيها:

بيروت يا أحلى العرائس كلّها، / شاخ الزمان / ولا تشيخ وتتعبُ
موَّجتُ شَعرَكِ / في شواطئ لهفتي، / فإذا الشواطئ / في دمي تتطيَّبُ
وطلعتُ صوبَ الشمس، / أطَّلبُ السما، / فإذا السما انتِ، / و أنت المطلبُ

ولم يغفل عن محاسن بلاده الجديدة، أستراليا، خصوصًا ما يتعلّق بالجمال الطبيعيّ الذي يستطيع تصويره بالكلمات وكأنّه يلتقط بواسطة عدسة سينمائيّة راقية. كتب عن "جزيرة فريزر" يقول:

حدَّثتني، / في لهفة، / سلحفاة، / وأشارتْ / أنِ الصباحُ / تشقشَقْ
وعلى ثغره، الأزاهرُ/ غنَّتْ، وعبيرُ الدقائقِ الخُضرِ/ زقزَقْ
فإذا الأفقُ كوكبٌ، / يتهادى بيلسانًا، / على الهضابِ، / وزنبقْ
وإذا موكب التلالِ / حكايا، كالأساطيرِ / بالأناقة تعبَقْ. لا تهمهمْ ...
بعض الأفاعي استراحت، / من مرايا ظلالها، / تتورَّقْ
فتجاوزْ أفكارَها، فهي أوفى من أفاعي الفردوسِ،/ أو هي أشفَقْ.
"فرايزر أيلند" / على أصابع حبّي، / شَعرُها الأجعدُ / الشقيُّ تزحلَقْ
وتمشَّت جفونُها، / فوق صدري، / كخيال النساءِ، / يحكي ... فيُعشَقْ

هذه البراعة الفائقة في وصف الطبيعة وعواملها تظهر جليّة في قصيدة "الدقّارين"، من مجموعته "صوت من الضفّة الأخرى"، التي وصفها الأستاذ كامل المرّ على أنّها "مغناة وجدانيّة جديدة للشاعر نعيم خوري". و"الدقّارين" لفظة يخصّص لها نعيم في آخر الكتاب ما يقارب الصفحة من الشرح المهمّ. وأهمّ مدلولاتها أنّها تشير إلى الخُصب، لكنّ "الدقّارين" هو اسم منطقة معيّنة في بلدته "بطرّام".

يتناول في القصيدة عددًا من النباتات المتنوّعة، فيستخدمها في التعبير عن وجدانه وانطباعاته. فلا تفلت منه الورود، والإزدَرَخت، والجُلَّنار، والسمّاق، والأعناب، والسفرجل،

والسنديان، والزيتون. يحبكها، وغيرها، في نسيج تحدّد رسومه مشاعره وعوامل الفصول الأربعة، وتضاريس الأرض التي يعشق تربتها. يقول مثلًا:

يمّمْتُ وجهي / في السفوح، / وفي الذرى، / وعلى كروم التين، / والعنَّابِ
وإلى السهولِ، / السابحاتِ سنابلًا، / ذهبيّة الأعطافِ، / والألبابِ
صوبَ الدقّارينِ، / المجلّل صخرُهُ، / بالكبرياء، / وصمتِه الخلّابِ
يَنْدى هوا الإجَّاصِ، / حول خصورِهِ، / وأظافر العُلّيقِ / واللَّبلابِ
وبخور مريمَ، / لا يليق بغيره، / والصعترُ الريحانُ، / ذو الشرّابِ
وشقائقُ النعمانِ، / كم من سهرةٍ، / أثنى على نفثاتها، / إعجابي

هذا الشاعر الشفّاف، المحبّ للطبيعة، صاحب الشعور المرهف، قويّ صامد بما يتحلّى به من مُثل. ومنها احترامه للمرأة وإيمانه بحرّيتها. ها هو يكتب على لسانها في قصيدة "تقول لي"، فيقول:

يعجبني فيكَ أن تغارْ، / وتفهم الأشياء في طفولتي، / أن تزرع النجوم في أنوثتي،

أن تخلط الليل والنهارْ، / لكنّك، / يا فارسي الصغيرْ/ ترفضني أن أبتهي، وأن أطيرْ
و أنا العصفورةُ التي، حرّرتني ... / وعدتَ من جديدْ / تسلبُني حريّتي،
إن كنتَ، يا فارسي الصغيرْ، / تختار لي حظيرةَ العبيد، / فابحث لك عن دميةٍ تحبّها،
لأنّني / عصفورةٌ لا تعشق الحديدْ.

يحترم المقاومة اللبنانيّة في تصدّيها للعدوان الصهيونيّ على لبنان، ويبغض المتخاذلين. جاء نشيده "جنون الريح" من مجموعة "صوت من الضفّة الأخرى" متفاعلًا مع مجزرة قانا الأولى في جنوب لبنان عام 1996. يقول:

لا ... / لن يمرّسلامُهم، / وجنوبنا / تنهرُّفوق تر ابه الأقدارُ
يا موئل الأحرار، / عطرُتر ابِهِ لهبٌ، / وفوحُ نزيفِهِ أنوارُ
للعار، / في نَسغِ الخيانةِ، / دورُهُ، / والمجدِ، / في طلب العلى، / أدوارُ
بطَلَ الجنوبِ، / أنا الشمالُ، / يهزّني، في العمقِ، / مجدُ كفاحِكَ النوَّارُ

هذه الروح المقاوِمة متجذّرة في وعي نعيم، وتعود إلى أيّام شبابه، متأثّرة بتعاليم أنطون سعادة، وهو الذي كان منخرطًا في الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ. في مجموعته "البطولة المؤمنة"، الصادرة عام 1953، وهي من المجموعات التي أعاد الدكتور أبو

سالم نشرها بعد أن كانت مهدّدة بالاندثار، نجد أنّه يستشهد كثيرًا بأقوال "المعلّم"، كما كان يُشار إلى الزعيم أنطون سعادة. وفي تلك المجموعة نجد فلسطين موضوعًا رئيسًا، تمامًا كما كانت بالنسبة للزعيم سعادة التي وضعها في أولويّات قضاياه وهو ينادي باهمّيّة سوريا الطبيعيّة. ونعيم خوري في كلّ تعاطيه مع القضايا الوطنيّة يتحدّث عن العدوّ الخارجي، ولا ينسى أعداء الداخل الذين يشكّلون أكبر الخطر على القضيّة. وكما نعلم، ما قاله عام 1953 يمكن قوله في يومنا هذا بالحرف الواحد. يقول في تلك المجموعة:

فيهودُنا نوعان – مغتصب وآخر مفسد
والأوّل الباكي على طلل الدعارة يرقد
والآخر الشاكي على سرج الخيانة يرصد
فيبيع بالدولار ما تسقي النفوس وتحصد

ثم يتحدّث عن آفة الطائفيّة مبتدءًا بالقول:

الطائفيّة ظلّ أحلام العِدى إن يهتدوا / هي صنع الاستعمار إن شاؤوا وأن يتأكّدوا

وينهي المجموعة بقصيدة يخصّ بها فلسطين، يكرّر فيها مأساة النفوس المتخاذلة فيقول:

لو كان في هذي النفوس ضمائرٌ تتحرّر
لو كان في تيك الصدور كرامة تتأثّر

لو كان في تلك الجسوم هياكلٌ تتبلور
لرأت فلسطينَ الجريح بجوعها تتضوّر

يتصدّى نعيم للنفاق والتخاذل. يقول في قصيدته "الثلج الأسود"، من مجموعة "صوت من الضفّة الأخرى":

شاءت زمرةٌ / خنقَ الزمانِ، / وزرعَه أصناما
فتلبسّتْ / ثوب الدفاع عن الحمى، / زورًا، / وعارًا صارخًا، / وحِمَاما
واستوردتْ نَسَغَ الخيانةِ، / والزنى، / وعمالةَ الإرهابِ، / والإجراما
والناس، بين مضلَّلٍ، / ومضلِّلٍ، / فقدوا الصوابَ، / وأوغلوا استسلاما

يشن في قصيدته "مطر أزرق" (من مجموعة شاطئ النار) حملة على التخلّف، فيقول:

نتذكّر مملكة الآبِ، / نتقاسمها شبرًا شبرًا، / وندمّر مملكة الحبِّ،
ونقولُ / بأنّ الله يراضي البعضْ / ونقولُ / بأنّ اللهَ يقاضي البعضْ
ونقولُ / بأنَ الحبَّ معاصٍ / أوكفرٌ بالله، / وأهل الأرضْ
ونكابرُ / عكس تطوّرِنا، / ونبالغُ / ضدَّ تغيّرنا، / ونشدُّ على السيفِ، / المشهور ليذبحنا.

يا ناصعة الثوبِ الأبيضْ، / حتَّامَ يدوم تخلُّفُنا؟ / ومتى؟ / ومتى؟ / ومتى نهضْ؟

حتّى الدعابة في أعمال نعيم تتوفّر برصانة وبلاغة، لأنّها تأتي في قلب أفكار جادّة. يقول في "يا ذلّ الإنسان من الإنسان" من مجموعة "شاطئ النار":

وحدي ... في زاوية الملهى، / في عتمة أحلامي، / أبصرُ قدّامي / عاريّةً
ترقص في ظلّ الضوضاءْ / تتمايلُ فوق المسرحْ، / فكأنَّ العُهْرَ تلبَّسها،
والوغدَ الوحشَ تمسَّحْ / ليزمزم فيها الأعضاءْ،
ترنّحُ مثل مجنّحةٍ / قذفتها في البحر الأنواءْ

وفي "لو كنتَ رجلًا"، من المجموعة عينها، يقول على لسان من تخاطبه:

يا قلبي / أستحلي / تنساب إلى صدري / يدُكَ الملساءُ تناغشني وتداعبني / وتهزهز في صدري الأحلام.

ولنلاحظ هنا استمرار استعماله لكلمات بسيطة مألوفة، لكنّها تفي بعمق المعنى المطلوب.

تتجلّى الصفات الإنسانيّة والتخاريج الموسيقيّة في مجموعةٍ أطلق عليها نعيم عنوان "هي الدنيا"، والتي أبصرت

النور بفضل جهود الصديق الدكتور عليّ أبو سالم فنشرها مؤخّرًا من طريق مؤسّسته "الجذور" (2021).

نعم يا نعيم: هي الدنيا! الدنيا التي أثقلت عليك فوَهَبْتها حبّك الذي صببته نثرًا وشعرًا، وفق معزوفات من موسيقاك الداخليّة بين سطور كلّ ما كتبت. تلخّص لنا كلّ هذا في سطرين إذ تقول:

ما أروعَ الشعرَ، حين الشعرُيكتبني
على يديهِ، فيحكي في يدي الحجرُ

ويؤكّد لنا ذلك في مقدّمته لمجموعته "انكسار الظلال" (الجذور 2021):

لا أكتب الشعر، ولا أدعوه إليَّ. إنَّما هو يكتبني ...

إذن أنت تحتفل بالروعة حين يكون الشعر كاتبك. وحين تسلّم له نفسك، يرى فيك رواية الروايات: تندمجان في كلّ واحد! وطبعًا سيحكي الحجر في يدك، ويكون لأصابعك قيثارة تصوغ لحن الخلود.

بل هذه المجموعة صندوق طرب لألحان عديدة، تبدأ العزف حين نبدأ القراءة. تنطلق بوقار، وتستمرّ طافية في أبعاد الزمان والمكان، كأنّها الموسيقا التصويريّة التي هي أساس العرض، لا العنصر المساند له.

ننتهي من قراءة المجموعة، لكنّ الموسيقا تستمرّ في أرواحنا. مرّة أخرى تَصْدُق في توصيف ما أنجزت:

لا تقولوا مضى... فكلُّ جمالٍ / نَقَشَتْهُ الحياةُ في صَفَحَاتي.

لا يا نعيم: لن نقول "مضى"!

وشكرًا على هذا الاستمرار في نقش الكلمات على الصفحات التي يتبناها الدكتور أبو سالم. فبالإضافة إلى "هي الدنيا"، و"انكسار الظلال"، نشرت مؤسّسة الجذور عام 2022 "الأشجار اليابسة تسرق النجوم"، "ومضات في دفتر التكوين"، "أضواء مبعثرة" (نثر)، "لا تسألوني" (نثر)، "مفكّرة الأيّام الأخيرة" (نثر).

كيف لا، ونعيم يقدّس الكلمة حدّ المجرّات؟ يختم ديوانه "من كلّ أفق نجمة" (1988)، قائلًا:

أيّتها الكلمة، / يا حبيبةً لا تموت، / في قدسيّتك أستودعُ أبهى نجومِ الحياة.

والعلاقة الوثيقة بين الكلمة وتدوينها تظهر في أكثر من مكان، منها قوله في قصيدة "النهر" من مجموعة "الأشجار اليابسة تسرق النجوم":

قالوا بكيتِ مذ قرأتِ دفاتري،
فبحثتُ عنكِ في دموعِ محابري

وعصرتُ أيّامي، وحينَ جمعتُها
أكلَ الزمانُ أصابعي وأظافري

ومشى اللهيبُ على يديَّ مزقزقًا
كالجدولِ المترقرقِ المتواترِ

المجموعة الأولى التي صدرت بعد وفاته حملت عنوان "صور في مرايا الشمس"، وتمّ نشرها بإشراف رابطة إحياء التراث العربيّ في أستراليا عام 2001.

يقول في قصيدة "ريحةُ شمس" من تلك المجموعة:

لِديني: كما تلِدُ الأمّهاتْ، / طفلًا، على شفتيهِ، / صباحٌ جديدٌ، وحلمٌ جديدْ
وحطّي، على جانحيّ، / التفاتَ المدى إلى قمر / تفتّح فيه الزمانُ البعيدْ
لماذا نلومُ الذي كان، / وصار وأمسى، / ونحن امتدادٌ تصوَّرَ فيه الوجودْ
ونحن المشاهدُ، / قامت عليها الحياةُ، / ونحن ابتكرنا معاني الخلودْ؟

أمّا تلك الأبيات التي كانت "تكتبه" وهو قيد المعالجة، فنجد فيها خطابًا وجدانيًا مع خفقان القلب وأوراق تأمّلاته، وهو يكمل

طريقه، عالمًا أنّها ربّما تكون آخر الخطوات. يقول في "وجوه ضاحكة وكرسي الكيموثيرابي"، من مجموعته "انكسار الظلال":

مازحتُ قلبي، فلم يقبلْ ممازحتي،
فقلتُ يا قلبُ، حانَ الآنَ نتَّفِقُ

كفى نطوفُ حقولًا لستَ تعهدُها،
ولستُ أعرفُ لو ضلَّت بنا الطُّرُقُ

أُنْظُرْ إلى رئتيكَ، في يمناهما غَبَشٌ
أعيا الضياءُ به، واخشوشَبَ الأَلَقُ

وتحسَّس اليسرى، ففي خفقاتِها
قمرٌ أبحّ، ونجمٌ كادَ يختَنِقُ

فمالَ عنّي كأَنْ في نبرتي قلقٌ،
وفي ظلالِ يديهِ يمَّحي القَلَقُ

أغمضتُ عيني، وتابعتُ الخطى. وجعي
كُتُبُ الطريقِ، وأحلامي هي الورقُ

نعيم خوري إنسان تكامليّ ذو فلسفة واقعيّة تنسجم مع المألوف. حين يتحدّث عن الموت أخاله يتحدّث عن الحياة. يقول في "كلام صاخب في زمن الصمت" (من مجموعة شاطئ النار):

أخطأتُ كثيرًا، / تُبتُ كثيرًا، / أحببتُ كثيرًا، / متُّ كثيرًا، / لكنّ الموت تلاشت قبضتهُ،
وانهارت جدران الوقتِ / كبلورٍ مغروزٍ في دنيا، كانت، / وستبقى همَّ الإنسانِ،
وهمَّ الأغصان، / وهمَّ رنين السنواتِ.
الموت ثلاثة أصنافٍ: / صنفٌ صار ترابًا، / والآخر صار هواءً، / والثالث لم يولد بعدُ،
فكأنّ اللابدَّ العاتي / لغزٌ مسحورٌ / يسكن في بال السمواتِ.

نعم يا نعيم! "اللابدّ العاتي" فككت سحره فتدفّق علينا سيلًا من طيب عطائك ليسكن في بالنا، ويحيي فينا ما مات من دفء المشاعر، بوميض الضوء الذي تألّق في حياتك، ولا زال يتألّق بعد موتك. الضوء الذي يفيض من ذاتك: أجمّلُ الضوء.

وهو الضوء الذي يستمرّ بفضل من يعمل بوصيّتك حين قلت: "**العتمة فاحمة ... فلنكن الفجر الذي يسحقها.**" وكم جميل أن نرى في علي أبو سالم، ومؤسّسته "الجذور"، ومن يؤازرهما ذلك الفجر الذي أوصيت به.

نهاد شبّوع:
هموم الزوارق التي لا تعود

السيّارة التي استأجرتها، مع سائقها، في جولاتي بين دمشق واللاذقيّة وحمص، كانت في ذلك اليوم تقلّني من اللاذقيّة إلى حمص، لأقوم بزيارة أعتبرتها محطّة هامّة وعزيزة أقوم بها لأوّل مرّة إلى "بيت المغترب"، مقرّ "رابطة أصدقاء المغتربين". استيقظت باكرًا في اللاذقيّة، وانطلقنا في السابعة صباحًا باتجاه حمص.

"آب اللّهاب"، كما نقول في سوريا عن هذا الشهر الصيفيّ. الحرّ الشديد، رغم المكيّف، والسهر الطويل مع الأصدقاء في اللاذقيّة، بعد غياب طويل، جعلني أشعر بحاجة للرّاحة قبل مواجهة من سأراهم لأوّل مرّة. طلبت من السائق التوقّف لأنتقل للخلف، وآخذ قسطًا من النوم على غير عادتي أثناء النهار. جلست وحاولت بصعوبة ربط حزام الأمان. قال السائق إنّه لا أحد يستعمله، بل إنّه لم يُستعمل منذ استلم السيّارة من سنوات عديدة. استسلمت لغفوة غير كاملة.

قبل حمص بحوالي ربع ساعة، طلبت من السائق التوقّف لأعود إلى جانبه. وهنا كانت المفاجأة! حين رفعت حزام الأمان عن قميصي الأبيض، الصيفيّ الناصع، وجدت خطًّا عريضًا

أسود منطبعًا عليه. وحرت في أمري، كيف سأواجه مضيفيني على هذا الشكل، وكلّ ما معي من ثياب يحتاج لغسيل على اعتبار أنّي عائد في المساء إلى دمشق مركز إقامتي. قال السائق إنّه يعرف متجرًا محترمًا يمكنني منه أن أشتري قميصًا جديدًا. وهكذا كان. المتجر كان يضاهي أيّ مثيل له في أستراليا أو أوروبا من حيث الترتيب والبضائع. لم أتوقّع ذلك. المهمّ أنّني الآن في قميص جديد أنيق، يليق بمن سألقاهم.

استقبال الأديبة نهاد، رئيسة الرابطة، ولفيف من أعضاء الرابطة لي، كان يثلج الصدر بالحفاوة واللطف، واتضح لي فورًا أنّ هذه التجربة التي تخوضها الرابطة مميّزة جدًّا.

يعود الفضل في تعرّفي إلى الأديبة نهاد شبّوع، ورابطة أصدقاء المغتربين في حمص إلى الصديق سميح كرامي، ابن حمص، المقيم في سيدني حيث أقيم. وهو من رفقاء دربي في تأسيس مجلّة "كلمات". ويمكن قراءة المزيد عن ذلك في مقالتي "كلمات حول تجربتي مع كلمات" (ص254 من الكتاب الحاليّ).

أشار عليّ الصديق سميح وقتها أن أتصل بالأديبة نهاد، بعد أن شرح لي ما تقوم به من خلال رابطة أصدقاء المغتربين. وهكذا كان.

اتصالي مع الأديبة نهاد تحوّل إلى تواصل ودّيّ ومفيد حتّى آخر لحظة في حياتها. على الصعيد الشخصيّ، كنت أرى في معاملتها كلّ مقوّمات الرقيّ، والودّ، والاحترام، والصداقة. وعلى صعيد العمل، كنت أرى تصميمها الدائم على دفع التواصل الثقافيّ والاجتماعيّ لأعلى مستوياته بين "المغتربين" ووطنهم الأمّ.

ويبدو أنّها كرّست حياتها والرابطة التي ترأستها لهذا الغرض، فجمعت حولها نخبة من المفكّرين والأدباء والفنّانين والباحثين والأكاديميّين تتشاور وتتعاون معهم. وكان بيت الرابطة في حمص كأنّه بيت الأهل يعود إليه المرء بكلّ شغف وعرفان.

أُعجِبَتْ كثيرًا بمجلّة "كلمات" التي كنت أصدرها بين عامي 2000 و2006، وصارت الأديبة نهاد واحدة من مستشارينا في بلاد الشام. وتبادلنا كثيرًا من الآراء حول التحرير والنشر والطباعة. وأعلمتني عن رغبتها في إصدار مجلّة للرابطة. وكان العدد الأوّل من "السنونو" عام 2002، وترأست الأديبة نهاد تحريرها مع هيئة تحرير راقية، وهيئة للترجمة، وهيئة للإشراف الفنّي. وكان لي شرف أن أكون عضوًا في الهيئة الاستشاريّة.

كتب الراحل يوسف الحاجّ في العدد الأوّل من "السنونو"، ضمن فقرة "ضيوف بيت المغترب"، عن زيارتي إلى بيت الرابطة في حمص، يوم الرابع من آب 2002، وعن استقبالي من قبل رئيسة الرابطة، ولفيف من أديبات وأدباء حمص وفنّانيها، وأعضاء الرابطة. وأسبغ عليّ من لطفه وكرمه جميل الكلام. بيد أنّ الرائع في كلّ هذا أنّني شعرت بين الجمع أنّني في بيتي، وأنّ كلّ واحد من الحضور يمكن أن يكون صديقي.

ألمح يوسف في كلمته على إمكانيّة زيارتي لبيت المغترب مرّة أخرى قبل أن أغادر دمشق عائدًا إلى سيدني، رغبة منه في ذلك. وهذا ما يعكس تلك الحفاوة والمودّة والطيبة التي لمستها في أهل بيت المغترب.

نوّه يوسف في كلمته بموعد مقابلة لي على الفضائيّة السوريّة يوم 2002/8/11، وكيف أنّه لن يستطيع مشاهدتها يومها، ولا في اليوم التالي، بسبب انقطاع التيّار الكهربائيّ. وهذا ممّا كانت تعاني منه البلاد حتّى في ذلك الوقت.

العلاقة بين "كلمات" ورابطة أصدقاء المغتربين مكّنتني من التعرّف إلى بعض أعضائها من الأدباء والفنّانين (سواء بلقاء شخصيّ، أو المراسلة بقصد النشر في "كلمات"، أو الترجمة) من مثل بسّام جبيلي، دعد طويل قنواتي، وفاء خرما،سميرة رباحية طرابلسي، عبد المعين الملوحي، عبد الخالق حموي، شجاع الفهد، رغد بيطار، ندى السلامة، نزيه أبو عفش، وغيرهم ممّن يمكن أن كان حاضرًا يوم زيارتي، ولم تسمح لي الظروف بالتعرّف أكثر، أو أنّ الذاكرة خانتني مع مرور الأيّام، فعذرًا.

نشرت الأديبة نهاد شبّوع قصيدة بعنوان "أيلول" في العدد السادس من "كلمات"، حزيران 2001. كما نشرنا لها قصيدة "زورق لم يعد" في العدد الثاني عشر من "كلمات"، كانون الأوّل 2002. في هذه القصيدة نقرأ نهاد "الأمّ" التي تفتقد أولادها المهاجرين في كلّ أصقاع الأرض، وهي تخاطب الزورق الذي ذهب ولم يعد. تبتدئ القصيدة بقولها:

وحلمْتُ أن الزورقَ المقذوفَ من جور الرياحْ
فلكي المضعضع من ضياع الشطّ من فقد الصباحْ
قد أسلمته موجة لحنانها لثمتْ جراحْ ...
غسلت بأدمعها ضياعًا مدّت الأيدي جناحْ

ثم تقول في مقطع آخر:

ويسـيرُ زورقنا وتطويه متاهاتُ الشـطوطْ
وتمور مهجتنا تقطّع من أمانينا خيوطْ
وتهيم ماخرةً هي الأخرى بحارًا من قنوطْ
وتلوب تبحث عن دروب الركب في داجي الخطوطْ

ولقد اخترت هذين المقطعين لأبيّن روعة تصويرها لـ"آليّة" المشكلة في المعاناة بخوض غمار الموج والابتعاد إلى المجهول، وكيف تنسحب أمانينا خيوطًا تتبدّد في رحلة العذاب. الهمّ الاغترابيّ كان جزءًا من كينونتها.

نشرت "كلمات" أيضًا ليوسف الحاج، دعد طويل قنواتي، بسّام جبيلي، نزيه أبو عفش، عبد الخالق الحموي، سوزان إبراهيم، وفاء خرما، عبد الكريم الناعم، سميرة رباحية طرابلسي.

بعد حوالي سنتين عدت في زيارة مع زوجتي، واستُقبلنا بحفاوة كبيرة في مقرّ الرابطة، ثم دعينا إلى أحد المنتزهات.

هذه المرّة استعملنا وسائل النقل العام، ولم تتعرّض ثياب أيّ منّا لما تعرّض له قميصي في الزيارة السابقة. ولكن مثل المرّة الماضية، حدث شيء قُبيل الزيارة. ولقد وصفت ذلك في قطعة "زيارة" في الكتاب الحاليّ (ص110).

صار تواصلي صعبًا مع الأديبة نهاد بعد اندلاع العنف في سوريا، وخراب مدينتها حمص، واضطرارها إلى الانتقال إلى

بيروت. كنت أعتمد على الهاتف فأتّصل بها من سيدني. وكانت تردّ بالبريد الإلكترونيّ بمساعدة أقربائها. رسائلها كانت مفعمة بمحبّتها وإنسانيّتها وتحسّرها على ما حلّ في وطنها.

ومثلما فُجعتُ قبلًا بوفاة يوسف الحاجّ، ودعد طويل قنواتي، وبسّام جبيلي (وأتمنّى أن لا يكون غيرهم ممن ليس لي بأمرهم علم)، وصلني نبأ وفاة الأديبة الإنسانة الرائدة نهاد شبّوع، التي تركت وراءها إرثًا هامًّا يقوم الآن من خَلَفَها على حفظه وصونه.

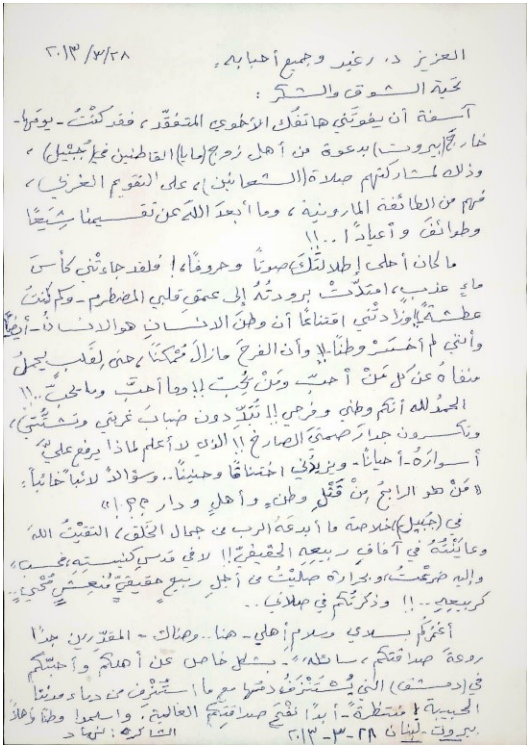

٢٠١٣/٣/٢٨ العزيز د. رغيد وجميع أحبابه،
تحية الشوق والشكر:
آسفة أن يفوتني هاتفك الأخوي المتفقّد، فقد كنتُ - يومها - خارج (بيروت) بدعوة من أهل زوج (مايا) القاطنين في (جبيل)، وذلك لمشاركتهم صلاة (الشعانين) على التقويم الغربي، فهم من الطائفة المارونية، وما أبعدَ الله عن تقسيمنا شيعًا وطوائفَ وأعيادًا..!!
ما كان أحلى إطلالتكَ صوتًا وحروفًا! فلقد جاءتني كأسَ ماءٍ عذبٍ، امتدّتْ برودتُهُ إلى عمقِ قلبي المضطرم - وكم كنتُ عطشة! وزادتني اقتناعًا أن وطنَ الإنسانِ هو الإنسانُ - أيضًا - وأنني لم أخسرْ وطنًا - إلا وأن الفرحَ ما زالَ ممكنًا، حتى لقلبٍ يحملُ منفاهُ عن كلِّ مَنْ أحبّ ومَنْ يُحبّ إلا وما أحبّ وما يحبّ..!!
الحمدُ لله أنكم وطني وفرحي!! تُبدّدون ضبابَ غربتي وتشتّتي، وتكسرون جدارَ صمتيَ الصارخ!! الذي لا أعلم لماذا يرفع عليّ أسوارَهُ - أحيانًا - ويزيدُني اختناقًا وحنينًا.. وسؤالٌ لا ينبأ خائبًا: «مَنْ هو الرابحُ مِنْ قتلِ وطنٍ، وأهلٍ ودار؟؟!!»
في (جبيل) خلاصة ما أبدعه الرب من جمال الخلق، التقيتُ اللهَ وعاينتُهُ في آفاقِ ربيعِهِ الحقيقي!! لا في قدسِ كنيستِهِ، ومسّ، وإليه ضرعتُ، وبحرارة صلّيتُ من أجلِ ربيعٍ حقيقيٍّ ننعشُ فيه كربيعه..!! وذكرتُكم في صلاتي..
أعمّكم بسلامي وسلام أهلي - هنا.. وهناك - المقدّرين جدًا روعةَ صداقتكم، رسائله، بشكل خاص عن أهلكم وأحبتكم في (دمشق) التي يُستنزفُ دمُها مع ما يُستنزف من دماء مدننا الحبيبة! منتظرةً - أبدًا نفحَ صداقتكم العالية. واسلموا وطنًا وأهلًا
بيروت - لبنان ٢٨-٣-٢٠١٣ الشاكرة: نهاد

صورة عن رسالة من رسائل الأديبة نهاد شبّوع إلى رغيد النحّاس

بطرس العنداري:
كلمة صغيرة في رجل كبير

بطرس العنداري صديق لا يفارق الفكر ذكراه، ولا يخلو القلب من سحر نجواه. تعرّفت إليه ونَمَتْ صداقتنا بسرعة البرق. كان رفيقًا في مشوار الكتابة والتحرير، ونديمًا في علاقاتنا الاجتماعيّة. حسن المعشر، ويعرف كيف يتعامل مع الجميع.

على مائدة سمرنا كنا نفرش أطباقًا من السياسة، والفكر، والأدب، والموسيقا، والفكاهة. توافَقْنَا في الذوق على أمور، واختلفنا على أمور. لكنّ المشاركة في كلا الحالين كانت ممتعة أصيلة.

كان بطرس عضوًا في حزب البعث العربيّ الاشتراكيّ – الجناح العراقيّ. وهذا هو التباين الكبير بيني وبينه، فأنا لا أنتمي إلى أيّ حزب أو عقيدة. ولم يكن هذا ليشكّل أيّ عقبة في صداقتنا. كنت أحترم دفاعه الدائم عن العراق، وكانت انتقاداته للنظام السوريّ لا تضايقني بحدّ ذاتها، وإنّما ما كان يضايقني هو أنّه لم يكن يوجّه للنظام العراقيّ الانتقادات عينها حين يكون النظام العراقيّ غارقًا في موبقات تماثل، بل تزيد عن موبقات النظام السوريّ.

جمَعَنَا اتجاه فكريّ عامّ حدّده إيماننا بالكرامة الإنسانيّة، والعدالة الاجتماعيّة، والحريّة. وقرّب بيننا تواصله ودعمه لمشروعي في إصدار مجلّة "كلمات" بين عامي 2000 – 2006. ولقد تناولتُ جوانب علاقتنا في مقالة بعنوان "آه ... أبو زياد"، نُشرت في الصحف العربيّة، وفي كتابي "طلٌّ وشَرَر" (منشورات كلمات، 2013)، استذكرته بها بعد وفاته، وسلّطت بعض الضوء على فكره من خلال كتاباته في زاوية "كي لا ننسى" التي تحوّلت إلى كتاب يسجّل أهمّ ما اقترن مع كنية "أبو زياد"، بطرس العنداري.

في كتاباته تلك يحضُّ على التعالي عن الأنانيّة والحقد، لأنّ هذا هو السبيل إلى بلوغ الدرجات الأولى من الرقيّ الحضاريّ. ويُعْلِمنا أنّه رجل يفضّل التعامل مع شخص متمسّك بعقيدة يكرهها، على التعامل مع شخص تقيّ مجامل. وأنّه يعتبر العقل العربيّ عقلًا إلغائيًّا لا يعترف بالآخر، وأنّ الأميّة هي في الممارسات وليست في وجود نسبة كبيرة ممّن يجهل القراءة والكتابة. ويركّز على ضرورة العمل المؤسّساتي لتقدّم الجالية العربيّة في أستراليا.

من جملة انتقاداته للعرب، يشرح كيف يطلب العرب العطف والتأييد العالميّ لقضاياهم، بينما لا يسعون إلى احتضان شخصيّات تخدم الحقيقة، لمجرّد كونهم من اليهود. مثلًا، لا يقوم بعض الحكّام بدعوة هؤلاء المنصفين لأنّهم يريدون الظهور أمام مواطنيهم أنّهم لا يتعاملون معهم. وهذا طبعًا دليل على سطحيّة في تحليل الأمور، وغياب للموضوعيّة.

ومن أكثر ما أعجبني في نظرته للأمور، تأكيده على أنّ الثقافة الأنكلوسكسونيّة هي الركيزة الأساس للمجتمع الأستراليّ، وأنّ التعدّديّة الثقافيّة تُغني هذه الثقافة وتمدّها "بأفاق ومفاهيم جديدة". ويؤكّد على أنّ فهمنا لهذه الحقيقة هو ما يساعد أكثر على تغيير وجهة نظر الرافضين لمجتمع أستراليّ متعدّد الثقافات والعادات.

هذه النظرة الواقعيّة لحياتنا في أستراليا يفتقر إليها كثير من أفراد الجاليات المختلفة. وفي أسوأ الحالات يمارس البعض ما يمكن تسميته "تمييزًا عنصريًا معاكسًا". ويصل الحدّ إلى فئات تطالب بتحويل أستراليا إلى دولة تطبّق عقيدتهم رغم قلّة عددهم، ووصولهم الحديث إلى هذه البلاد.

إذن أرى أنّ هنالك جرأة وصراحة في التعاطي، وهذا من أهمّ أسباب تقديري لبطرس، وصداقتي معه التي وصلت إلى قمّتها بسرعة كبيرة. لم يتفوّق عليها سوى الموت الذي أخذ منّا هذا الرجل الراقي، وقصّر عمر تآخينا.

بطرس من الرعيل الأوّل بالنسبة للصحافة العربيّة في أستراليا كما نعرفها. ترأس تحرير "التلغراف" ثم أسّس مع أنطوان مارون وأسعد الخوري جريدة "النهار". لكنّني لغرض هذه المقالة، أركّز على "الشرق" التي ترأّس بطرس تحريرها، والتي صدر العدد الأوّل منها يوم الأربعاء 14 نيسان 1999.

كانت جريدة أسبوعيّة، لم تستمرّ سوى سنوات قليلة. أنا أعتبرها أفضل جريدة عربيّة ظهرت على الساحة الأستراليّة من الناحيّة الفكريّة والقيمة الأدبيّة. وعلى الرغم من خبرة بطرس

علي العتر
تصليح فيديو تلفزيون ومايكروويف
٢٠ سنة خبرة في خدمتكم
Shop 9 No. 12 Restwell St.
Bankstown
Tel: 9790 8799
Mob: 0417252022

الشرق

The Orient

40 Pages
٤٠ صفحة

Suite 5 – 473 Marrickville Road, DULWICH HILL, NSW, 2203
Tel: (02) 9572 8488 • Fax: (02) 9572 8477

Price $1.50

Issue No. 1 Wednesday April 14, 1999 — تصدر كل أربعاء — العدد الأول الأربعاء ١٤ نيسان (أبريل) ١٩٩٩

FILPURE
ان تلوث المياه يشكل خطرا عليكم وعلى أطفالكم
فيلبيور تنقذكم بتأمين الفيلتر المضمون
Tel: 9724 2177

الحريري: هل يمثل امام المحقق ام يعتزل ويغادر الى الخارج؟

صفحة ٣

العداء الاسترالي للقضايا العربية خلال ٥٠ عاما من ايفات ومنـــزيس الى ريتشارد بتلر

كتب محرر "الشرق" السياسي:

منذ اليوم الاول لبدء العدوان الاميركي – الاطلسي على يوغوسلافيا بالصواريخ والطائرات وسائر الاسلحة الفتاكة اعربت حكومة استراليا عن دعمها المطلق للعدوان الساخر غير عابئة بوجود اكثر من نصف مليون يوغوسلافي يعيشون في هذه البلاد ويحملون جنسيتها فيما يتعرض ذووهم للابادة بسبب رفض القيادة اليوغوسلافية ادخال قوات برية الى اقليم كوسوفو لفصله عن الوطن الام وفرض حكومة عميلة كما جرى في البوسنة والهرسك قبل عامين.

وقد ايدت المعارضة العمالية العدوان ايضا كما استجابت الحكومة الاسترالية بسرعة لرغبة اميركية فارسلت البارجة الضخمة ملبورن الى الخليج العربي لتشارك الاساطيل الاميركية باحكام الحصار على العراق ومنع ادخال اي مواد غذائية او ادوية بحجة مراقبة ادخال السلاح المحظور.

واعلنت وزارة الدفاع الاسترالية بكل وقاحة انها ترسل البارجة لتفسح المجال امام اساطيل اميركا لتركز على قصف وتدمير المواقع اليوغوسلافية.. كذلك اعربت استراليا فيما بعد عن استعدادها للمشاركة بضرب يوغوسلافيا دعما للعدوان الاوروبي – الاميركي.

ومنذ عدة أسابيع ثار غضب وزير خارجية استراليا الكسندر داونر عندما اعلن العراق ان مواطنين أستراليين منحوا الجنسية الاسرائيلية ثم استعملوا كمخبرين وجواسيس لدخول الأراضي العراقية بجوازات سفر مزورة أمنتها لجنة نزع أسلحة الدمار الشامل التي كلفتها الامم المتحدة واسندت رئاستها الى الاسترالي ريتشارد باتلر خلفا لرالف ايكيوس السويدي الذي تخلى عن جنسيته واختار الجنسية الاميركية بعد انتهاء مهمته معترفا بالعمالة لواشنطن ومخابراتها كما فعل خلفه.

ولكن الوزير الاسترالي لم ينف دخول مواطنين استراليين العراق بجوازات مزورة لانه غير قادر على النفي بل اكتفى بالاستهجان والاستغراب والغضب واطلاق عبارة Outrageous.

وما فعله داونر لم يكن مستغربا ولا جديدا لان الحكومات الاسترالية وقفت ضد القضايا العربية دون استثناء منذ اكثر من نصف قرن بسبب الارتباط السياسي والتبعية لكل من بريطانيا والولايات المتحدة.

فعندما قامت دولة اسرائيل كان وزير خارجية استراليا الدكتور هربرت ايفات رئيسا للجمعية العمومية للامم المتحدة (١٩٤٧ – ١٩٤٨) وكان شديد الحماس للتصويت على منح الصهاينة حق الاستيطان في

التتمة على الصفحة ٣٦

ريتشارد باتلر: عميل اميركي بدون مرسوم

اسرائيل قررت انسحابا جزئيا من لبنان

اعلنت الحكومة الاسرائيلية انها قررت تخفيض عدد وحداتها العسكرية المتمركزة في الجنوب اللبناني منذ العام ١٩٧٨ الى اقل من النصف. واكدت المصادر ان الانسحاب سيبدأ تدريجيا دون ان يؤثر على الاوضاع القائمة.

وقد ذكرت صحيفة "دافار" الاسرائيلية ان قرار حكومة نتنياهو يعود لاسباب انتخابية استجابة لرغبة الاكثرية الاسرائيلية كما دلت استفتاءات الرأي التي جرت خلال الحملة الانتخابية.

وذكرت الصحيفة ان حكومة نتنياهو قررت تكثيف طلعاتها الجوية ومواصلة القصف اليومي لمواقع المقاومة اللبنانية. وكانت الحكومة الاسرائيلية اعربت عن استعدادها للانسحاب من جنوب لبنان واجراء ترتيبات امنية مع الحكم اللبناني الذي رفض اي ترتيبات شروط مؤكدا على التزامه بمسار المفاوضات السورية – الاسرائيلية وبالقرار ٤٢٥ الصادر منذ ٢١ عاما.

ولم يصدر اي تعليق لبناني او

عودة الى الميدان..

بقلم: أنطوان مارون

مع اطلالة هذا العدد من "الشرق" نوجه تحية صداقة ومودة الى قرائنا الاعزاء والى جميع ابناء الشرق واصدقاء الشرقيين في هذا المهجر.

لا شك ان بعضكم سيتساءل، والجالية العربية تكاد تغرق بالصحف من كل شكل ولون، لماذا نحتاج الى صحيفة اخرى؟

هذا بالطبع سؤال وجيه وله ما يبرره في نظر الكثيرين. ولكن الذين يتابعون الصحف والصحافة في هذه البلاد يعرفون ان "الشرق" ليست في الواقع بصحيفة جديدة فلقد اصدرناها للمرة الاولى في اواخر السبعينات، وتوقفت عن الصدور في مطلع الثمانينات لاسباب لا مجال

بو تفليقة رئيسا جديدا للجزائر

• عبد العزيز بو تفليقة •

تجري الانتخابات الرئاسية في الجزائر غدا الخميس حيث يتنافس سبعة من المرشحين ابرزهم السيد عبد العزيز بو تفليقة وزير الخارجية الاسبق خلال عهدي بن بلا وبو مدين.

ويتلقى بو تفليقة دعما من الجيش الجزائري ومن ابرز قادته اللواء خالد نزار.

وتعيش الجزائر حالة من

فتح حوار مع الاسلاميين المتطرفين.

ويرجح ان احمد طالب الابراهيمي ومحمود حروش هما الاكثر شعبية بعد بو تفليقة البالغ من العمر ٦٦ عاما.

وقد نشأ بو تفليقة مع الجيل الاول من قادة جبهة التحرير الوطني التي قادت حرب التحرير ضد الاستعمار الفرنسي منذ مطلع الخمسينات.

شركة المحاماة الكبرى
كارول اوداي
CARROLL & O'DEA
SOLICITORS
١٠٠ عام في خدمة القانون
و ٣٥ عاما في خدمة الجالية اللبنانية والعربية

الطويلة في تأسيس الصحف والعمل الصحفيّ، التي سبقت هذا الإصدار، جاء في العدد الأوّل، بتوقيع "الشرق"، دعوة إلى القرّاء اعتبار ذلك العدد "العدد صفر". وفيها نقرأ: "كنّا نعتقد وما زلنا، ويعتقد معنا الكثيرون بأنّ العدد الأوّل لأيّ صحيفة أو مجلّة يجب أن يكون غنيًا بالموادّ أنيقًا وملفتًا للنظر لأنّه المؤشّر الأوّل على نجاح أو فشل المطبوعة. ولكنّ أسرة 'الشرق' خبرت شيئًا جديدًا هو أنّ العدد الأوّل هو في الحقيقة العدد الصفر مهما تنوّعت موادّه ومهما تميّز بالزخم وبتعدّد الكتّاب الكفوئين." ثمّ نقرأ: " ... هو العدد الصفر لأنّه تجربة حيّة ولأنّ الخطوة الأولى التي يخطوها أيّ كائن تبقى قلقة ومتعثّرة مهما كان التصوّر ومهما كبرت النوايا والطموحات."

هذه هي الموضوعيّة، وهذا هو التواضع الذي ينضح من فكر "الشرق". كيف لا وأنا أعلم أنّه بالإضافة إلى "أبو زياد" كان الصديق المشترك أنطوان مارون يرأس مجلس إدارة المجلّة. أنطوان وبطرس كانا صديقي عمر، وكنّا الثلاثيّ الذي كنت فيه آخر القادمين، فأنا "الضيف" الذي تشرّف بصداقة هذين العملاقين الإنسانيّين.

بدأت أنا بإصدار مجلّة "كلمات" عام ألفين، فكان هناك تزامنًا بيننا. وحين رأيت النواحي الفكريّة والأدبيّة التي كانت "الشرق" تعنى بها، لم أعد مستغربًا لهفة بطرس ومؤازرته المعنويّة والماديّة لمجلّتي التي كانت دوريّة عالميّة للكتابة الخلّاقة بالعربيّة والإنكليزيّة.

صحيح أنّ الجرائد العربيّة في أستراليا تعتمد أساسًا على ما ينشر في جرائد بيروت وغيرها من المواقع العربيّة، لكنّ حسن انتقاء الموادّ وتنوّعها الذكيّ هو ما يميّز "الشرق" عن غيرها. هذا بالإضافة لبعض من كرّس كتاباته أو تقاريره خصيصًا لهذه الجريدة. كما اجتذب بطرس معه هيئة تحرير جيّدة، أعرف منهم هاني الترك الذي كان يكتب في الشؤون الأستراليّة، وشادية حجّار التي كانت تقدّم حوارات مع مختلف الشخصيّات. وكذلك ساهم فيها خيرة من كتب من عرب أستراليا أمثال نعيم خوري، وجورج الهاشم. ونتيجة لذلك، وبالإضافة لوظيفة "الشرق" الأساس كجريدة سياسيّة إخباريّة، وهي وظيفة كانت تقوم بها خير قيام، زوّدتنا الصفحات المنوّعة بمواضيع غاية في الأهمّيّة، ووفّرت لنا قراءة أعمال فكريّة وأدبيّة هامّة لأمثال أدونيس، محمّد الماغوط، نزار قبّاني، سميح القاسم، سعيد عقل، رجاء النقّاش، سعدي يوسف، نصر حامد أبو زيد، مطاع الصفديّ، الطيّب تيزينيّ، وغيرهم كثير، وكلّ ما يمكن أن يغني معرفة القارئ. وكذلك مذكّرات لشخصيّات سياسيّة وأدبيّة وعلميّة وفنّيّة. وأشهد أنّي رغم معرفتي المسبقة بكثير من هذه الأمور، إلّا أنّ عرضها في "الشرق" أغناني كثيرًا، سواء من حيث العودة إليها، أو من حيث استدراك ما فاتني منها.

وتحت عنوان "من أسبوع إلى أسبوع"، احتلّ بطرس صفحة كاملة كان يستعرض فيها بعض ما مرّ من أحداث، ويعلّق عليها، وفي كثير من الحالات يتجاوز تسليط الضوء على الملامح السطحيّة ليغوص في خفايا القضايا ليكشف عن

مكنوناتها. والأجمل من ذلك أنّه كان يسبغ عليها ما تيسّر له من دعابته بطريقة ذكيّة تهكّميّة.

ولغرض مقالتي الحاليّة قرّرت أن أختار عددًا من الأعداد المتوفّرة لديّ بشكل عشوائيّ لأشارك القارئ بانطباعاتي مباشرة. من الكومة التي أمامي، وهي مجموعة استعرتها من الصديق أنطوان مارون لغرض مشروع أقوم به، سحبت عددًا فكان العدد 72، بتاريخ 2000/08/30.

The Orient | 13 | Wednesday 30/8/2000

الشرق | ١٣ | الأربعاء ٣٠/٨/٢٠٠٠

من أسبوع إلى أسبوع

يكتبها بطرس عنداري

ايها اللبنانيون: انتخبوا الشيخ صبحي الطفيلي

مرت المرحلة الاولى من الانتخابات النيابية اللبنانية وبقيت الثانية للاحد القادم.

ان كل ما حملته المرحلة الاولى وما ستحمله المرحلة الثانية هو نفسه الذي شهده لبنان في الانتخابات السابقة اي صراع على النفوذ بين مجموعة الصف الواحد وخريجي المدرسة الواحدة ولهؤلاء اهداف واحدة هي الهاء الرأي العام وتخديره عن مشاكله الحقيقية واثارة الاحقاد السياسية بين الفئات التقليدية التي تشكل الاكثرية في لبنان.

استبدال عدة اوجه باشباه لها وحصر الجميع تحت سقف واحد والويل لمن يخرج عن الدائرة المرسومة حوله.

وحده الشيخ صبحي الطفيلي يستحق الذهاب الى اقلام الاقتراع والتصويت لمرشحيه لانه يرفض ان يرشح نفسه شخصيا ويعتبر ان مجلس ساحة النجمة لا يستحق عباءته السوداء.

وحده الشيخ صبحي الطفيلي يستحق ان يخوض المعركة الانتخابية للاسباب التالية:

١ - انه ملاحق ومطلوب من قبل الدولة اللبنانية وفق مذكرات توقيف بتهمة القتل والتحريض على العصيان ومخالفة القوانين.

٢ - رغم مذكرات الاعتقال والملاحقات نرى الشيخ صبحي الطفيلي يقود ثورة الجياع ويخطب في الساحات العامة ويبقى منزله محجا سياسيا مشرع الابواب.

٣ - توجه الشيخ الطفيلي على رأس وفد ضم اكثر من ٢٠٠ سيارة الى القرداحة حيث قدم التعازي الى الرئيس السوري الجديد بوفاة والده وهنأه بالمنصب السامي، ومواكبة الموكب كانت مؤمنة رسميا.

٤ - تمكن قائد ثورة الجياع من تشكيل لائحة مؤيدة له لتخوض الانتخابات النيابية

فلماذا لا تعترف بقوته وتقتطع له دويلة خاصة لها نوابها وحكومتها؟

٣ - اما اذا كان الطفيلي بريئا والدولة تشهر به ظلما وباتت غير قادرة على التراجع عن مواقفها فهذا يعطيه زخما اضافيا للحصول على التأييد.

٤ - واذا كان الطفيلي الذي تعرض لما تعرض له من تهم مختلفة منذ ان ابعد عن قيادة حزب الله وتمكن من البقاء العلني وتشكيل اللوائح الانتخابية فانه دون شك قوي او تحميه قوة خفية خارقة.. واذا كانت هذه القوة هي غير القوة الالهية فمن هي يا ترى؟

هل هي الفاتيكان ام الكرملين ام فورت نوكس؟

الالعاب الاولمبية والحضارة..

منذ اكثر من ١٤٠ سنة كتب المعلم بطرس البستاني مقالا عن الالعاب الاولمبية شرح فيه تاريخها واهدافها الرياضية وذلك قبل ان تبدأ دوراتها المتتالية منذ النصف الاول من القرن العشرين.

وقد راجعنا مؤخرا سجل العرب في الدورات الاولمبية طوال ثلاثة ارباع القرن وكان سجلا يدعو الى الاسى حيث لم تحرز الدول العربية مجتمعة خلال هذه السنوات ما احرزته استراليا خلال دورة عادية واحدة.

ان الرياضة مظهر حضاري وممارسة راقية. لقد مال العرب دائما الى المصارعة الحرة لانها تعبر عن كبت نفسي وحب للقوة والانتقام.

اما في العصر الحديث فقد بدأ العرب "شراء" الفرق الرياضية في مجالي كرة القدم وكرة السلة والتنافس في هذه المجالات التي لا مكان لها في الالعاب الاولمبية التي تقتصر على الهواة فقط.

خلال بطولة المونديال العالمي يتلهى العرب بالصراخ والمنافسة على تأييد فرق فرنسا او البرازيل او المانيا او ايطاليا وبات لكل فريق من فرق هذه الدول فئات عربية متحزبة له، والسبب لانهم لا يأملون بوصول اي فريق عربي

الى مرحلة البطولات النهائية.

ان الحصول على الميداليات الذهبية في دورات الاولمبياد دليل على المستوى الحضاري والدول التي تصل الى مرحلة الذهب دائما يعني انها بلغت عصرها الحضاري الذهبي.

ففي دورة سيدني القادمة يبدو ان المشاركين من الدول العربية على استعداد تام لحفلات الكوكتيل والاكتفاء بشرف المشاركة والحضور.

ونحن ننتظر المفاجآت من المغرب ومن المشرق.

العراق في مواجهة حصار الموت والابادة

— ٦٨ —

منذ انتهاء ما عرف بحرب الخليج الثانية والكويت تطالب باطلاق سراح اسراها التي تدعي ان ٥٠٠ منهم ما زالوا في العراق.

لقد اعلنت الكويت عن فقدان حوالي ٥٥٠ شخصا تقول ان العراق يحتجزهم كاسرى.

كذلك اعلن العراق عن فقدان ١١٥٠ شخصا يعتقد ان بعضهم محتجز لدى الكويتيين.

وقد تبنت معظم الدول العربية الدعوة الكويتية لاطلاق سراح الاسرى من الكويتيين من قبل العراق وتجاهلت هذه الدول كليا فقدان ١١٥٠ مواطنا عراقيا وكأن المفقودين الكويتيين من طينة انسانية تختلف عن الآخرين.

كذلك تبنت الولايات المتحدة وحلفاؤها الغربيين الادعاءات الكويتية ورفضت طلب العراق للبحث عن مفقوديه. وقد تطالب الولايات المتحدة خلال ايام قليلة العراق داخل مجلس الامن اعادة الاسرى الكويتيين بهدف افتعال ازمة جديدة تعرقل عملية انهاء الحصار ورفع العقوبات التي تطالب روسيا وفرنسا بانهائها فورا.

ان هذا التصرف الاميركي العدواني ليس بمستغرب لان الدولة التي يهمها استمرار سيطرتها على العالم ترى من

جاءت زاوية "من أسبوع إلى أسبوع" على الصفحة 13. وطالعتني العناوين التي كانت ثلاثة هذه المرّة: "أيّها اللبنانيّون: انتخبوا الشيخ صبحي الطفيلي"، "الألعاب الأولمبيّة والحضارة"، "العراق في مواجهة حصار الموت والإبادة".

يتناول بطرس مواضيع الساعة على تنوّعها، فيبدأ بوطنه الأصل لبنان، ويتهكّم على إجراءات الانتخابات اللبنانيّة، ويبين كيف أنّ الانتخابات لا تتغيّر من حيث كونها صراعًا على النفوذ حتّى بين مجموعة الصفّ الواحد، وكيف يتمّ "استبدال عدّة أوجه بأشباه لها ..." ثم يقترح أنّ الشيخ الطفيلي هو وحده من يستحقّ خوض المعركة الانتخابيّة لأنّه رغم ملاحقته "من قبل الدولة وفق مذكّرات توقيف بتهمة القتل والتحريض على العصيان ومخالفة القوانين ..." نراه "يقود ثورة الجياع، ويخطب في الساحات العامّة، ويبقى منزله محجًّا سياسيًّا مشرع الأبواب." ويعدّد وقائع أخرى، ثمّ يؤكّد دعوته لانتخاب الطفيلي لأنّه إذا كان الطفيلي "مذنبًا ويتمكّن من التصرّف بهذا الشكل العلنيّ فهذا يعني أنّه أقوى من الدولة ويستحقّ التأييد." ويستطرد: "إذا كانت الدولة عاجزة عن ملاحقته وتعتبره أقوى منها فلماذا لا تعترف بقوّته وتقتطع له دويلة خاصّة لها نوّابها وحكومتها؟" ويختتم بمقطع يتساءل فيما لو أنّه،رغم التُهم التي تعرّض إليها الطفيلي بعد إبعاده عن قيادة حزب الله، وتمكّنه من البقاء، هناك قوّة خارقة تحميه: "وإذا كانت هذه القوة هي غير القوّة الإلهيّة فمن هي يا ترى؟ هل هي الفاتيكان أم الكرملين أم فورت نوكس؟"

نلاحظ من هذا الاستعراض التهكميّ لمهزلة الانتخابات اللبنانيّة المتكرّرة، كيف أنّه يتناول بأسطر بسيطة أوجه تعقيد المسألة اللبنانيّة، بصراعاتها الداخليّة، وفساد القيّمين على الأمور، والتدخّلات الخارجيّة. وهو على كلّ حال يوجّه صفعة

قويّة إلى وجه الدولة اللبنانيّة العاجزة عن الإتيان بأيّ حركة أصلًا.

وتناوله الألعاب الأولمبيّة هو جزء من اهتمام الجريدة بالرياضة والشؤون الدوليّة. ولكن حين نقرأ ما يقول نرى أنّه يستغلّ هذه المناسبة في توجيه رسالة إلى العرب مفادها أنّه يجب عليهم عدم الاكتفاء بالتحزّب إلى فرق أو دول معيّنة، وإنّما لا بدّ من المشاركة الحقيقيّة ومحاولة إحراز الميداليّات، خصوصًا أنّ مراجعة "سجل العرب في الدورات الأولمبيّة طوال ثلاثة أرباع القرن ... يدعو للأسى حيث لم تحرز الدول العربيّة مجتمعة خلال هذه السنوات ما أحرزته أستراليا خلال دورة عاديّة واحدة." وينتهي إلى القول: "ففي دورة سيدني القادمة يبدو أنّ المشاركين من الدول العربيّة على استعداد تامّ لحفلات الكوكتيل والاكتفاء بشرف المشاركة والحضور."

أمّا حديثه عن العراق في مواجهة الحصار، والذي حمل الرقم 68، فهو جزء من سلسلة يتناول فيها مأساة هذا البلد والتمييز الذي يمارس ضدّه من قبل العالم والأشقّاء العرب. يقول مثلًا: "تبنّت معظم الدول العربيّة الدعوة الكويتيّة لإطلاق سراح الأسرى الكويتيّين من قبل العراق وتجاهلت هذه الدول كلّيًا فقدان 1150 مواطنًا عراقيًا وكأنّ المفقودين الكويتيّين من طينة إنسانيّة تختلف عن الآخرين."

ويكتب بذكاء عن موقف رجل دين لبنانيّ في هذا الخصوص فيقول: "ولكنّ أغرب ما قرأت عنه في هذا المجال كان عن دعاء رجل دين لبنانيّ بارز في مناسبة عامّة حيث تضرّع أمام

جمهور كبير أن يرسل الله الخير للعرب والمسلمين وينصرهم ويفرّج كرباتهم وهمومهم ويمنّ عليهم بإطلاق سراح الأسرى الكويتيّين الموجودين في العراق لأنّها مأساة كبرى يجب أن تنتهي ويعود هؤلاء إلى عائلاتهم. لم يشر رجل الدين البارز إلى المفقودين العراقيّين وإلى مأساة 22 مليون مواطن عراقيّ ووفاة مئات الألوف منهم من معاناة الحصار لأنّ هذه المسألة بنظره 'عاديّة' ... وقد برز عذر رجل الدين البارز في آخر دعائه عندما شكر شيخ الكويت على هديّته السخيّة ومأثرته الماديّة القيّمة."

لقد كرّر بطرس كلمة "البارز" ثلاث مرّات، وأشار في النهاية إلى "الهديّة" التي يتّضح من سياق الخطاب أنّ بطرس يقصد بها الرشوة في وضح النهار.

إذن كان بطرس صحافيًّا يؤدي وظيفته في تحريرِ ونقل الأحداث، ولكنّه كان دائمًا يتخطّى ذلك إلى تحليل المواقف بلمسات إنسانيّة لاذعة.

وكان بطرس إنسانًا يتميّز بمقام اجتماعيّ طليعيّ، ولكنّه كان دائمًا يتخطّى ذلك بتواضعه العميق فيحتلّ قلوب الأصدقاء والمعارف كسقوط الندى على وجنات البراعم.

مرّة أخرى أكتب عن بطرس العنداري. هذه المرّة تلبية لدعوة د. عليّ أبو سالم، رئيس مؤسّسة الجذور الثقافيّة، وتمّ نشرها في حينه في "الجذور"، العدد الرابع، كانون الأوّل 2021، ملبورن.

على "ضفاف انتماء" كاميليا

من كلمة الناشر، الدكتور رغيد النحّاس، في حفل إطلاق كتاب
"ضفاف الانتماء" للسيّدة كاميليا نعيم، 2020/09/20، سيدني.

أيّها السيّدات والسادة،

أمْثُل أمامكم بصفة مزدوَجة، ولكنّ ضفّتيها لا تتناقضان، بل تتكاملان. فأنا الناشر من ضفّة، ومن الضفّة الأخرى القارئُ الذي وقع في عشق كلمات كاميليا نعيم، وأدرك أهمّيّة نثر بتلاتها لننعم بها جميعًا. لذلك حين أقوم بهذا العمل، وعلى الرغم من محافظتي على حرفانيّة المراجعة والإنتاج، إنّما أرمي نفسي في نهرها الخالد الذي يلامس ضفّتيه ويجري من أجل ديمومة التعاون والعطاء: وأنْعم بالسباحة.

تكتب كاميليا بعفويّة. وإذا أضفنا تواضعَها إلى المعادلة، نعلم لماذا تردّدتْ في النشر حتّى الآن، رغم تشجيع المقرّبين وبعض الكتّاب والشعراء. ولهذا أعتبر نفسي رابحًا في حصولي على موافقتها على نشر أعمالها. أنا الذي طلبت إليها ذلك.

ولقد علّقتْ، بجملة أعتبرها من أجمل الهدايا التي تلقّيتها في حياتي، قائلة: "أشكر الأمواج التي رمت بي على شواطئ رعايتك واهتمامك."

وجوابي يا كاميليا أنّ الأمواج التي تشكرين إنّما هي الأمواج الصاخبة بنبض كلماتك، لدرجة أنّني حين أقرأ أيّ نصّ من نصوص "ضفاف الانتماء" أشعر برغبة كبيرة في تلاوته جهارًا. وهذا ما فعلت طيلة فترة مراجعتي للكتاب. ترنّمت بإيقاع الكلمات التي اصطفّت في جمل مسبوكة بألحان عميقة الصدى، فأتاني النصّ كأنّه عازف بارع يعرف كيف يحرّك أوتار مشاعري بحنان كبير، وأحيانًا يُحْدِث فيها زلزالًا يكاد يُقَطِّعها.

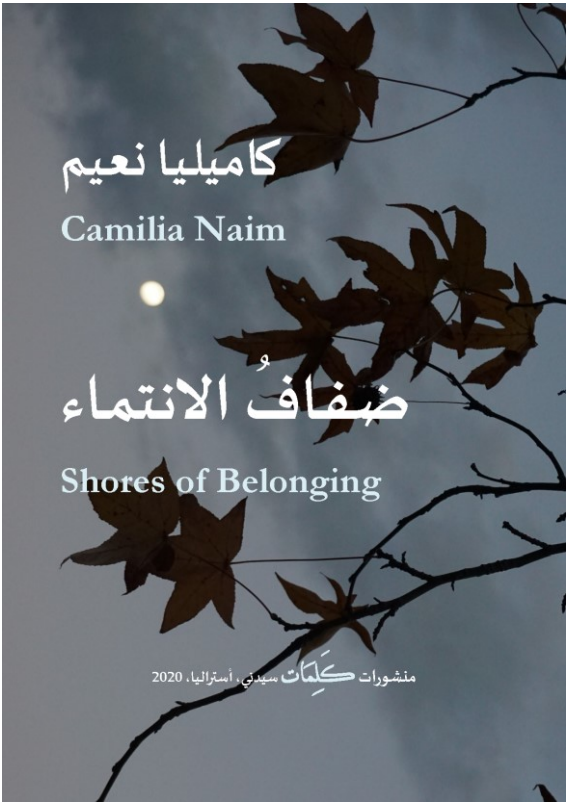

هذا على الرغم من النفحات الفلسفيّة النفسيّة الاجتماعيّة التي يعجّ الكتاب بها. وعلى سبيل المثال الأفكار التالية:

"خذني صافية كالنار."
"ما زلت هنا. لكنّني أقسم: لم أفارق هناك ..."
"وحدها تَقاطُع الأقدار تعلم معنى المسافة بين أنْ تقيم داخل الذات، أو أنْ تعبر منها."
"سئمت زحمة موت ... وندرة ولادة."
"أنت المُطفأ الذي لم يستشعر أصلًا وقود لهيب اليقظة. لن تقدر أنْ تقرأ كتاب امرأة تتجوّل بين سطور المعاناة. تمرّ عبر نقاط الدمع. تُحَوِّل صفحات التبعثر قصيدةَ حلم تسكُنُها. تخلق من أركان النَظْم نبض حياة."

لكنّني يا كاميليا قرأت كتابَك، وتجوّلت معك، ومررت عبر نقاط دمْعِك، وعشت روعة إبداعِك وتكوينِك ليدبّ في فكري نبضُ حياتِك. كلماتك ريّانة ناضجة طنّانة، لكنّها مفعمة بملامح البراءة الأصليّة من زمن الصدق الخالص. تقولين: "هذه الطفلة بداخلي تسكن حنايا الروح، تعانق وجداني، لا تريد المغادرة."

وهو زمن تنسبينه إلى الماضي الذي تحنّين إليه. لكنّي أنسبه إلى الأزل. إلى منطقة من الكون كان فيها الوعي قبل أنْ يكون الإنسان. إلى حيث كان الله.

أكاد أحار كيف لهذا الصفاء الواضح في المشاعر يخرج لنا صرخات منظّمة مدوّية، تضجّ في كيان تلقّينا، لنطير في فضاء الحكمة والجمال، فتكونُ النشوة عارمة.

ليست هذه آهات من ليس لها حول ولا قوّة. إنّها همومُ من يمتلك كنوزًا من الذكاء العاطفيّ. وهي "همومٌ" ليس لأنّها تبتلي صاحبتها فقط، بل لأنّ صاحبتها تحمل كثيرًا من أوجاع العالم في فؤادها، وتشعر بغزّة الأوغاد في خاصرتها.

تقولين: "لستُ معنيّة بغرق أحد. لن تقدر رياح الانهيارات في النفوس الوضيعة على المسّ بعلوّ الأحاسيس."

تأتي تعابيرك مسبوكة وكأنّها لملمت رموز "نوتة" موسيقيّة كامنة في وعيك، وفرشتها على الورق لوحة تعبيريّة غزيرة المشابك، تشدّ الوجدان إلى حضنها شدًّا. وهي تعابيرٌ فريدةٌ، في جمل مركّبة بانسياب يزيد من سلاستها الموسيقيّة، لتأتي المقاطعُ النثريّة فواصل من موشّحات شعريّة تكاد تملك عصرًا مميّزًا، كأنّه بتلةُ وردٍ ساقطةٍ من أيّام الأندلس.

تقولين: "أنتَ المسجّى على متن سطور الجدل والظنون؛ عصيّ عليك فكُّ رموزِ امرأة تختصر كلّ أوجهِ التحدّي بنظرة عتاب، ترسم على وجه الخِذلان بسمة الأمل بضبط الإيقاع بين ضجيج الوقت والصمت العميق."

وتخاطبين أمَّكِ: "أحتاج لملامسة روحِكِ، لمكان صغير قربَكِ بين دفّتي الحياة والموت. أستعيد من سكرات صمتِك الأبديّ حضنَك، ولو لبرهة من أمان."

وأنت في هذا كلّه صاحبُة "نفس طويل" تكتسبينه عمليًّا بعدّة طرق، مثلًا من استعمالك الناجح (وإن بشكل عفويّ) لـ"المضاف" الذي يتكرّر في كلمات عدّة تَصِفُ المضاف إليه. وهذه عمليّة خطرة لغويًّا لأنّ معظم من يستعملها قد يفشل في تركيب جملة مفهومة وأنيقة. تقولين كمثال بسيط: "نأتيهم قبل بزوغ فجر شمس العيد ..."

وتَمَكُّنُك هذا يُظهر لنا مقدرةً على السرد القصصيّ في بعض الحالات. قصّة كاملة في بضع سطور. تاريخ سرمديّ في هنيهات. هذا ما أسمّيه "النبض بالكلمات".

يرافقك هذا النبضُ مع أمواج الحياة التي ترميك إلى ضفافٍ مترامية الأطراف متناقضة الأهداف. تقولين: "حدِّثني ... عن قلبي ... الذي أسْكَنْتَه مرغمًا، على نقيض، ضِفّتَيْ السفر والعودة." لكنّها شواطئ من مدى أوطانٍ تتبنَّينها وتستوعبينها.

تقولين في رثاء أخيك الشهيد: "سلامٌ ... لتينِكِ العينين: حين أَغمَضَهُما عِشق الأرض، سكن في حدَقَيهما كلُّ الوطن."

العينان وطن ... وتسكن أوطانٌ كثيرة في مساحات العاطفة التي يَشْغَلُها فكرُك. وفي مفهوم انتمائك، يصبح كلٌّ من الأخ والأب والأمّ والابنةِ والحبيبِ والصديقِ ونبتةِ الطيّون وفنجانِ القهوة والماضي ... وطنًا يسكن فسيح جنانك المزركشة بحروف إبداعك.

حبُّك للأرض والحقّ والخيرِ، هو حبّ المناضِلة في سبيل قضيّة، المدافِعةِ عن حدودٍ تريدها عصيّة، الحارسةِ لماضٍ تراه أبيًّا.

ولا أجمل من وصف البروفسورة أميرة عيسى لك، من جملة ما وصفت، حين تقول: "المرأةُ ... العروبة، ذات المواقف، تَحمِلُ مفاتيح القدسِ، تَغتسلُ بصدئها، وتلعنُ العربان. إمرأةٌ تثور للإنسان، ولأطفالٍ في اليمن، ذاقوا الجوعَ والحرمان ... "

ويقول الشاعر العراقيّ-الأستراليّ خالد الحلّي في تعليقه حول الكتاب: "إن نصوص الكتاب، التي قد تبدو ظاهريًّا، أنّها تستوحي همًّا فرديًّا وتعبّر عنه، نجدها بنظرة متمعّنة تنطلق من الخاصّ إلى العامّ، فالهمّ الفرديّ يمكن أنْ يكون همًّا عامًا يرتبط بالآخرين، أو أنه جاء بسببهم. فإلى جانب النصوص الذاتيّة والوجدانيّة في الكتاب، نقرأ أيضًا نصوصًا كرّستها للتعبير عن هموم وطنيّة وقوميّة."

وأنا أقول يا كاميليا إنّ الحبّ ينضح من تعابيرِك التي تأتي صارخة بعاطفة موسيقيّة تملأ النفس حبورًا. ويتفتّح الأمل مهما كان ثمن الانتماء. تقولين: "حين أقيم على ضفاف انتمائي مثل نبتة بريّة، ألتمس التفتّح من شقوق الصخر. أراكَ سياجًا، مواسم اخضرار، وسواقيَ من الحنين."

نعم كاميليا ... صدقتِ إذ قلت: "الكلمةُ لا تسقط. يسقط من لا يجرؤ على بلوغ برّ الوفاء بها." وأشهد أنّي حاولت أنْ أكون بارًّا بكلماتك، وفيًّا لنبَضَاتِك، لأنّ البِرّ هو في ديمومة هذه اللغة العربيّة التي ساهمت يومًا في إنقاذ علوم البشريّة من طريق الترجمات والمؤلّفات، ولا زالت تبعث في نفوسنا بهجة من طريق الشعر والغناء، والنصوص الخيّرةِ العطاء، كتفتح أزهار الكاميليا التي ملأتنا دفئًا هذا الشتاء.

كاميليا نعيم: توظيف الأبعاد الإنسانيّة في الكتابة الخلّاقة

مقدّمة رغيد النحّاس لكتاب "شيءٌ يشبهني" للأديبة كاميليا نعيم

تتردّد أصداء القريّة الجنوبيّة في حجيرات قلب كاميليا نعيم لتحدث نبضًا متجدّدًا يضخ دماء الحداثة من شرايين الأصالة في جسد حمل معه هموم أهله ووطنه، عبر آلاف المسافات، إلى أقصى شرق العالم، وكأنّ روحه تبغي الشمس في منبعها.

ومع هذا تبقى الأصداء ملحّة، فلا مانع لدى كاميليا أن تأخذ ذاكرتُها "**غفوة تحت ظلال الأمس**". وحين يحمل إليها الغد متطلّباته، تحجبها بأنسجة غامضة "**كي لا يؤرقها التأمّل**".

إذن هي تعي أنّ "التأمّل" مفتاح للتغيير والانطلاق. وتعي ضمنًا أنّها مستعدّة له. فهذه الروح التي عانت عذابات الجسد وهمومه، لم تتخاذل بسببها في الارتقاء نحو قهر العقبات، والسموّ إلى المشاركة الإيجابيّة في معترك الفكر. هكذا يصبح للحياة معنى، وهكذا تنصقل الكتابة الخلّاقة.

هذا المزيج بين الماديّ والمعنويّ يتجلّى صنعةً بهيّةً في أسلوب كاميليا في "أنسنة" الجماد. وهي توظّف هذا الأسلوب بطريقة صارخة تأتي كمزيج "صحّيّ" بين الواقع والخيال، بل ربّما

لا يمكن التفريق بينهما. فنراها، مثلًا، تنفخ الروح في مقبض الباب حين "**تكتم صرير أنفاسه**" حتّى لا تقضّ مضجع ابنتها التي تصوّرَتها لا زالت نائمة في سريرها، ولم تغادر إلى بيت الزوجيّة. حتّى فراغ السرير صار له دموع يمسحها، وعيونٌ، حين رآها تقف مدهوشة لهذا الغياب.

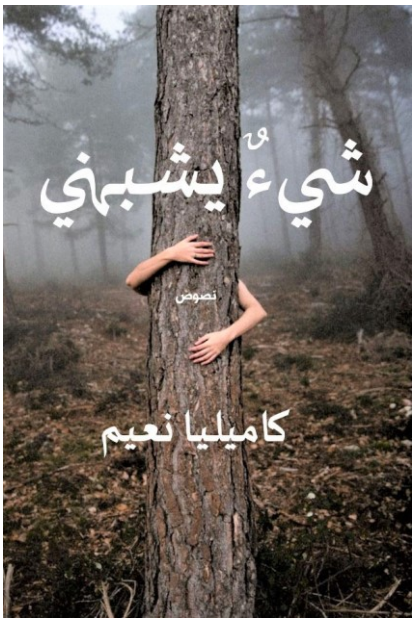

هذه الابنة التي تعادل الروح، ليست الوحيدة في احتلال حجرات ذلك القلب الطارق بالحبّ والمسؤوليّة. هنالك الأب والأمّ والأخوة والوطن وأبطاله.

أحمال ثقيلة تنوء بالفؤاد، لكنّها أيضًا تنوس به بين الواقع المرير لبعض الظروف، وبين الأمل الذي ظلّ ملازمًا لها مهما حاولت إقناع نفسها بالهرب منه، ورغم خشيتها أحيانًا "**أن أستيقظ غدًا ... بلا غد**".

أكثر ما أحبّ في كتابة كاميليا، عدا عن كونها أدبيّة على مستوى رفيع، هو أنّها، بعفويّة كبيرة، تعرض لنا لقطات حسّيّة ونفسيّة، بومضات فلسفيّة عميقة، تتجلّى في كيفيّة اختيارها

للكلمات، وربطها للتعابير. قد ينغمر القارئ العاديّ في جمال الكلمات ويمضي، ففي هذا الكثير ممّا يشفي الغليل. لكنّ في القراءة العميقة لهذه النصوص أبعادًا من المعنى ضمن أبعاد. ولذلك أرى شخصيًّا أنّ بهجتي في قراءة هذه النصوص مضاعفة. وهي كذلك بالتحديد لأنّي أراها تربط بين أكثر من بعد إنسانيّ في آن واحد. هذا التكامل يغريني دائمًا. عندما يرتدي الفكر ثوب الجمال، وتلازم الروح الجسد، تدبّ الحياة فينا وفي تعابيرنا: نتخطّى مجرّد العيش.

ويعجبني في كتابات كاميليا توظيفها للتناقض الدائم في نفسيّتها، والتي تعكس أيضًا كثيرًا من تناقض السلوك البشريّ والكونيّ، بطريقة إيجابيّة فعّالة، لتصبح هي المنتصرة في النتيجة لأنّها تتصالح مع نفسها، وتقرّ لذاتها أنّها كلّ واحد، بل تتعدّى ذلك لتكون كلًّا مع الكون: "**ومع انسحاب آخر قطرة، شعرت برهبة صمت على وشك أن يرتدي لون الكآبة والحيرة، لكنّني سرعان ما ابتسمتُ لمطرٍ رقصت على إيقاع هذيانه حرارة الفصل المسالم. وأدركت السرّ في مزاجيّة الأوقات. رَبَتُّ على كتف جنون العاصفة. همستُ في أذن تحدّي الأعاصير التي لم تأت خجولة مثل شمس الشتاء؛ أخبرتها: في حضورك شيء يشبهني.**"

هذا التوظيف البارع يعطي النصوص حيويّة "ديناميكيّة" تنسجم مع جماليّاتها، فيأتي الكلام عذبًا رقيقًا كانسياب جدول في ربوع الجرود التي تستحضرها كاميليا كلّما استفاقت في حضن ذكرى قريتها الجنوبيّة.

نصوصٌ عاديّة

من كلمة المؤلّف، رغيد النحّاس،
في حفل إطلاق كتابه "نصوصٌ عاديّة"، يوم 2020/10/18

أيّها الحضور الكريم، أشكركم فردًا فردًا على مشاركَتِكم ومساهمَتِكم، وأتمنّى لكم الحبّ والسلام والسعادة.

شكرًا السيّدة سناء أبو خليل منسّقة الحفل، وشكرًا السيّدة ندى خضر والأديبة كاميليا نعيم على تطوُّعِكما في المساعدة القيّمة، وللسيّدات اللاتي أتحفننا بأطباق الطعام الشهيّة.

شكرًا الحاجّ مصطفى حجازي على التصوير الفنّي، والموسيقي نسيم سعد على أنغامك العذبة.

أبو عليّ (الدكتور عماد برّو)، الجاليات العربيّة كلّها تشكر اهتماماتك وتفانيك في خدمتها. وأنا ممتنّ لقبولك أنْ تكون عريف الحفل، ولكلمتك اليوم، وإطلاق "نصوصٌ عاديّة".

جورج الهاشم، صديق الألف عام، ها نحن من جديد نلتقي في هكذا مناسبة، وكان لقاؤنا الأوّل في حفل إطلاق كتاب لك. ويسعدني أنّ كتابي الحاليّ فيه نصّين عنك، وأنّك اليوم أحد المتكلّمين.

عُلى غنّوم، تَعَرّفي إليك حديث جدًّا، لكنك شقيقة صديقة عزيزة. قرأت لك مقالة حول لبنان فأُعْجِبتُ بأسلوبِك

الأدبيّ وأنت المتخصّصة في العلوم. شكرًا عُلى على تقديم كلمة في حفلنا هذا.

وداد فرحان، الودودة الفرحة، التي تعرّفت إليها إبّان وصولها إلى سيدني حين اجتمعنا في مقهى، على ما أذكر، فسارَعَتْ لتريني أولى طبعاتها من جريدة بانوراما. كانت فخورة بها جدًّا، لكنّ الذعر أصابني لتحسّسي بمسؤوليّة ما هي مُقْدِمةٌ عليه. وأشرت عليها أنْ تقتديَ بإحدى الصحف العربيّة التي أعتبرها أفضل الموجود في أستراليا. وها هي بعد سنين من المثابرة قد بلغت شوطًا كبيرًا منذ ذلك العدد الأوّل. أعتقد أنّ خَدَماتها للجاليّة العراقيّة بشكل خاصّ جديرةٌ بالاحترام والتقدير. شكرًا وداد على مشاركتك معنا بكلمة.

في مسيرة الحياة، هنالك دائمًا من يدْعَمُك من وراء الأضواء، أو يكون لك من الشركاء "المُغفلين"، أو ما نطلق عليهم هنا (sleeping partners). ولقد كانت شريكةُ حياتي هي الشريكةُ الأولى المُغفلة في كلّ المشاريع التي قمت بها، وهكذا يكون كلّ ما قمنا به في حياتنا مشاركة بالتساوي على جميع أصعدة الكفاح والمثابرة، وإنْ كانت الهِوايات تختلف. ولهذا يكون شكري العميق وامتناني لما بذلته زوجتي نجاة شكرًا متأصّلًا في كِياني حتّى لو لم أعبّر عنه في كلّ المناسبات. فهي هناك، في حلّي وترحالي، ونومي وقيامي، وبين سطور هذا الكتاب

رغيد النحّاس
Raghid Nahhas
نصوص عاديّة
Unremarkable Texts
منشورات كَلِمات
Kalimat Publications

شريكًا فيما بيننا من أحفادٍ جاء ذكرُهم في نصٍّ أو آخرَ، وفيما بيننا من أصدقاء، ورحلات، وتأمّلات، وشؤونٍ ترسِمُ ملامحَ حياتِنا وتدعُم مسيرتنا. فلك أقول من جديد:

المجد للصباح حين يبدأ بك.
المجد للنهار حين يمضي محتضنًا جلال بسمَتِك.
المجد للمساء حين لا ينتهي الليل في حضورِك.
المجد لحُبّك يضيء سمائي.

وبين السطور أيضًا أسماءٌ، أرى بعضَهم بيننا، واكبت مسيرة النشر التي شَرَعْتُ بها، وقدّمَتْ دعمها الفكريّ والمعنويّ والمادّيّ منذ العدد الأوّل لمجلّة كلمات وحتّى صدور "نصوص عاديّة" الذي نطلقه اليوم.

كلّ هؤلاء، بالنسبة لي، هم الأوسمة الوحيدة التي أطمح إليها. إنّها أوسمةٌ مشروطة بالتعاون والمحبّة والتقدير. ولقد كوفئت يوم العشرين من أيلول الماضي بوسام ملكيّ خاصّ، لكنّه من ملكة الوفاء السيّدة كاميليا نعيم التي خصّتني بشكرٍ على نشري كتابها الأوّل، جاء على شكل قطعة أدبيّة جميلة.

ومن الالتفاتات الكريمة التي أعتزّ بها قيام القاصّ الأستراليّ غريغ بوغارتس، وهو ناشر مئات القصص القصيرة، بتكريسه مجموعة قصصيّة كاملة من مجموعاته لي.

أمّا العلّامة البروفسور مانفريد يورغنسن، فكرّس لي قصيدة من مئة وعشرين سطرًا من مجموعته "النهر". وسبق له كتابة قصيدة خاصّة بي.

هذه هي الأوسمة التي أفتخر بها، وأميّزُها عن سواها.

بعض نصوص الكتاب هي من كلماتٍ ألقيتها احتفاءً بكتبٍ لآخرين. ولمّا كنت أحرص على أنْ تكون كلماتي على المستوى الأدبيّ والنقديّ الذي يليق بالعمل المقصود، وليست مجرّد خطابات مألوفة، لذلك ارتأيت أنّها تناسب كتابي هذا.

أذكر ما أذكر أعلاه لأنّ معظم نصوص الكتاب يتعاطى مع مختلف شؤون الحياة، وكما ذكرت في مقدّمتي للكتاب، النصوص الحاليّة تتفاوت في الحجم بين عدّة أسطر وعدّة صفحات. لكنّ ما يجمعها هو أنّها كتابات حَرَصْتُ على أنْ تكون ترجمة تلقائيّة لمشاعري وفهمي لنفسي ولمن حولي وللأحداث التي تدور بيننا ومنّا وعلينا. وحين أقول "تلقائيّة" لا أعني أنّني أُفْلِتُها كما اتفق، بل أسبغت عليها لبوس العرض الموضوعيّ العلميّ بغية أنْ تكون تكامليّة المقصد. ولهذا يكون عرضي لبعض الأمور الشخصيّة ليس سوى مشاركةٍ تجمع بين الوجدانيّ والعمليّ في أمور حياتيّة نتشابه فيها جميعًا.

حين أستعمل "لغة المتكلّم" أكون أتحدّث عن نفسي في بعض الحالات، ولكنّها في حالات كثيرة لا تعني أنّني أنا المقصود. ولا يهمّني أنْ يفرّق القارئ بين الأمرين، ولا أريده أنْ يقوم بذلك

لغرض هذا الكتاب. هذا الكتاب ليس محض سيرة ذاتيّة، ولا هو كذلك عن أمور لا علاقة لي بها.

ولهذا لم أتطرّق لذكر ما سمّيته "الأوسمة" مثلًا، وهو أمرٌ يبدو على أنّه أمر شخصيّ، إلاّ لأنّ له دلالات وعلاقة بمحتوى ما وكيف أكتب.

وكما أُعَرِّضُ أعمال الآخرين للمراجعة والنقد قبل النشر، لا تنجو أعمالي من هذه الإجراءات الضروريّة فأَطرق أبواب من أثق أنّهم سيقدّمون النصيحة الموضوعيّة. وعلى هذا أتقدّم بشكري الجزيل للشاعر خالد الحلّي، وللمربّي والكاتب جورج الهاشم، ولمُدرّسة اللغة العربيّة في الجامعة الأميركيّة في بيروت رغدا النحّاس-الزين، على ملاحظاتهم القيّمة. ورغم كلّ المراجعات والتمحيص والتدقيق تفلت أحيانًا غلطةٌ هنا وغلطةٌ هناك. مثلًا، نبّهتني السيدة كاميليا إلى تاء مربوطة كان يجب أنْ تكون مجرّد هاء، ونبهتني زوجتي إلى كلمةٍ ينقصها حرف.

ومن الطريف في هذا السياق، وما يعزّز ضرورته، أنّني في تبادل مع المهندس سامي تقيّ الدين، وهو ابن صديق لي من أيّام المدرسة (أيْ أنّ سامي بمثابة ابني)، وقد وصل حديثًا إلى أستراليا مهاجرًا، سألني، وهو يعرف الجواب، فيما إذا كنّا نقول "البرد القارص" (بالصاد) أم "البرد القارس" (بالسين). أجبته بأنّنا نقول "القارس"، بالسين. قال لي: "ولكنّك كتبتها بالصاد في أحد نصوص كتابك "طلٌ وشرر"!

أضفت، كآخر نصّ في الكتاب، ترجمتي لمقابلة أجرتها معي الكاتبة الأستراليّة المرموقة الدكتورة صوفي ماسون، الرئيسة

السابقة لجمعيّة الكتّاب الأستراليّين، حول تجربة عملي بين ثقافتين، والتي نَشَرتها على مدوَّنَتها الإلكترونيّة، وهذا لا شكّ أنّه تأكيد على قناعتها بأهمّيّة تجرِبتي الأستراليّة. ولقد ارتأيت أنّ نشر هذه المقابلة مع بقيّة نصوص الكتاب يعزّز المنطلقات الفكريّة التي أحاول التعبير عنها من خلال النصوص المختلفة.

صوفي كانت مستشارة لمجلّة كلمات التي كنت أنشر، وسبق لها مرّة أنْ أجرت معي مقابلة نشرَتْها في صحيفة "سيدني مورنينغ هيرالد"، واسعة الانتشار.

وجدير بالذكر أنّ صوفي ماسون وصلت إلى مكانتها المرموقة، ولها عشرات الكتب، وصار لها أحفاد، وفقط في السنين الأخيرة عادت إلى الجامعة لإتمام دراساتها العليا، فجدّت واجتهدت وحصلت على درجة الدكتوراة، مع العلم أنّ انجازاتها تجاوزت ذلك بكثير. لكنّ الأصولَ أصول. يشبهها في ذلك شقيقتي التي تُدَرّس اللغة العربيّة في الجامعة الأميركيّة في بيروت، وهي الآن جدّة وتقوم بإعداد شهادة الدكتوراة بإشراف الجامعة اليسوعيّة.

ما علاقة هذا بكتابي؟ العلاقة وثيقة كما سيتبيّن للقارئ خلال زيارته لبعض النصوص. فأنا أتعرّض أحيانًا لما أعتبره آفاتٍ اجتماعيّة وعلى رأسها النفاق والادّعاء. ولا أقوم بهذا من منطق رجل الشرطة أو المصلح الاجتماعي، بل من منطق المصوّر الذي يحبّ كشف الحياة كما هي، وفي هذه الحال ما يتعلق بأمور العدالة والإنصاف. أنا لا أقبل بالمساواة بين من يشتري الألقاب ومن يكسَبُها عن جدارة.

وكذلك أؤمن بأهمّيّة تبادل المعلومات للاستفادة العامّة والنهوض بمستوى الوعي الجماعيّ الذي يجب أنْ لا يُترك للتضليل والاستغلال.

وعلى ذكر المصوّر، التصوير واحد من هواياتي وأحرص على إدخال بعض الصور التي ألتقطُ في كتبي لإضفاء بعض اللمسات الجماليّة، خصوصًا أنّني من يصمّم الغلاف وصفحات الكتاب. وهذا من إيماني بتكامل العناصر الإبداعيّة إنْ وجدت.

وهنا أنوّه بالسيّدة الإعلاميّة سوزان حوراني التي أجرت معي مقابلة حول "نصوص عاديّة"، من خلال إذاعة "صوت الغد"، يوم الأربعاء 2020/10/14. استهلت سوزان المقابلة بالتنويه إلى التصوير. ما استرعى انتباهي هو أنّها استفادت من المعلومات عنّي برجوعها ليس فقط إلى النسخة الإلكترونيّة من "نصوص عاديّة"، والتي زوّدتها بها بعد أنْ طلبت هي منّي الاطلاع على بعض النصوص لأنّها تريد التحضير للمقابلة بشكل لائق، بل أيضًا إلى موقعي الإلكترونيّ، واكتشفت منه روايتي مع التصوير، وكيف أنّ عمّي هاني قدّم لي آلة تصويرِه حين رآني مُعجبًا بالتصوير، وأجَدْتُ استخدام الكاميرا أمامه في أحد مشاويرنا إلى غوطة دمشق، وكان عمري اثنتي عشرة سنة. واسترعى انتباه سوزان عبارة من أحبّ العبارات إليّ، وهي: "لا تنظر إليّ من صوري، بل من الصور التي ألتقط". وهي عبارة لي وضعتها على الصفحة الأولى من ألبومٍ لصور التقطتها عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري.

تساءلت سوزان أيضًا عن قوّتي بين اللغتين الإنكليزيّة والعربيّة، وهو سؤال لا يسهل على الشخص المعني الإجابة عنه خصوصًا إذا أمضى حياته بالتساوي بين اللغتين، ولكنّني أنتهز هذه الفرصة لأستخدم العبارة التي أعجبت سوزان في الإجابة عن سؤالها.

حين اردت كتابة "لا تنظر إليّ من صوري، بل من الصور التي التقط" بالإنكليزيّة، كتبْتُ

"See me not in my photos, but in the photos I take."

باعتقادي أنّ الإنكليزيّ في هذه الحال أقوى من العربيّ، وأترك لكم التفكير بالأسباب.

أهمّيّة المقابلة مع السيّدة سوزان أنّها حرّضت على توليد أفكار يمكن الاستئناسُ بها ومشاركتُها على شكل مقالة جديدة، وهذا شأن كثير من مقالاتي التي أكتب. تأتي من ملاحظة أو حديث ما.

وهذا يقودنا إلى تساؤل آخر كان لدى السيّدة سوزان، وهو حول علاقة العلم بالثقافة. شرحت لها وقتها أنّ الثقافة أكثر شمولًا من التعلّم، وأنّ تكديس الشهادات مهما كان نوعُها لا يعني الثقافة الحقيقيّة، إلّا لمن سخّر العلم لمصلحة توسيع مداركه العامّة.

والإعلاميّة السيّدة سوزان حوراني كانت، برأيي، توظّف الأسلوب الثقافيّ في أسئلتها وطريقة التحضير لمقابلتها معي. أيْ أنّها سخّرت خبرتها الاحترافيّة لصالح طروحات تتعدّى مجرّد الحرفة. وهذا شبيه بالفرق بين العالِم والحرفانيّ العاديّ. العالِم

يلاحظ الدقائق المختبئة في الأجسام الطاغية عليها ويميّزُها. والحقيقة أنّ أهمّ الاكتشافات تمّت من قبل علماء انتبهوا لها مع أنّها كانت بين أيدي آخرين طوال الوقت. بعبارة أخرى، الطريقة العلميّة، ليست حكرًا على من يشتغل بالعلوم.

هذه العبارة تتماهى مع جوابي لها حين قلتُ إنّني أحبّ أنْ يعرف الناس عنّي من كتاباتي. والآن يتّضح لكِ أكثر يا سوزان معنى أنْ تكون نصوصي عاديّة وربّما غير عاديّة في الوقت عينه. خصوصًا لو أنّ حديثًا كهذا دار بيننا قبل إنهاء الكتاب، لكان حواري معك يشكّل نصًّا من نصوصه.

اعتبرتُ أنّ النصوص عاديّةً لأنّها تتعاطى عمومًا مع أمور حياتنا العاديّة، وتعبّر عن وجدان كاتبها بصراحة وصدق، وتحاول تصوير الواقع بعدسة شفّافة. اختياري هذا اختيارٌ موضوعيّ، وليس اختيارًا من باب التواضع. ومع هذا أشعر بفخر كبير لما عبّر به أولئك الذين تيسّر لهم الاطلاع على هذه النصوص لسبب أو آخر، بإطرائهم على أنّ هذه النصوص غير عاديّة. طبعًا يقصدون الناحية الفكريّة واللغويّة وربّما الأدبيّة. وأعتقد شخصيًّا، أنّ هؤلاء تفهّموا الناحية التكامليّة في فكري، فأنا إن كتبت عن ذرة رمل على الشاطئ، أكون أفكّر في نجم سابح في أعماق الكون، ربّما كان هو مصدر هذه الذرّة.

تتناول نصوصي، من ضمن ما تتناول، جوانبَ فكريّة ووجدانيّة واجتماعيّة وعائليّة وسياسيّة، أعتمد في عرضها، في اعتقادي، على أساليب تصويريّة أدبيّة نفسيّة فلسفيّة لا تخلو من الدُعابة أحيانًا. وأميل أنْ يكون النصّ الواحدُ شاملًا لهذه

الجوانب، أعرِضها بنسب مختلفة حسب مقتضى الأمر. وأنوّه بشكل خاص على أنّ المواضيع السياسيّة التي أخوض فيها، إنّما أقوم بذلك بتركيز اجتماعيّ إنسانيّ، فليس لي في السياسة وفهمها لا ناقةٌ ولا جمل.

الناس انتقائيّون حين يقرأون، بمعنى أنّ هناك ميولًا نحو استحسان ما يؤمنون به سلفًا، أو ما يعتبرون أنّه الأفضل. لكنّني، وكمّا ذكرت في أكثر من منشور، أنظر إلى القضايا نظرة متكاملة أحاول أنْ أكون فيها موضوعيًّا. ولذلك حين أعرض بعض الأفكار لا يعني هذا أنّني بالضرورة وليّ لها، ولا أعرضها لمجرّد أنّها تعجب القارئ. نعم أريد للقارئ أنْ يستمتع ويستفيد من القراءة ويستحسنَ كتابتي، ولكنّي أعتمد على إلباس نصّي ثوب الرصانة الأدبيّة والفكريّة واللغويّة، لا زركشات الدعاية التجاريّة. أيْ ليس بالضرورة أنْ يسمع القارئُ منّي ما يحبّ أنْ يسمع، أو ما تعوّد على سماعِه. هدفي الأساس أنْ يُعمل القارئُ فِكرَه فيما يقرأ، لا أنْ يوافق على ما أقول.

أنا علمانيّ عالميّ. وطني الأمّ وغيرُه من الأماكن التي مارست عِشقَها، كلُّها أوطاني. هنالك أماكنُ زرْتُها لأيّام، وأفكّر فيها دائمًا كوطن وجدانيّ. أحنّ إلى سيدني وأنا في سيدني.

العشق عندي حالةٌ ماديّة فكريّة في الوقت عينه. أنا لست كغيري ممّن يتركون وطنهم الأمّ ويمضون حياتهم تفكيرًا به وبكاءً عليه. لو كان الأمر كذلك ما تركتُه أصلًا. لم أكن مضطرًّا لتركه. وحين تركتُه، كنت أعلم أنّني لن أعود.

أنا لا أعتبر نفسي مغتربًا أبدًا. حيث أنا: أخلق لنفسي موطنًا. وأدبي ليس أدبًا اغترابيًّا. حين أكتب بالعربيّة، فلأنّني ابنُها، ولأنّني أعشقُها، وأريد أنْ أساهم في الحفاظ عليها، وهي واحدة من أجمل وأقوى لغات العالم.

وحين أكتب بالإنكليزيّة، فلأنّها الشقّ الثاني من ثقافتي، وهي أهمّ لغة للتواصل في العالم. وأنا شخصيًّا أجدها لغة جميلة ثاقبةً بمصطلحاتها وتعابيرها الأدبيّة الجزلة.

في أصولي كثير ممّا أفتخر به ويشرّفني، لكنّي لا أنحاز إلى أصولي ولا "اعتنقها" اعتناقًا. لا أدّعي أنّني الأفضل، بل مجرّد أنّني مختلف.

مرساتي الحقيقيّة ليست مغروسة في الماضي. صحيح أنّ من خامتها جزءًا هامًّا من ذلك الماضي وكذلك من الحاضر، ولكنّني دائمًا ألقيها نحو المستقبل. وحين تحين الساعة التي لن تكون لي فيها حيلة أيضًا، سيجد الموت هذه المرساة مستسلمة له بكلّ الواقعيّة التي تفرضها هيبتُه، رَغم أنّها كانت دائمًا تغزل نسيجها من أجل الحياة بالحبّ والسلام والسعادة.

"الجذور" ببضع كلمات

شكّل العام 1999 نقطة بارزة متشابهة في مسيرة شخصين لم يكن يعرف واحدهما الآخر، أو عن الآخر.

في ذلك العام وضع علي أبو سالم (الآن الدكتور والصديق) فكرة راودته حيّز التنفيذ، وأصدر العدد الأوّل من مجلّته "الجذور" في شهر أيّار.

أما أنا فكنت منذ بداية 1999 أجري اتصالاتي وأعقد اتفاقيّاتي مع عدد من المستشارين والمساهمين، وأحضّر لنشر العدد الأوّل (الإنكليزيّ) من مجلّة "كلمات" الفصليّة المحكّمة، وهي دوريّة عالميّة للكتابة الخلاّقة باللغتين الإنكليزيّة والعربيّة، والذي صدر في آذار، عام 2000.

ولـ"كلمات" الفضل في معرفتي بـ عليّ إذ تشاركنا في كتابة نصّ حول الفنان فؤاد تومايان، ونشرناه في العدد السابع منها في أيلول، عام 2001.

استمرّت "كلمات" لغاية عام 2006، وصدر منها 24 عددًا. توقّفت ولا أنوي لها العودة.

ولذلك أتكلّم هنا من منطلقين أساسين. الأوّل من كوني مارست هذا النوع من التجارب، وأعرف تمامًا مقدار الأعباء

الثقيلة التي تأتي معها. والأهمّ حجم المسؤوليّة تجاه الثقافة المعنيّة والمضطلعين منها.

والمنطلق الثاني سروري العميق أنّ هناك من لم يتوقّف، وحين يكمل مسيرته الآن إنّما يريد لها لبوسًا متطوّرًا ونقلة نوعية.

ليس غريبًا إصرار الدكتور علي أبو سالم هذا، وهو المكافح الصنديد. ولقد كانت الجغرافيا تباعدنا دائمًا، ومع ذلك تكرّم وزارنا في سيدني منذ سنين طويلة. بعدها انشغل في تحصيله العلمي، والتحق في سلك التدريس الجامعيّ من جملة أعماله الأخرى. أيْ أنّه دائمًا غزير العمل، ومع ذلك يبذل الآن جهدًا في تطوير مجلّته مع ما يتلاءم وهذا العصر الرقميّ.

ولهذا الغرض يقول في كلمة الترحيب، على موقع "الجذور" الإلكترونيّ، إنّ المشروع يهدف إلى جمع الطاقات العربيّة، وتبادل الأفكار والآراء، وإقامة حوارٍ ثقافيّ بعيدٍ عن مفردات الخطاب السياسيّ المعهودة. ويركّز على الجيل الشاب والمواهب الواعدة.

وطبعًا لا نستغرب ذلك طالما أنّ العنوان الشموليّ للمشروع هو "الجذور". أيْ هنالك تكريس للحفاظ على تراث اللغة والثقافة. لأنّ الكلمة تعني العودة إلى ما هو راسخ وثابت في الأرض. ولكنّ معضلة كبيرة تواجه من يتّخذ هذا الموقف إنْ أراد التقدّم والتطوّر. المعضلة لا تكمن في العودة إلى ما هو راسخ، بل في الانحباس ضمنه. وهذا، برأيي، ما هو عليه معظم من يتغنّى بالتراث، وكذلك من يعتقد أنّه ما زال بالإمكان وصف الفكر والأدب فيما يسمّى "بلاد الاغتراب" على أنّه أدب مهجريّ.

أنا شخصيًّا لا أعتقد أنّه في العصر الحاضر يمكن القول بوجود أدب مهجريّ، خصوصًا مع تقدّم وسائل التواصل. والذي يطغى الآن هو وجود فئة لا زالت تركّز على هذه الناحية لتغطية فشلها في الوصول إلى مستوى لائق على الصعيد العربيّ العام. تحتمي وراء وجودها بعيدًا عن مراكز الكلمة، وتشكّل لنفسها

معايير متدنيّة المستوى نسبيًّا، وتقبل بها وتستوعب أمثالها مشكّلين "روابط" غير معلنة يصفّق فيها الأفراد كلّ للآخر، وتستكمل التغطية بإحداث "جوائز" يتمّ إغداقها دون قواعد واضحة ثابتة. ولقد تطرّق أبو سالم لمثل هذه الأمور في كلمته "اغتراب المثقّف والمساومة على الإبداع" الموجودة على صفحة "ذاكرة المسيرة" من موقع "الجذور".

لذلك لا تجد المواهب الواعدة، والجيل الجديد الذي يتوخّاه مشروع الجذور، أمامها سوى هذه الدكاكين "الأدبيّة" حسنة النيّة، ربّما، لكنّها على غير مستوى ما تدّعيه، أو ما يجب أنْ يكون.

وعلى هذا أرى أنّ مشروع "الجذور" الذي تحتاجه الثقافة العربيّة، سيواجه تحدّيًا كبيرًا حين يريد أنْ يرتقي إلى مستويات لائقة.

التحدّي الأكبر هو كيف يمكن المحافظة على صحّة الجذور الثقافيّة وفي الوقت عينه تنمو الجذوع، وتتفرع الأغصان وتورق، وتفيض ثمار الاستمرار والتجديد والتطوير ومواكبة الزمن.

تريد "الجذور" إخراج "الطاقات العربيّة المخزونة"، على كثرتها، إلى الضوء. ولعلّ هذا من أهمّ وأنبل الأهداف التي يتوخّاها الدكتور أبو سالم. ولسلامة العمليّة يقول إنّ مشروعه سيقوم بتعريض النصوص للغربلة والنقد ومساعدتها على الخروج بحلّة مناسبة.

وحسب تجربتي في هذا المجال خلال ثلاثين سنة من تعاملي في أستراليا، وأحصر كلامي بتجربتي مع عرب أستراليا، أقول إنّه مع استثناءات تعدّ على الأصابع، الثقافة العامّة هي ثقافة غير قابلة للنقد. أؤكّد هنا أنّي أتحدّث عن النقد البنّاء، ولا أحصره بنقدي أنا كناشر ومحرّر، بل أضيف إليه نقد المستشارين الذين ساهموا معي في مسيرة كلمات، وهم أدباء متمكّنون متميّزون. وأكتفي بمثالين لتوضيح الفكرة.

أرسلت لي مرّة كاتبة متميّزة، وزميلة في مسيرة الأدب والتحرير، تسألني ما هي شروط النشر في "كلمات" لأنّ لديها قصّة قصيرة تريد نشرها. هذا على الرغم من تأكّدي أنّها كانت تعلم شروط النشر تمامًا، كما أنّ لديها نسخًا من "كلمات"، وفي كلّ عدد نذكر أنّ الموادّ المقدّمة للنشر تخضع للتقييم. لم يكن لدي أيّ شك في أنّ ما تكتبه هذه السيّدة سيكون صالحًا للنشر بامتياز. ولكنّ العدالة تقضي أنْ يخضع عملها للتقييم مثل كلّ الأعمال. أخبرتها أنّني عادة أرسل النصّ إلى حكمين. إنْ اتفقا على القبول أو الرفض أعتمد رأيهما. وإنْ اختلفا، أكون أنا صاحب القرار النهائيّ. عندها قالت لي إنّها تسحب طلبها ولم تعد تريد النشر.

وفي حادثة أشدّ غرابة، أرسلت لي شابّة أستراليّة، من أصل عربيّ، قصيدة بالإنكليزيّة للنشر في كلمات. القصيدة كانت غاية في الروعة والقوّة لا تقلّ عن أعمال المشاهير من الشعراء. أرسلتها فرِحًا إلى شاعرة أستراليّة مرموقة للنظر فيها، فجاء الردّ باهرًا. أكّدت لي فيه أهمّيّة القصيدة، واقترحت أنْ يكون هنالك

فاصل بسيط بين سطرين في منتصف القصيدة. وبحماس شديد، اتصلتُ هاتفيًّا بالشابة التي كانت بعمر ابنتي، وهنأتها على القصيدة التي سيشرفنا نشرها. ولكنْ بمجرّد أنْ نقلت إليها اقتراح الشاعرة الأستراليّة، انهالت عليّ سبًّا وشتمًا وقالت إنّني لا أصلح أنْ أكون محرّرًا وأغلقت الهاتف في وجهي.

طبعًا يمكننا اعتبار هذه الأشياء من "مخاطر المهنة"، وأنا متأكّد أنّ "الجذور" ستتعاطى مع هذه الأمور بحكمة.

ومن الحكمة أيضًا أنّ هذا المشروع يطمح أنْ تكون المنتديات (التي سيحييها عبر الموقع) مسرحًا للمبدعين الجدد، وأداة مساعدة لهم، وحلقة وصل بينهم وبين أرباب الكتابة، كما يؤكّد الدكتور أبو سالم.

وهو إذ يمد يده للتعاون مع الآخرين، إنّما يكرّس أهمّ وسيلة من وسائل النهوض بهذا العمل المؤسّساتي الهامّ الذي يركّز على وجوب إبراز "الشخصيّة العربيّة" في قدرتها على مواكبة العصر.

لقناة الجذور الثقافيّة أهمّيّة متميّزة بتسجيلاتها، صوتًا وصورة، لمواد تحتفي بالإبداع، ومن الأمثلة الرائعة الاحتفاء بالشاعر الراحل نعيم خوري. لهذه الأعمال، بالإضافة إلى قسم "ذاكرة المسيرة" الذي يستعرض نماذج من منتجات الأدب والفنّ لعرب أستراليا، أهمّيّة مرجعيّة كبيرة.

إذن، الأهداف نبيلة، والوسائل تبدو ناجعة. التحدّي، كما هو في معظم الأحوال، في تطبيق ذلك. هذا سيعتمد على

استجابة من يرى أهمّيّة هذه العمليّة التي تعجز عنها المؤسّسات إنْ وجدت.

يشرّفني أنّ الدكتور أبو سالم دعاني للمشاركة بكلماتي هذه، وأتمنّى نجاح مهمّة "الجذور"، ففي نجاح هذه المشاريع نجاح لنا جميعًا. وكما ذكرت في موضع آخر، لعلّ المتكلّمين بالعربيّة في بلاد حرّة مثل أستراليا يحملون اليوم همّ الوفاء لهذه اللغة والمحافظة عليها، في زمن باتت بلادهم الأصل تتهاوى الواحدة تلو الأخرى.

نُشرت في العدد الأوّل من "الجذور" الإلكترونيّة احتفاءً بصدوره، كانون الثاني 2021، ملبورن.

كلماتٌ حول تجربتي مع "كلمات"

استجابة لطلب من مؤسّسة الجذور الثقافيّة في ملبورن، كتبتُ مقالة نُشرت في العدد الثالث من "الجذور" 2021، عن تجربة رغيد النحّاس في إصدار مجلّة كلمات، وهذا معظم ما جاء فيها.

فكرة كانت تمرّ على بال الطموح، وتحرّض مشاعر المسؤوليّة، فما كانت جموحًا ولا انفلاتًا، بل خطّة محكمة واضحة الأهداف، وكان علينا إيجاد الوسيلة. هكذا اجتمعت عزائم ثلّة من المهتمّين لنقرّر أنّنا سنرسم بالكلمات مشاعر حضاريّة تنتقل بين عوالم متباعدة، وتتفاعل مع ثقافات متعدّدة من خلال لغتين هامّتين جميلتين: العربيّة والإنكليزيّة.

كانت "كَلِمات" تجسيدًا لتلك الفكرة، وطرحًا لتلك المشاعر. أنجزنا ما أردناه نوعًا وكمًّا ضمن معطياتنا، ونحن نتعامل مع وقائع التمويل والتصميم والتحرير والكتابة والترجمة والتنفيذ والطباعة والتوزيع، وما يرافق هذا من شؤون إداريّة وعلاقات عامة. بيد أنّ أجمل ثمار هذا التعامل كان التفاعل مع بعض الأدباء الذين فاضوا علينا بكنوزهم وقدّموا لنا التوجيه والنصح والتشجيع والنقد والشكر.

كانت للبعض مواقف نبيلة شدّت عزائمنا. فهذا كاتب

يتطوّع بتوزيع عشرين عددًا على مختلف مراكز الكتّاب والإذاعات، وذلك مستشار يتطوّع بتوزيع أربعين عددًا على مختلف المنتديات الثقافيّة التي يعرفها حول العالم، وزميل يحمل معه ثلاثين نسخة على الطائرة التي تقلّه إلى بيروت ليوزّعها هناك، وزميلة تدور من مكان إلى آخر في سوريا، أثناء عطلتها الخاصّة، لتقيم العلاقات وتبثّ أخبار المجلّة، وصديق يحضر حفل الإطلاق فيشتري عشر نسخٍ بدلًا من واحدة. كلّهم يقول: هذه مجلّتنا!

أردنا أن تكون كَلِمات وسطًا تتراقص فيه ألوان الثقافة على أنغام من الفكر والشعر والقصّة والمقالة والمراجعة. وأردناها أن تكون وجهًا حضاريًّا لعرب أستراليا، ولأستراليا، بغية المشاركة في بناء أستراليا الحديثة بتعدّد ثقافاتها. كما أردناها وسطًا للتواصل الثقافيّ بين العالم الناطق باللغة الإنكليزيّة والعالم الناطق باللغة العربيّة.

إنّنا على يقين أنّ معدن البشريّة واحد. وأنّ التشابه أكثر من التباين بين بني البشر، وأنّ ما تبدو البشريّة عليه في تناقضها الحاليّ جاء نتيجة لتسخير الشعوب عبيدًا من قبل الطغم الحاكمة، أو الكتل المتجبّرة التي لا تحيا إلاّ على التفرقة، ولا تفهم إلاّ لغة القوّة لتفرض ما ليس لها حقّ في فرضه، أو لتهيمن وما هي أهل للقيادة. فإذا عزلنا تسييس الأمور، وجدنا أنّ الفروق الثقافيّة إنما هي ثروات إنسانيّة تعزّز التلاقي بين البشر لا التنافر، لأنّ هذه الفروق هي البذور المتميّزة التي إذا ما جُمعت في تربة واحدة جاءت بهجين الصفات السامية لكلّ البشريّة.

ما أذكره هنا هو في بعضه مقتطفات من افتتاحيّات أو كلمات لي وردت في المجلّة، أو في مناسبات معيّنة. رأيت أنّ استعراضها الآن هو أصدق ما يروي تلك التجربة لأنّها كانت تعبّر عن الحدث في وقته. كما أنّني أورد بعض تعليقات الآخرين حرصًا على موضوعيّة الطرح، ورغبة في كشف رأي هؤلاء "الشهود" على تلك التجربة، خصوصًا أنّ في كلامهم تسليط ذكيّ للأضواء على شؤون وشجون هذا العمل، والأهمّ من ذلك دخولهم في مناقشات تساعد على تبادل الآراء والمعلومات المفيدة، يغنون بها ما ورد في المجلّة.

صدر العدد الأول من "كلمات" في آذار عام 2000، وتوقّفت عن الصدور مع نهاية عام 2006. وكانت حصيلتها 24 عددًا، كلّ عدد على شكل كتاب من مئة وعشرين صفحة أو أكثر، بأبعاد 22.5 X 17.4 سنتمترًا. كانت تصدر فصليًّا: عدد باللغة الإنكليزيّة يليه عدد بالعربيّة. ولكن في السنة الأخيرة اقتصر الأمر على الإنكليزيّة. وهكذا كان مجموع الأعداد الإنكليزيّة 14، والعربيّة 10.

تَوَقّفُ المجلّة جاء نتيجة لعدم توفّر الوقت لي بشكل رئيس، ولا يخفى على كثيرين أنّني وقتها كنت أعمل بدوام كامل. كنت أصل إلى البيت حوالي السادسة مساء، وبعد تناول العشاء أمضي السهرة بالعمل على عددٍ جديد من "كلمات" حتّى الثانية صباحًا. وبعد النوم القليل، أستيقظ للذهاب إلى العمل. هكذا خمسة أيّام في الأسبوع. ومع نجاحي عمومًا في إبقاء عطلة نهاية الأسبوع ملكًا لعائلتي، لكن لم يخل الأمر من ضرورة استخدامها

من أجل "كلمات" في حالات كثيرة.

أثّر هذا على نشاطاتي الأخرى، وأهمّها إيجاد الوقت لكتاباتي الخاصّة. كما قضى على عمل إضافيّ في الترجمة كنت أديره.

لم تكن الطباعة الرقميّة متوفّرة في ذلك الوقت. كان لا بدّ من طباعة مئات النسخ كحدّ أدنى، مع ما يرافق ذلك من تكلفة كبيرة. وكنت في الأسبوع الذي يسبق طباعة أيّ عدد أرتاد المطبعة يوميًّا في السابعة صباحًا قبل الذهاب إلى عملي، لمتابعة أمور الإخراج والتنسيق والتأكّد من سلامة الأمور. لم تكن المطبعة في الطريق إلى العمل، بل في ضاحية بعيدة أقصدها لذلك الغرض. وكان من مشقّة هذه العمليّة إقناع أصحاب المطابع التمييز بين "طبعة" أدبيّة، وطبعة تجاريّة. كانوا يريدونني أن "أمرّر" الأمور كما تحصل لأنّها ليست "مشكلة" بنظرهم. ومع أنّني "الزبون" الذي يدفع، أحسست بالمهانة في مرّات كثيرة.

توزيع العدد كان معضلة كبيرة من الناحية اللوجستيّة والماليّة. كانت كلفة البريد في أستراليا تساوي سعر طباعة العدد (والآن تزيد بكثير). وهذا التراكم من الهموم العمليّة والماليّة ساعد في تخفيفه فئة من المهتمّين، فتوفّر لي من ساهم ماليًّا بشكل فصليّ، ومن استطاع تأمين بعض التبرعات والمشتركين.

ومع هذا بقي ثمانون بالمئة من إجمالي الكلفة عليّ وعلى زوجتي. لم يكن مشروع المجلّة تجاريًّا. ونتيجة للخسارة المتكرّرة في سنوات إصدار المجلّة، وعدم إمكانيّة إطفاء هذه الخسائر في تخفيض العبء الضريبيّ السنويّ لمصادر الدخل الأخرى حسب

النظام الضريبيّ المعمول به في حينه، صارت الخسائر المتراكمة عبئًا كبيرًا.

كانت المجلّة مُحَكَّمَة، وتوفّر لها نخبة من المفكّرين والأدباء، من ثقافات مختلفة، يقدّمون الاستشارة حول صلاحية النشر بما يتلاءم مع أهداف المجلّة، وتتوفّر فيه الشروط اللغويّة والأدبيّة المناسبة. وأفتخر أنّ من بين هؤلاء أسماء أستراليّة لامعة، من مثل جوديث بيفردج، وتعدّ في قمّة الشعراء الاستراليّين. وبروس باسكو الروائيّ والقاصّ الذي ترأس تحرير مجلّة القصّة الأستراليّة القصيرة لسنين طويلة. والروائيّة الدكتورة صوفي ماسون التي ترأست اتحاد الكتّاب الأستراليّين. والروائيّ والشاعر والأكاديمي العلاّمة البروفسور مانفريد يورغنسن. ومن الولايات المتّحدة الأميركيّة الأكاديميّ الأميركيّ-الفلسطينيّ البروفسور بسّام فرنجيّة. ويمكن الاطلاع على لائحة الأسماء الكاملة من موقعي الألكترونيّ raghidnahhas.com ومن الموقع عينه يمكن تحميل الأعداد كلّها مجّانًا.

شعار المجلّة كان: "الكلمة باب الإرث الحضاريّ، والكتابة مفتاح ديمومته". وكما بيّنت في افتتاحيّتي العددين الأوّلين، لديّ أيمان كبير بقوّة وجمال الكلمة، وتسعى "كلمات" إلى كشف هذا الجمال وأبعاده الخلاّقة في الشعر والنثر، باللغتين العربيّة والإنكليزيّة، بأيّ شكل أو أسلوب. وهي في هذا تريد أن تكون وسطًا للتواصل الحضاريّ بين أستراليا والعالم العربيّ، وكلّ مجتمعات الانتشار في العالم، على أساس متميّز خلاّق يتيح للكُتّاب من مختلف الفئات أن تُقرأ كلماتهم وتُسمع وتُسْتَشْعَر

من قبل الجميع.

أحبّ للتواصل أن يحافظ على السِمات المميّزة لكلّ فئة وحضارة وعمل. وهناك أكثر من طريقة لبناء الجسور الثقافيّة. كانت طريقتنا المميّزة توفير الأرض الملائمة دون فرض الأسلوب.

"كلمات" كانت تتحدّث بلسانين. ولكن في بعض الحالات كان المساهم من خلفيّة غير إنكليزيّة. صحيح أنّه يكتب بالإنكليزيّة، لكنّ أفكاره تعتمد على إرثه الثقافيّ الكامل. وهنا بيت القصيد، وأهمّيّة الإنكليزيّة كجسر حضاريّ عالميّ. أي أنّ الحديث يتجاوز اللسانين ليوصلنا مع عوالم كثيرة. من حيث المبدأ، هذه هي أستراليا بتعدّديّتها الثقافيّة.

ومن هنا أرى أنّه حين نتحدّث عن الثقافة العربيّة في أستراليا، يجب أن ننظر إليها في إطار وجودها الجغرافيّ، ليس على الطريقة التقليديّة باعتبارها ثقافة "مهجريّة" معزولة، بل باعتبارها ثقافة فاعلة متفاعلة ضمن مجتمعها الأستراليّ. وهذا هو الأساس الذي بَنيتُ عليه إصدار "كلمات".

تمّ إطلاق "كلمات" يوم الأحد الرابع عشر من أيّار 2000، في حفل أقامه "سيروس"، المجلس الثقافيّ الأستراليّ السوريّ، وحضره مائتا فرد من خلفيّات متنوعة، في قاعة كلارنس في بلمور، سيدني.

ضيف الحفل المحاضر كان الأستاذ المساهم الدكتور أحمد هادي الشبول، من قسم الدراسات الساميّة (آنذاك) في جامعة سيدني. (الدكتور الشبول كان مناصرًا معنويًّا وماديًّا لـ"كلمات" منذ بدايتها.) تحدّث عن التحدّيات المزدوجة التي

تواجه كلمات، من حيث أنّها تصدر مرّة بالإنكليزيّة ومرّة بالعربيّة. وأيّد فكرة عدم الجمع بين اللغتين في العدد الواحد.

أما أهمّ أسباب عدم المزج بين اللغتين في العدد الواحد هي أنّني ما أردت الإقلال من التركيز على كمال التواصل في الوسط اللغويّ الواحد، سواء فيما يتعلّق بقوّة الإبداع ونوعيّة العمل، أو بعمليّة التواصل الثقافيّ نفسها. فالذي نقوم به أساسًا ليس

محض عمليّة ترجمة للنصوص، وإنّما عمليّة ترويج للعمل الإبداعيّ. وبناءً على هذا لم تحوِ الأعداد العربيّة كلّ ما ورد في الأعداد الإنجليزيّة، والعكس صحيح. بهذه الطريقة تزداد فعاليّة التواصل لأنّنا نوسّع المجال الذي نتعاطى معه، ونجعله أكثر انتقاءً. بتعبير آخر، رأينا أنّه من الضروريّ أن نترجم للقارئ ما تمّ قبوله للنشر في أرقى المجلّات الأدبيّة الأخرى، ولا نجد من الصحّة أن نقتصر على ما تمّ قبوله في "كلمات".

ومن ناحية عمليّة، يلقى العدد الإنجليزيّ الصرف قبولًا أفضل لدى الذين لا يتقنون العربيّة. كما يلقى العدد العربيّ الصرف قبولًا أفضل لدى الذين لا يتقنون الإنكليزيّة. أما الذين يتقنون اللغتين فسيتمكنون من التعامل مع كلا الإصدارين. ولقد تركنا للقارئ حريّة الخيار بين الاشتراك السنويّ الكامل، أي أربعة أعداد، اثنين بالإنكليزيّة، واثنين بالعربيّة، أو الاشتراك الجزئيّ بعددين فقط بإحدى اللغتين.

وبما أنّ كثيرًا من الأعمال المنشورة في "كلمات" بإحدى اللغتين كان يترجم وينشر باللغة الأخرى، تمكّن الذين يرغبون بالمقارنة وأعمال الترجمة من تتبّع هذه الأمور من خلال اقتنائهم لكلا الإصدارين. كما أمكن للمهتمّين بتتبّع الأعمال التي تترجم لتنشر في "كلمات" بلغة واحدة فقط أن يرجعوا إلى الأصل حيث نُشر، لأنّنا حرصنا دومًا على تدوين المراجع.

"كلمات"، إذن، لم تكن كُراس ترجمة. بل استخدمت الترجمة كأهمّ وسيلة من وسائل التواصل الثقافيّ مع الذين لا يتقنون سوى لغاتهم الأم. "كلمات"، قبل كلّ شيء، كانت مجلّة

تحتفل بالإبداع وتحافظ على الجودة. مجلّة أدبيّة فصليّة أستراليّة عربيّة. ويمكنك أن تقول مجلّتين في مجلّة. ونقول إنّها كائن عضويّ يسعى إلى اكتساب المزيد، وقد حالفه الحظ أنّ له لسانين يتذوق بهما لذائذ ثقافتين. فما أشبهها بكثيرين منا.

ونظرًا لأهمّيّة الترجمة وخطورة الإخلال فيها، أوليتها عناية خاصّة، وطرحت أفكاري حولها في منتديات كثيرة.

احتوى كلّ عدد على "أبواب" مختلفة، وكان باب "نقطة علّام" على أهمّيّة خاصّة لأنّه يتحدّث عن شخصيّة كان لها إنجازاتها وتأثيرها في عالم الفكر أو الأدب أو الفنّ. كنت أقدّم شخصيّة عربيّة في الأعداد الإنكليزيّة، وشخصيّة غير عربيّة في الأعداد العربيّة. وهذا ما يخدم واحدًا من أهمّ أهداف المجلّة، ألا وهو التواصل بين الثقافات من طريق مقالات أصيلة غير مترجمة في معظم الحالات.

كنت كلّما أتيحت لي الفرصة أحاول إجراء مقابلة مع هذه الشخصيّات، فسافرت إلى مدينة أديلايد لمقابلة الروائيّة والأكاديميّة الدكتورة إيفا ساليس. وفي المدينة عينها اجتمعت إلى الشاعر يحيى السماوي. وسافرت إلى بريزبين لمقابلة الروائيّ الشاعر والأكاديميّ البروفسور مانفريد يورغنسن. وإلى خليج أبولو، جنوب مدينة ملبورن، لمقابلة الروائيّ والمحرّر بروس باسكو. وإلى مدينة نيوكاسل لمقابلة القاصّ والروائيّ غريغ بوغارتس. وإلى منطقة "بلو ماونتز" لزيارة القاصّة والروائيّة والشاعرة الدكتورة كارولين فان لانغنبيرغ في منزلها. وزرت الرسّامة ليونورا هاوليت في منزلها في سيدني. زرت البروفسور

نجيب قنواتي في مكتبه في جامعة مكواري. وأثناء وجودي في دمشق، اجتمعت إلى الفنّان سميح الباسط. وفي رحلة أخرى إلى سوريا، اجتمعت إلى الباحث والكاتب والقاصّ والأكاديميّ الدكتور محمّد عبد الرحمن يونس، في قرية الكرامة قرب مدينة جبلة. وحَضَرَتْ إلى منزلنا في سيدني الشاعرة جوديث بفريدج. وكذلك الروائيّة الدكتورة صوفي ماسون، وهي التي تقطن في مدينة آرميديل.

وكان من حظّي الكبير أنّه قبيل إعداد العدد الأوّل من "كلمات"، كان الفنّان السوريّ دريد لحّام في زيارة إلى سيدني فأجريت مقابلتي معه في منزلنا، وأكملنا حديثنا تحت ظلال الأشجار في مقهى، مصمّم حول نافورة مياه، قال لي دريد عنه إنّه من أجمل ما يحبّ من تصاميم المقاهي. وهكذا صدر العدد الأوّل والفنّان السوريّ يزين غلافه.

واكبَتْ سنين إصدار "كلمات" قيامي بنشاطات مهمّة في تدعيم الثقافة العربيّة في أستراليا. فعلى سبيل المثال، وفي عام 2002، لبّيت دعوة اتحاد الكتّاب في ولاية نيوساوث ويلز، ضمن مهرجان الربيع الأدبيّ، حيث شاركت في ندوة ضمّت ناشرين يتعاطون في قضايا التعدّديّة الثقافيّة، وأتيح لي الاطلاع مع الآخرين على شؤون وشجون النشر، ولم تكن الانطباعات مشجّعة، لأنّ عددًا من المجلّات توقّف نهائيًّا أو مؤقّتًا، والأسباب عادة ماديّة.

نوّه رئيس الجلسة، الناشر والمحرّر المعروف إيان سايسون، بأنّ "كلمات" تبدو الوحيدة في وضع جيّد مقارنة مع

غيرها بالنسبة لتقدّمها واستمرارها. عقّبتُ على ذلك بقولي إنّ الأعباء كبيرة، لكنّنا نجحنا في استقطاب نخبة من أهل الفكر والكتابة، بالإضافة إلى تقدّم ملحوظ على صعيد الدعم الماديّ من أفراد يؤمنون بأهمّيّة الرسالة التي تحاول "كلمات" نقلها.

أتاحت لي هذه الفرصة تجديد اللقاء مع عدد من الأدباء، والتعرّف إلى عدد جديد منهم أمثال البروفسور مانفريد يورغنسن الذي تفضّل بإهدائي مجموعته الشعريّة الأخيرة آنذاك "شمس منتصف الليل"، وأعطاني حقّ الترجمة، وقدّمت نماذج من قصائده في العدد 12.

كجزء من نشاطات منظمة العفو الدوليّة، وجهت إلينا الدعوة للمشاركة في مهرجان "رودودندرون" في بلدة "بلاكهيث"، إحدى بلدات منطقة "بلو ماونتينز" القريبة من سيدني. قدمت في تلك الندوة تعريفًا باهمّيّة "كلمات" ودور الترجمة في عمليّة التواصل الثقافيّ، ثم قرأت على الحضور ترجمة نويل عبد الأحد لقصيدة "في العلياء" للشاعر حكمت العتيليّ. وهذه القصيدة تتناول استشهاد أحد أطفال الانتفاضة الفلسطينيّة. كما قرأت عليهم قصيدة "أنثى الكلمات" للشاعرة العراقيّة ريم قيس كبّة، بأصلها العربيّ، وتبعتها بترجمتي لها إلى الإنكليزيّة. وسبق نشر كلّ هذه القصائد في "كلمات".

ونتيجة لقراءته في "كلمات" آراءي حول الترجمة والتعبير الحضاريّ، اتصل بي أحد المنتجين في الإذاعة الوطنيّة الأسترالية "إي. بي. سي." ودعاني للمشاركة في برنامج صباحيّ حول تلك المسألة، على الهواء مباشرة يوم 2002/10/22. جاءنا

نتيجة لذلك عدد من الاتصالات التي أعربت عن إعجابها بالخطّ الذي تنتهجه "كلمات"، والاختراق الثقافيّ الذي بدأت تحرزه على أعلى المستويات الأستراليّة.

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فإنّني أحب أن أنوّه بأهمّيّة الترويج لمثل هذه الأعمال. فبعد أن أجرت الفضائيّة السوريّة لقاءً تلفازيًّا معي، أثناء زيارة لي لدمشق، بدأت تصلنا موادّ للنشر ورسائل دعم من بلاد عديدة من أشخاص شاهدوا البرنامج.

ساعدتنا الصحف العربيّة في أستراليا بالترويج للمجلّة، وكانت تنشر كلّ ما تتلقّاه منّا، ومن الكتّاب الذين أرادوا الحديث عنّا. وكذلك فعلت الصحف في سوريا ولبنان ومصر وبعض الصحف العربيّة في أوروبا.

مع اكتمال السنة الثالثة منذ صدور "كلمات"، أي نهاية 2002، كان الأمل لازال كبيرًا. كتبتُ وقتها أنّ المجلّة ماضية في تقدّم ملموس، وازدياد في اهتمام الأدباء والقرّاء من العالمين: الناطق بالعربيّة والناطق بالإنكليزيّة. وأدركت ثُلّة من المفكّرين في سيدني أهمّيّة العمل الذي تقوم به "كلمات"، فنظّم "أصدقاء كلمات"، وعلى رأسهم الصحافي المعروف بطرس العنداري، حفل كوكتيل لدعم "كلمات".

استهلت الاحتفال السيدة الأديبة والإعلاميّة شادية جدعون حجّار التي ألقت كلمة جاء فيها: "... إن 'كلمات' بمواضيعها الكثيرة الغنيّة التي حملتها إلينا لم تكسب صداقتنا فحسب، لا بل احترامنا الفائق لما تضمّنته تلك المواضيع من تراث وتاريخ وفنّ تصويريّ، وأعمال غير منشورة، وترجمات

فتحت لنا مجال المقارنة، حتى أصبحت وسيلة صدوقة، مُسعفة، مُخلصة، تتحلّى بصفات الصديق تمامًا، الذي يشغله هم التواصل الثقافيّ بين الذين لا يتقنون سوى لغاتهم الأم."

وجاء في كلمة الأستاذ بطرس العنداري: "في عصرٍ ضمر فيه الزمن وتقلّصت المسافات، وقضمت العولمة رحاب الأفكار المبدعة، في عصر جرفت فيه المحيطات الهائجة الينابيع والتلال الخضراء، واجتاح الكبيرُ الصغير، في هذه الغابة المكفهرّة التي كثرت فيها الكواسر، ما زال للكلمة معنى وما زال للفكر والإبداع أصدقاء، وما زلنا نؤمن بقيم التراث، وبما تركه لنا الأوّلون من روائع وإنجازات، وبما يقدّمه المعاصرون من عُصارة فكر وجهد ومساهمات تَرْفد الحوض الإنسانيّ الشامل الذي يحفظ إنسانيّة الإنسان من الانهيار والتهوّر في عالم الهيمنة والغطرسة."

وأضاف: "لعبت المجلّة الفصليّة 'كلمات' خلال ثلاث سنوات من عمرها، دورًا رائدًا في مجال نشر آفاق الإبداع العربيّ إلى الأوساط الأستراليّة وسائر البلدان الناطقة بالإنكليزيّة، كما نقلت إلى المهتمّين والمعنيّين العرب نماذج كثيرة من الأدب الأستراليّ وغيره. إنّها لعملية اختراق ثقافيّ وتوسّع فكريّ كانت وما زالت ضروريّة وتستحقّ التواصل."

السيدة ملك واصف-إدغار، مديرة "مصر الحيّة" (Egypt Alive)، ملبورن، أستراليا، ساهمت في جعل بعض المكتبات العامّة يشترك في "كلمات"، بالإضافة لدعمها الدائم عبر مؤسّستها. وكانت رسائلها إلينا مليئة بالمحبّة والتقدير، كما

في المثال التالي: "اسمحوا لي أن أؤكّد لكم أنّني بالكاد أستخدم لغة المبالغة فيما يتعلّق بما أقرأه في أستراليا، ولكن أحبّ مجلّتكم حبًّا جمًّا، فهي مجلّة تتّصف بسعة الأفق وعمق المحتوى، ولا شك أنّ عمليّة تفكير كبيرة تقف وراء تصميمها وتنفيذها. لكم منّي كلّ دعمي دون قيد أو شرط."

ومن أمثلة التبادل مع العالم العربيّ، تلك العلاقة المميّزة مع الأستاذة نهاد شبّوع، أديبة ومربّية، وكانت رئيسة رابطة أصدقاء المغتربين، حمص، سوريا، إلى يوم وفاتها. كانت دائمًا ترسل تعليقاتها كما في الأمثلة التالية التي ألقت الضوء وأشادت على نشاطات "كلمات" المختلفة.

"كان العدد العاشر من 'كلمات' كالعادة دليلًا جديدًا ناطقًا بمسيرة التحديث والمعاصرة والارتقاء تبويبًا، ومضمونًا، وشكلًا، وتنوّعًا، وثراءً ... قفزة أبرز يحققها العدد العاشر في تعدّدية جغرافيّة الكتّاب الأدباء من أدنى الشرق إلى أقصاه، مرورًا بأرجاء الغرب، وصولًا إلى أستراليا. وفي هذا ما فيه من الأخذ من ثقافة كلّ بلد بطرف، ومن تلمّسٍ لمفاهيمه ومناحي تفكيره، وبالتالي من مزيد من تقصير المسافات بين الإنسان وأخيه الإنسان، لاسيّما على الصعيد الثقافيّ الحضاريّ."

"ثم قفزة أخرى نلحظها في باب 'نديف ثلج' الحامل، إلى جانب شفافيّة التسميّة وشاعريّتها، عميق المدلول والقصد في تحريك مهمّة الكاتب والقارىء في آن واحد، وفي تعميق علاقتهما الجدليّة، حيث يجب أن يدرك الأوّل أنّه يكتب إذ يكتب لا ليسطّح الفكر ويبلّد الأحاسيس لتتثاءب فتنام، بل ليحرّك،

ويدهش، وليوقظ رأيًا، وليقدح فكرًا، وليثير حيرة حول مغزى أو معنى، وحيث يجب أن يدرك الثاني (أي القارىء) أنّه المكمّل لهذا الكاتب الباحث معه المتحفّز لاكتشاف دقائق في نصّه، تقع عليها معرفته أو ذائقته، فيدلّ عليها مقنعًا أو غير مقنع. وهكذا يخصب حوار الأفكار ويثمر، وفي هذا ما فيه من أعمدة مجلّة 'كلمات' وأساساتها."

"هذا، ناهيك عمّا يحمله باب 'محافل الأدب' لمستشار 'كلمات' الأديب خالد الحلّي من متعة وتوسيع آفاق، حيث بيادر الحصاد الفكريّ العربيّ، يهتدي إليها القارىء العربيّ المهاجر في أستراليا وغير أستراليا بتلك الإضاءة المختصرة الشاملة السابرة كلّ بيدر ... بكلّ تجرّد وحياد وإيضاح."

"تلقينا 'كلمات' الانكليزيّة، العدد الحادي عشر، وكان فيها العبق الخاصّ المشوّق، ربّما لأنّنا نعمنا بلقاء صاحبها حين زارنا مؤخّرًا في حمص، هذا اللقاء الذي وإن جاء قصيرًا، فقد استطاع أن يعرّفنا أكثر فأكثر بالإخلاص، والذكاء، وشموليّة الثقافة، وهدوء الحكماء، ممّا طالما تجسّد أحرفًا في 'كلمات'. واليوم ينشرح بها صدر الوطن وعيونه عن كثب ويعلن الفرحة والاعتزاز بابنائه المنتشرين مرّة أخرى بعد مرّات!"

"كلّما تصلنا أوّل نسخة من عدد جديد من 'كلمات' يتخاطفها أعضاء الرابطة حبًّا وشغفًا، ولقد وقع أحد الشعراء هنا في مأزق حين أعار بعض مالديه من أعداد لصديق مهتمّ بالثقافة، لكنّ هذا الأخير لم يرجعها. أثار هذا الأمر حفيظة الشاعر ونقل همّه إلينا، فحضرتني في هذا المجال طرفة للشاعر

المهجريّ زكي قنصل، رحَمهُ الله، وكان لي لقاء أوّلي به في الأرجنتين، مهجره، ومن ثمّ ثلاثة لقاءات في الوطن الأمّ ... لقد ألصق تلك اللافتة على خزانة كتبه: 'مجنون من يعير كتابًا'، ليردفها بأخرى تحتها: 'والأجنّ منه من يرجع الكتاب!' ترى هل يكون الصديق أكثر جنونًا من الشاعر فيرجع له المجلّات؟ ربّما. أعدك بأن أنقل إليك النتيجة."

وكتبت الأديبة الشاعرة السوريّة دعد طويل قنواتي مرّة تقول: "أود أن أشكركم لنشركم بعضًا من مقطوعاتي الشعريّة في العدد العاشر من 'كلمات'، وأن أعبّر أيضًا عن إعجابي بالتنوّع الذي اتسم به هذا العدد. نقطة علاّم التي تناولت الفنّانة ليونورا هاوليت ممتعة جدًّا لما احتوته من تنوّع في مصادر استيحائها لمنابع فنّها ولمكوّنات شخصيّتها أيضًا. كذلك أقدّر الدراسة التي تناولت أسواق وخانات مدن 'ألف ليلة وليلة' لما تشكّله 'ألف ليلة' من سجلّ حضاريّ كامل يجعل من هذا الكتاب شيئًا أهمّ بكثير من مجموع القصص الشيّقة والمثيرة التي يشتمل عليها، والتي تتضمن أبعادًا أعمق بكثير من السطح القصصيّ. كما أحبّ أن أبدي إعجابي بتحوّل 'نديف ثلج' إلى منبر يسمح للآراء المتناقضة بالظهور. كما أعجبت بنقاط كثيرة مما ذكرتموه في 'كلمات ... ونقوش الإبداع في الوجدان'، والتي تناولت فيها مشاقّ الترجمة، وأوافقك على رأيك في ضرورة النقل الدقيق دون الوقوع في الترجمة الحرفيّة، أو التشويه أو التحسين أو التمويه. وأضيف إلى هذا ضرورة نقل المناخ وجدانًا وموقفًا وهو عامل التحدّي الكبير، لا سيّما في القصائد التي

يلعب فيها المناخ والموقف دورًا هامًّا كما دور المعاني والصور والتداعيات."

وكتبت الأديبة عايدة أديب من السعوديّة: "لا توجد في قاموس قلبي كلمة تعبّر عن مدى شكري العميق للمجلّة الرائعة جدًّا والغنيّة بكلّ ما هو مفيد وجديد، وهي غنيّة عن كلّ كلمات الثناء والشكر التي لا تصف مدى امتناني لما تجسّده من تعبير واضح عنّا نحن المثقّفين، وتبيّن للعالم بأنّنا شعب واع مثقف. أتمنّى لـ 'كلمات' التقدم والازدهار، هذه اللؤلؤة المتألّقة التي تزهو بها الأرض، والتي نأمل أن تزداد رسوخًا وشموخًا يومًا بعد يوم، فتحيّة لكم ومرحبًا بصدور أعداد جديدة من المجلّة واستمرارها رائدة في خدمة الثقافة والفكر والإبداع."

وتحت عنوان "الجهاد عبر الكلمة الخلاّقة" كتب نويل عبد الأحد من الولايات المتّحدة الأميركيّة: "مَن غير الفنّان الأصيل، يُقدّر جسامة العبء والمسؤوليّة الباهظة الملقاة على أكتاف 'المجاهدين' الذين تطوّعوا – عن محبة – في رفع راية الكلمة؟"

ويستشهد عبد الأحد بما قاله الأديب وديع فلسطين، في مقال نشره في مجلّة الهلال الراقية (آب/أغسطس 2004)، فيقول: "كما تحدّث بإسهاب، في المقال نفسه، عن مجلّة 'كلمات' التي أنشأها الدكتور رغيد النحّاس في المهجر الأستراليّ قبل حوالي أربع سنوات، ونوّه بالدور الطليعيّ الرائد الذي لعبته هذه المجلّة ولا تزال، بفضل 'جهاد' مؤسّسها وتضحياته الجمّة. فهي إحدى أهمّ الجسور التي تصل ثقافة الأدباء العرب في أستراليا وأميركا مع ثقافة الأدباء العرب المعاصرين في العالم

العربيّ، ساعيًا بذلك أن يعيد مجد الكلمة التي شعّت على أيدي كتّاب وشعراء المهاجرين الأوائل."

كان الراحل نويل عبد الأحد من أخلص الناس للمجلّة ولرسالتها. وتطوّرت علاقتنا إلى صداقة بين طرفي العالم. كنت أحدّثه مرّة في الأسبوع على الأقل. ونويل، الذي كان مستشارًا للمجلّة، هو من عرّفني على البروفسور بسّام فرنجيّة الذي قدّم لنا المشورة والدعم أيضًا بحكم مركزه الأكاديميّ في جامعات الولايات المتّحدة الأميركيّة.

وكنت على تواصل مع الأديبة السوريّة الكبيرة غادة السمّان، التي كانت من المشجّعين والمروّجين للمجلّة ورسالتها، بنشرها عن "كلمات" في "الحوادث" التي كان لها زاوية فيها.

وتبقى ردود فعل غير العرب مهمّة بالنسبة لتقييم مدى توصيل ثقافتنا العربيّة إليهم. وأعتقد أنّ دور "كلمات" ثنائيّ اللغة ساهم مساهمة كبيرة في هذه العمليّة. وكما نوّهنا، كون مجموعة من المستشارين المهمّين، الناطقين بالإنكليزيّة، قدّمت لنا خدماتها، دليل بحدّ ذاته على إيمانهم بأهمّيّة هذا العمل، وتقدير كبير منهم له. ولقد كانت هناك مبادرات تشرح القلب، أذكر بعضها هنا.

أرسلت مرّة رسالة شكر لمستشارتنا صوفي ماسون (الآن الدكتورة) حول دعمها للمجلّة من طريق ما تقدّمه من خدمات استشاريّة، ومواضيع للنشر. كان جوابها الذي أترجمه هنا، وهي التي شغلت منصب رئيسة الجمعيّة الأستراليّة للمؤلّفين، ولها أكثر من سبعين كتابًا: "أعتقد أنّك شخص موهوب بشكل غير

عاديّ، مفكّر، ومهتمّ بما تقوم به. أعتقد أنّ أستراليا تزداد غنى، بشكل كبير جدًّا، بأمثالك وعائلتك. كما أعتقد أنّك كاتب جيّد ولديك أشياء ممتعة للنشر ... أنا مؤمنة بشكل عظيم بقيمة وأهمّيّة مجلّة مثل 'كلمات'."

وقامت صوفي ماسون، عام 2004، بإجراء مقابلة معي تمخّضت

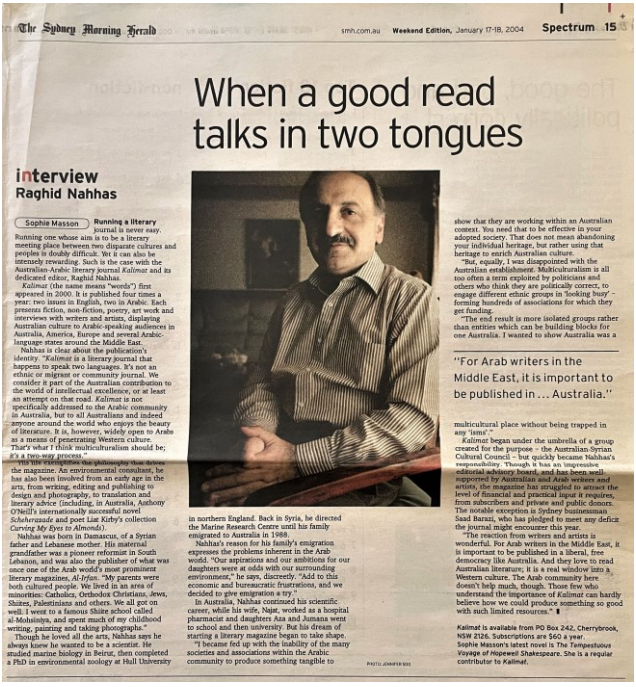

The Sydney Morning Herald smh.com.au Weekend Edition, January 17-18, 2004 Spectrum 15

When a good read talks in two tongues

interview
Raghid Nahhas

Sophie Masson

Running a literary journal is never easy. Running one whose aim is to be a literary meeting place between two disparate cultures and peoples is doubly difficult. Yet it can also be intensely rewarding. Such is the case with the Australian-Arabic literary journal *Kalimat* and its dedicated editor, Raghid Nahhas.

Kalimat (the name means "words") first appeared in 2000. It is published four times a year: two issues in English, two in Arabic. Each presents fiction, non-fiction, poetry, art work and interviews with writers and artists, displaying Australian culture to Arabic-speaking audiences in Australia, America, Europe and several Arabic-language states around the Middle East.

Nahhas is clear about the publication's identity. "*Kalimat* is a literary journal that happens to speak two languages. It's not an ethnic or migrant or community journal. We consider it part of the Australian contribution to the world of intellectual excellence, or at least an attempt on that road. *Kalimat* is not specifically addressed to the Arabic community in Australia, but to all Australians and indeed anyone around the world who enjoys the beauty of literature. It is, however, widely open to Arabs as a means of penetrating Western culture. That's what I think multiculturalism should be; it's a two-way process."

You can recognise the philosophy that drives the magazine. An environmental consultant, he has also been involved from an early age in the arts, from writing, editing and publishing to design and photography, to translation and literary advice (including, in Australia, Anthony O'Neill's internationally successful novel *Scheherazade* and poet Liat Kirby's collection *Curving My Eyes to Almonds*).

Nahhas was born in Damascus, of a Syrian father and Lebanese mother. His maternal grandfather was a pioneer reformist in South Lebanon, and was also the publisher of what was once one of the Arab world's most prominent literary magazines, *Al-Irfan*. "My parents were both cultured people. We lived in an area of minorities: Catholics, Orthodox Christians, Jews, Shiites, Palestinians and others. We all got on well. I went to a famous Shiite school called al-Mohsiniya, and spent much of my childhood writing, painting and taking photographs."

Though he loved all the arts, Nahhas says he always knew he wanted to be a scientist. He studied marine biology in Beirut, then completed a PhD in environmental zoology at Hull University in northern England. Back in Syria, he directed the Marine Research Centre until his family emigrated to Australia in 1988.

Nahhas's reason for his family's emigration expresses the problems inherent in the Arab world. "Our aspirations and our ambitions for our daughters were at odds with our surrounding environment," he says, discreetly. "Add to this economic and bureaucratic frustrations, and we decided to give emigration a try."

In Australia, Nahhas continued his scientific career, while his wife, Najat, worked as a hospital pharmacist and daughters Aza and Jumana went to school and then university. But his dream of starting a literary magazine began to take shape.

"I became fed up with the inability of the many societies and associations within the Arabic community to produce something tangible to show that they are working within an Australian context. You need that to be effective in your adopted society. That does not mean abandoning your individual heritage, but rather using that heritage to enrich Australian culture.

"But, equally, I was disappointed with the Australian establishment. Multiculturalism is all too often a term exploited by politicians and others who think they are politically correct, to engage different ethnic groups in 'looking busy' – forming hundreds of associations for which they get funding.

"The end result is more isolated groups rather than entities which can be building blocks for one Australia. I wanted to show Australia was a multicultural place without being trapped in any 'isms'."

> "For Arab writers in the Middle East, it is important to be published in ... Australia."

Kalimat began under the umbrella of a group created for the purpose – the Australian-Syrian Cultural Council – but quickly became Nahhas's responsibility. Though it has an impressive editorial advisory board, and has been well supported by Australian and Arab writers and artists, the magazine has struggled to attract the level of financial and practical input it requires, from subscribers and private and public donors. The notable exception is Sydney businessman Saad Barazi, who has pledged to meet any deficit the journal might encounter this year.

"The reaction from writers and artists is wonderful. For Arab writers in the Middle East, it is important to be published in a liberal, free democracy like Australia. And they love to read Australian literature; it is a real window into a Western culture. The Arab community here doesn't help much, though. Those few who understand the importance of *Kalimat* can hardly believe how we could produce something so good with such limited resources." ▮

Kalimat is available from PO Box 242, Cherrybrook, NSW 2126. Subscriptions are $60 a year. Sophie Masson's latest novel is *The Tempestuous Voyage of Hopewell Shakespeare*. She is a regular contributor to *Kalimat*.

PHOTO: JENNIFER SOO

عن مقالة (بالإنكليزيّة طبعًا) نشرتها على صفحات "سيدني مورنينغ هيرالد"، واحدة من أهمّ الجرائد الأستراليّة، توزّع على مئات الألوف من المواطنين. كانت المقالة بعنوان "عندما يتكلّم النصّ الجيّد بلغتين". تحدّثت فيها عن تجربتي مع "كلمات".

وفي عام 2015، أي بعد تسع سنوات من توقّف "كلمات"، أجرت معي مقابلة نشرتها على مدوّنتها الإلكترونيّة على الموقع التالي:

http://firebirdfeathers.com/2015/12/04/double-act-6-raghid-nahhas/

وترجمتُ هذه المقابلة ونشرتها في الصحف العربيّة، وكذلك جعلتها الموضوع الأخير من كتابي "نصوص عاديّة" (2020) الذي يمكن قراءته من موقعي الإلكترونيّ: raghidnahhas.com

العلّامة البروفسور مانفريد يورغنسن، وأثناء علاقته بالمجلّة، خصّني بقصيدة ترجمتها ونشرتها في الصحافة العربيّة.

كما كرّس عام 2015، أي بعد توقّف المجلّة بتسع سنوات، هديّة إلى رغيد النحّاس: قصيدة من مئة وعشرين سطرًا من كتابه

The River, Boolarong Press, Salisbury 2016

كرّس كاتب القصّة والروائي الأستراليّ غريغ بوغارتس عام 2018، أي بعد توقّف "كلمات" باثنتي عشرة سنة، هذه المجموعة القصصيّة بكاملها إلى رغيد النحّاس "عرفانًا بدعمه وتشجيعه عبر السنين":

Beyond Sunflowers and Starry Nights,
Shanti Arts Publishing, USA 2018

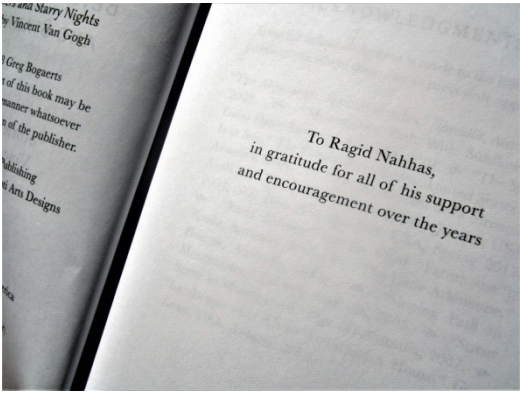

كلّ هذا، بالإضافة إلى المراجعات في المنشورات الأستراليّة التي تقبّلت "كلمات" قبولًا حسنًا. والأهمّ من ذلك أنّها نقلت على صفحاتها الأعمال العربيّة المترجمة إلى الإنكليزيّة كجزء هامّ من المراجعة والنقد.

هذه أمثلة من الجوانب الكثيرة التي حقّقتها "كلمات". ولكنّ هذه الجوانب الأيجابيّة كان مقابلها سلبيّات خطيرة لن أتطرّق إليها بالتفصيل، ولكنّها تتلخص بوجود مجموعات وأفراد ضمن الجاليات العربيّة في أستراليا ما أرادت لهذا المشروع النجاح. ونجح بعضها في "تخويف" بعض الأفراد من دعمنا. أرادوا تسييس مسألة ليس لها علاقة بالسياسة. والهدف طبعًا إبقاء هيمنتهم على أوساط الجاليات العربيّة وكمّ أفواهها، إلّا بما يمرّ من طريقهم وطريق جمعيّاتهم التي تمثّل مشاكل وسياسات واستبداد حكومات بلادهم الأصل. تَقَدُّم "كلمات" لم يكن

مرهونًا بتصرّفات هؤلاء، ولكنّ هذه التصرّفات حرمت الفئات التي تتبعهم من أن يكون لها دور في الاستفادة من هذا العمل.

وبشكل عام لم تعِ الجاليات العربيّة في أستراليا أهمّيّة اختراق الثقافة الغربيّة من أعلى مستوياتها الفكريّة، ولذلك لم يكن هناك دعم فعّال لـ"كلمات". وكنت أعتقد، ربّما عن سذاجة، أنّ الإعلام العربيّ والجمعيّات ومجتمع الجاليات ستجد فيما قُدّم لها على طبق من ذهب، كما يقال، ضالّتها المنشودة في التواصل، على الأخصّ نظرًا لسمعة الأدباء والمفكّرين الأستراليّين الذين كنّا نتعامل معهم. ولكن، كما علّق أحد المتمولين من أبناء الجالية اللبنانيّة حين طرحت أمامه فكرة اختراق الثقافة الغربيّة على هذا المنوال، قال: "ولكن من يقرأ هكذا مجلّة؟" طبعًا يقصد أنّ معظم العرب لن يقرأ مجلّة على هذا المستوى، ولذلك يرى أنّ ليس لها فائدة. صحيح أنّها لم تكن مجلّة ستلقى شعبيّة كتب الطبخ أو الجنس أو المجلّات الاجتماعيّة، ولكنّ صاحبنا فقد البوصلة حين لم يعِ جوهر المسألة.

إذا كان لا بدّ من الحديث عن "الثقافة العربيّة" في بلاد مثل أستراليا، أحبّ أن أذكر أنّ هناك كثيرًا ممّا يمكن أن نفعله في سبيل الحفاظ على اللغة العربيّة وتطويرها في زمن بدأت البلاد العربيّة تفقد أسباب وجودها كمراكز للثقافة العربيّة.

صحيح أنّ "كلمات" توقّفت كمجلّة. لكنّ "كلمات" كدار نشر متواضعة بقيت مستمرة. تعزّز اعتقادي بضرورة الاستمرار فيها نتيجة للحاجة للنشر. ومع أنّني أعلم أنّ نشر

الكتب باللغة العربيّة يجب أن يتمّ في البلاد العربيّة لأنّ هذه هي الطريقة الأمثل منطقيًّا، وخصوصًا من ناحية توزيع الكتاب والتعريف به. لكنّ محاولاتي مع دور نشر متعدّدة، بما في ذلك أفضلها، بيّنت لي أنّ الدوافع الماليّة هي ما يسيطر على الساحة. وإن لم تكن المادّة، فثقافة الاستبداد التي تفرضها رقابة الدولة هي السائدة. مثلًا أرسلت كتابًا للنشر في دار راقية في إحدى الدول العربيّة، فطلبوا منّي إلغاء كلّ ما يتعلّق بالسياسة والدين والجنس والمثليّين. أي طلبوا إلغاء كلّ ما يتعلق بما هو حقيقيّ في الحياة. رفضت طبعًا.

ما تنشره دار "كلمات" هو عادة من كتاباتي أو ترجماتي، والحصيلة إلى الآن (بالإضافة إلى 24 عددًا من "كلمات" قمت بتحريرها) خمسة كتب من أعمالي، وسبعة كتب من ترجماتي، وكتابين لغيري.

يهمّني جدًّا، كجزء من مساهمتي في تطوير الثقافة العربيّة في أستراليا، أن أساعد الأعمال غير المنشورة على الظهور على المسرح الأدبيّ الفكريّ. وهكذا كان منذ أيّام "كلمات" التي نشر فيها بعضهم وبعضهنّ أوّل أعماله وأعمالهنّ. وما نَشْر "كلمات" لأعمال السيّدة كاميليا نعيم في كتاب "ضفاف الانتماء" عام 2020 سوى انتصار للإضاءة على بعض الكنوز المكنونة التي كان يمكن أن لا تظهر سوى شذرات على صفحات التواصل الاجتماعيّ. أمّا الآن فهي كتاب يُضمّ إلى مجموعة الكتب في المكتبة الوطنيّة الأستراليّة، ومكتبة ولايتنا، ومكتبة برلمان ولايتنا، ومكتبة جامعة سيدني، وغيرها من المكتبات والأفراد

والمؤسّسات التي تختار الحصول عليه.

العمل المؤسّساتي مهمّ جدًا للنهوض بالثقافة والمجتمع. العمل الفرديّ أساس، وهناك كثير من الأعمال الناجحة، لكنّ فائدته لا تصل إلى إحداث تأثير في الرأي العامّ حول ثقافة جالية معيّنة، وفعاليّتها في المجتمع الأكبر. كانت جهودي كلّها تصبّ في محاولة خلق تلك المؤسّسة التي تفي بالغرض، مع علمي أنّها كانت ستحدّ من وقتي وإنتاجي الخاصّ. ولكنّني أحسست بواجب أردّه إلى ثقافتي الأصل. كان عمر المؤسّسة التي بدأتها قصير جدًّا، فحين غادرتها محتجًّا على تقصيرها في دعم أهداف المجلّة، وحرصًا على استمرار المجلّة دون تشويش، فشلت تلك المؤسّسة بالاستمرار، لأنّها على ما يبدو ربطت وجودها بوجود شخص واحد، أو عجزت عن القيام بما كان يقوم به هذا الفرد، ولم تحاول إيجاد بدائل تعطيها أسباب الاستمرار.

ألخّص بقول إنّ تجربتي مع "كلمات" كانت غنيّة جدًّا على الصعيدين الشخصيّ والعام. كان أهمّ ما فيها (من وجهة "الثقافة العربيّة") هو تمكّني في أحوال كثيرة من تسليط الضوء على أعمال بعض العرب من خلال الترجمات التي قدّمناها، والتي تلقّاها بعض الأستراليّين الناطقين بالإنكليزيّة بدهشة كبيرة، مثلًا حين اكتشفوا وجود شعراء عرب معاصرين يكتبون على مستوى لائق. بهذه الطريقة صار للثقافة العربيّة "معنى" ضمن بيئتها الأستراليّة.

وكذلك العلاقات التي حقّقتها، والتي أدّت ببعض المهتمّين المعروفين إلى التعبير عن إعجابهم بهذا المشروع لدرجة كتابة

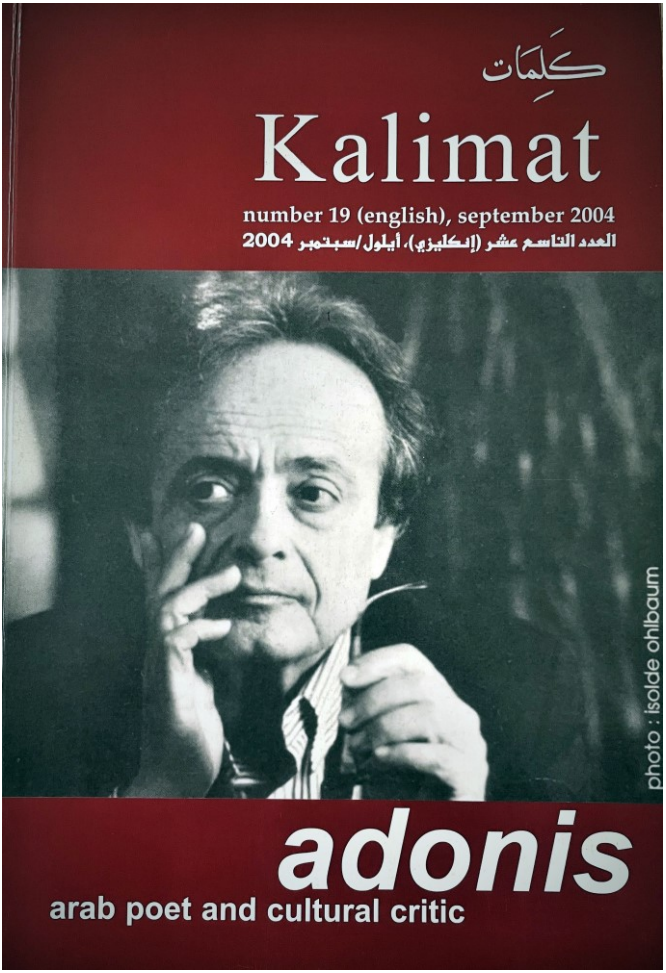

مثال عمّا كانت تقوم به "كلمات" من
التعريف بالإبداع العربيّ في أعدادها الإنكليزيّة

القصائد وسكب الإطراء كما استعرضت أعلاه، إنّما يدل على نجاح التوصيل ومدّ الجسور الثقافيّة. والحقيقة أنّه حينما طلب منّي الدكتور علي أبو سالم تقديم موضوع عن "الثقافة العربيّة في أستراليا"، هرعت إلى ملفّات "كلمات"، محاولًا تذكّر وإعادة اكتشاف المحطّات المختلفة في عمر "كلمات" القصير. لمحت في أعلى رفوف مكتبتي مصنّفًا منتفخًا بالوثائق كدت أنساه تمامًا. أحضرت سلّمًا صغيرًا ليمكنني من الوصول إليه. وحين بدأت بنبش محتوياته دهشت لما رأيت من وفرة المعلومات والمخطوطات والرسائل التي يمكن أن تجتمع في كتاب، وحتمًا لا يتسع المجال هنا لاستعراضها. شعرت بفخر كبير، وزاد تعزيز شعوري بأهمّيّة ذلك الإنتاج.

ويسألني كثيرون الآن عن رأيي في مستقبل الثقافة العربيّة في أستراليا، وعن أفضل الطرق في صيانتها وتطوّرها. وجوابي يعتمد طبعًا على تجربتي من ناحية، وعلى قراءتي لما يجري على الساحة. وأحبّ هنا أن أقدّم جوابًا صريحًا عمليًّا غير "طوباوي".

أبدأ بالقول إنّ هنالك عدّة طرق ومستويات لتعزيز الثقافة في أيّ مكان. أحيانًا يقوم فرد واحد بتأليف كتاب يقلب العالم. وأحيانًا تعجز دولة عن الحفاظ على نفسها. الأعمال الفرديّة أساس. وليس من الضروريّ أن يكون الأديب أو الفنّان جزءًا من أيّ تكتل. وقد يكون من الأفضل له أن يكون مستقلًّا. ولكن حين يتعلّق الأمر بتطلعات تتعدّى مجرّد الإنتاج الأدبيّ الفرديّ، إلى شؤون مثل التواصل الثقافيّ، أو تعزيز مركز مجموعة أقلّيات معيّنة ضمن ثقافة الأكثريّة، عندها يأتي دور

ممارسات مثل الترجمة، أو إنشاء المؤسّسات. المؤسّسات يجب أن تلزم نفسها بخدمة الفرد من ناحية، وتحقيق رسالة أوسع من ناحية أخرى، وأهمّ ما فيها خدمة المجتمع والدولة، ومن ثمّ الإنسانيّة عمومًا.

تجربتي الخاصّة تدلّ على أنّ الأمر سيستمرّ كما هو معروف، وذلك أنّ النجاح سيعتمد دائمًا على الجهد الفرديّ، وسيكون بين العرب دائمًا من هو بارع في طروحاته وإنتاجه على المستوى اللائق. ويوجد لدى الجالية العربيّة في أستراليا عدد من هؤلاء يعدّ على الأصابع. وبالمقابل هناك عشرات من مدّعي الفكر والأدب الذين ينتشرون كالسرطان. لا بدّ من اعتماد المراجعة والنقد قبل النشر، وهذا أمر لا يحصل في معظم الحالات. كما لا بدّ لمن يراجع الأعمال بعد النشر ويعلّق عليها أن يتّصف بالموضوعيّة، وأن لا يخشى تبيان العيوب. يجب التخلّص من ثقافة النفاق والمحاباة. وعلى بعض من يكتب، على وجه الخصوص، أن يعي أنّه ربّما لا يصلح للكتابة، أو أن كتابته قد تصلح نثرًا ولا تصلح شعرًا، وهكذا. ويجب أن يعي العرب الذين يتقنون الإنكليزيّة أنّ إتقان هذه اللغة لتصريف الأمور العاديّة يختلف عن توظيفه في الترجمة الأدبيّة. أحزن كثيرًا على بعض الأعمال الشعريّة الرائعة التي دمّرتها الترجمة تدميرًا.

وستستمرّ التجارب في إنتاج المنشورات المقتصرة على اللغة العربيّة، وطبعًا هذا ضروريّ طالما أنّها تتوخّى الرقيّ في ما تنشر، كما تحاول "الجذور" أن تقوم به الآن. ولكن حتّى يتمّ توصيل هذه الأمور إلى المجتمع الأستراليّ الأكبر، أقترح تخصيص

قسم باللغة الإنكليزيّة على موقع "الجذور" يعطي ملخّصًا عن محتويات كلّ عدد، ويختار بعض الأعمال العربيّة للترجمة إلى الإنكليزيّة.

وأنا شخصيًّا أجد أنّ الحلّ الأمثل هو تجربة مثل "كلمات"، أي اعتماد إصدارات بالعربيّة والإنكليزيّة. هذا سيكون أسهل بكثير ممّا كان عليه الأمر أيّام "كلمات"، لأنّ الاتجاه الآن هو نحو النشر الإلكترونيّ، وكذلك صار النشر الورقيّ أسهل، وأقلّ كلفة، بوجود الطباعة الرقميّة. لكنّ التحدّي الكبير هو في إنشاء مؤسّسة ترعى المشروع، فكما يتّضح من مقالتي هذه كانت خيرات المديح والثناء تغمرني وتغمر مجلّتي. لكنّ المشروع عجز عن الاستمرار، رغم فاعليّته، لغياب المؤسّسة. ومع الأسف، أعتقد أنّه لن ينجح مثل هذا المشروع ضمن المعطيات الحاضرة، لأنّ الأكثريّة العربيّة لا ترى فيه فائدة، أو لا تعي أهمّيّته. أمّا المؤسّسة الأستراليّة فعندها بعض المنح للمساعدة في هذه الأمور، لكنّها غير مضمونة أو كافية. كما أنّ التركيز الرئيس هو بطبيعة الحال على الثقافة الأنكليزيّة السائدة بمؤسّساتها ونشاطاتها. ويمكن طبعًا للأفراد المساهمة بالإنكليزيّة، بما في ذلك ترجماتهم من العربيّة.

أستراليا غير معنيّة مباشرة، وغير مجبرة، بترقيّة اللغة العربيّة، لكنّها توفّر جوّ الحرّيّة اللازم ليقوم الأفراد والمؤسّسات بما يرونه مناسبًا.

لغة الماء، ولهجة النهر

قبل مشروع "كلمات"، الذي بدأته عام 1999، كنت لفترة مستشارًا للتحرير، ورئيسًا لتحرير الأعداد الإنكليزيّة من مجلّة "جسور" التي كانت تصدر في سيدني. وفيما يلي معظم الكلمة التي ألقيتها في احتفال سنويّ للمجلّة، ونُشرت في العدد السادس منها، 1998. أضمّه للكتاب الحاليّ للتأكيد أن كثيرًا من أفكاري الحاليّة قديم العهد، خصوصًا ما يتعلّق بالنشر والترجمة والكتابة.

اختارت "مجموعة الحرّيّة والإبداع" عنوان "لغة الماء" لحفل اليوم. لذلك أستهلّ كلمتي بواحدة من أهمّ لهجات هذه اللغة، ألا وهي لهجة النهر.

النهر شبكة للماء جامعة، ومخزّنة، وموزّعة، وموصلة للكائنات الحيّة، وللأجسام الجغرافيّة الأخرى. والنهر سخيّ يسمح لنا باستخدام جسمه لسباحتنا ومراكبنا، وغيرها من اختراعاتنا وملوّثاتنا. النهر بتنوّعه ومرونته عامل موحّد، يشكّل وسطًا مشتركًا تتصل الروافد من خلاله وتساهم. بل لكلّ قطرة ماء إسهامها. وإذا شئت، لكلّ فرد في كلّ تجمّع حضاريّ إسهامه في المجتمع الأستراليّ.

أنا على يقين أنّ أستراليا عمومًا ملتزمة بكلّ شعبها. وتتردّد كلمة "التزام" كثيرًا على ألسنة المسؤولين، وغيرهم، على أنّها عماد أن تكون أستراليا بلدًا موحّدًا متعدّد الثقافات: نهرًا متعدّد الروافد. أمّا كيف يتحوّل العهد الحكوميّ المقطوع إلى حقيقة

فعّالة، فهذا ما سيبيّنه الوقت، خصوصًا أنّ الاتجاهات الحاليّة لاقتصاديّات السوق في أستراليا، مع ما يرافقها من أساليب الإصلاح الاقتصاديّ، تقنعني أنّه مهما بلغ التزام الدولة بشؤون التعدّديّة الثقافيّة، هناك حاجة متزايدة لأن يقوم الأفراد والجاليات العربيّة بمبادرات تتوحّد فيها مطالبهم ذات الشأن المصلحيّ العام، خصوصًا فيما يتعلّق بحماية تراثهم، وتحديد دور هذا التراث ضمن المحتوى الأستراليّ العامّ. هذا الأسلوب يعطي الجاليات العربيّة صوتًا أشدّ تركيزًا ووضوحًا، فتفهمه الجاليات الأخرى والحكومة. ويزوّد الجاليات العربيّة بوسط من القيم المرجعيّة والمعايير التي يمكن استخدامها في عمليّة المراجعة الذاتيّة.

أقترح مثلًا تشكيل منتدى، أو هيئة لمساعدة الحركة الأدبيّة العربيّة على تمييز المواهب الجديدة، وصقل المواهب المعروفة، ودعم المواهب المرسّخة.

أين يلتفت الكاتب العربيّ في أستراليا بغية التنقيح والتقريظ والمراجعة؟

من المهمّ جدًّا أن يعي الأستراليّون العرب أنّ إحدى طرائق تحقيق هكذا منتدى لا تكون فقط في قبول أسلوب الديمقراطيّة الأستراليّة، بل في تبنّي هذا الأسلوب كأداة عمل. وعليهم أن يقبلوا النقد البنّاء، ولا يغضبوا بسببه. أؤكّد على هذه الناحية لقناعتي بأنّها إحدى أهمّ العقبات في وجه رافدنا الذي يتوق للانصباب، والتأثير الفعّال في نهر الحياة الأستراليّة.

تلعب وسائل الإعلام العربيّة دورًا رائدًا في إخبار وترفيه

وتثقيف الجاليات العربيّة، خصوصًا التفاعل ما بين الرافد والنهر. وقد تكون للبعض المصدر الوحيد من نوعه، ولهذا تتعاظم المسؤوليّة الملقاة على وسائل الإعلام. وأرى أنّها إذ تضطلع من مهامّها لا بدّ لها من إعادة النظر في طرائقها بعد تطوّر وسائل البثّ المباشر من "الشرق الأوسط"، وبقيّة أنحاء العالم. مثلًا عليها إيجاد دور أستراليّ مميّز متحرّر من أساليب مثيلاتها في المواطن الأمّ. وعليها العمل على منع الركود، والتكرار المملّ. وكذلك مراقبة الجودة. اللغة، مثلًا، تحتاج إلى صيانة، فعليها أن تقدّم موادّها الإذاعيّة بلغة واضحة صحيحة. فحين يتمّ شكل (لفظ) أواخر الكلمات بدقّة، يجب أن لا نهمل بقيّة حروف الكلمة. ولئن كانت الزخارف جميلة، فإنّ المضمون هو ما يهمّ في النهاية. العمليّة عمليّة شموليّة لا تكفي فيها الكلمة الرنّانة، ولا الصوت الجهوريّ، ولا الحذلقة في محاولة لفظ الكلمات الإنكليزيّة خارج حدود إمكانيّاتنا، خوفًا من كشف لكناتنا، فنكشف مزيدًا من عوراتنا.

لا بدّ لنا من تقدير أهمّيّة اللغة الإنكليزيّة كلغة رسميّة لبلادنا، وكلغة عالميّة في الصفّ الرئيس. ولعلّ إصدار "جسور" الحاليّ خير مثال على هذا التقدير، وعلى كون مؤسّستها مؤسّسة أستراليّة عربيّة فاعلة. وأتطلّع إلى يوم يصدر فيه أوّل عدد لجريدة عربيّة باللغة الإنكليزيّة.

أعتبر الترجمة ضروريّة للتواصل في المجتمع الأستراليّ المتعدّد اللغات، وللاتصالات العالميّة. بيد أنّها قد تشكّل موضوعًا مثيرًا للجدل بالنسبة لبعض الأدباء الذي يرى فيها

تشويهًا لعمله الخلّاق. ولكنّي بصفتي أتعامل مع الكتابة والترجمة، لا أرى فيها حرجًا. أعتقد أنّ المشاكل التي ترافق الترجمة هي من فعل المترجمين أنفسهم عمومًا، وليس العمليّة بحدّ ذاتها. وباختصار، لا يمكن للترجمة الجيّدة أن تبزّ الأصل، وإلّا تكون تشويهًا. ولا يمكن للمترجم الجيّد أن يعيد تخليق الأصل الرديء، ويقول عن عمله إنّه ترجمة طبق الأصل.

كأنّي بالترجمات هاتيك المناطق الدارئة بين الروافد والنهر، وبين النهر والبحر. لغة الماء هناك تغيّر ملوحتها، فتظهر أنواع حياتيّة مختلفة. كثير من هذه الأنواع مهاجر يضبط فيزيولوجيّته وفق اللهجات المختلفة التي تتكلّمها لغة الماء. هؤلاء هم أفضل المترجمين.

لا يتطلّب التفاعل الثقافيّ ترجمة اللغة، أو تكلّم لغة البلاد فحسب، وإنّما يتطلب جهدًا أكبر: "الحَلْوَدَة"، أو فكّ رموز الشيفرة. نعم، لكلّ ثقافة وجماعة وعصبة رموزها الخاصّة التي تكاد تكون لغة جديدة. قد تتعلّم الإنكليزيّة بجدارة في مدرسة في دولة عربيّة، لكنّ هذا وحده ليس جواز عبور لحاجز التواصل مع إنكليزيّ، أو يابانيّ تعلّم في طوكيو، مستخدمًا الكتاب عينه الذي استخدمته أنت. الجهد المطلوب هو في أن يصاحب تعلّم اللغة تفهّمًا وقبولًا للإرث الثقافيّ الأستراليّ، بما في ذلك الثقافات التي تكوّن مجتمعنا، خصوصًا الـ"أنكلوسكسونيّة" التي تشكّل معظم النهر. التعدّديّة الثقافيّة عمليّة متعدّدة الاتجاهات، وكذلك تدفّق النهر.

الإرث الثقافيّ العربيّ واحد من أغنى المواريث في العالم. وإن

تكن الهزّات السياسيّة قد حجبته هذا القرن، إلّا أنّه ما زال كامنًا يكشف عن ماهيّته من خلال الإنتاج الأدبيّ المحلّي، أو في أماكن بعيدة على جدران قصر الحمراء في الأندلس، مثلًا، شاهدًا على قرون من التفاعل العربيّ الأوروبيّ. الأهمّ من ذلك أنّ عناصر هذا التراث موجودة في كلّ واحد منّا، ومشاركتنا إيّاها مع أستراليا التي فتحت لنا أبوابها دليل وعي وحبّ.

النهر وسط. النهر متوالية واستمرار. لنُضِفْ إليه حتّى لا يجفّ. ولنكن على وعي بما نضيف. التلوّث في النهر قد ينتشر لأيّ مكان، وربّما في كلّ مكان. قطرة الماء النقيّة يمكن أن تنتشر أيضًا لأيّ مكان أو في كلّ مكان.

احتواء التلوث، وتحسين خواصّ ثقافة النهر مسؤوليّة تقع على عاتق الجميع. نأمل ذات يوم أن تتكلّم أستراليا كلّها لغة الماء. أوليست هي لغة الحياة؟

امتنان

عميق امتناني للبروفسور بسّام فرنجيّة، أستاذ الأدب العربيّ في جامعات الولايات المتّحدة الأميركيّة، على تعليقة الذي زيّن الغلاف الخلفيّ لهذا الكتاب.

الشكر الدائم لمدرّسة اللغة العربيّة في الجامعة الأميركيّة في بيروت، رغدا النحّاس-الزين، مرجعي اللغويّ بامتياز. وبما أنّ الظروف لم تسمح لها تدقيق الكتاب مباشرة، فإنّ أيّ خلل لغويّ موجود، أو تفضيل طريقة على أخرى، هو مسؤوليّتي وحدي.

تقديري للصديق الدكتور علي أبو سالم، الحاضر أبدًا، لتقديم المشورة الفكريّة والفنيّة، دون كلل أو ملل.

ومن بين عدّة تصاميم للغلاف، كان لا بدّ من كسر حيرتي، واختيار واحد ترتاح له عين المتلقّي. استعنت بالصديقة الناشطة الاجتماعيّة السيّدة سناء أبو خليل، وزوجتي الصيدلانيّة نجاة نظام، فكان الغلاف الحاليّ. وشكري الخاص لنجاة التي قامت أيضًا بالمراجعة الأخيرة للمسودّة المطبوعة.

نُشر بعض هذه النصوص في "عرب-أستراليا"، سيدني. و"التلغراف"، سيدني. و"الجذور"، ملبورن. وبعض الصفحات والمواقع الإلكترونيّة. فالشكر لكلّ وسائل الإعلام التي سبق أن نشرت أو عرّفت ببعض ما جاء في هذه المجموعة.

رغيد

من منشورات رغيد النحّاس الأدبيّة السابقة
متوفّرة مجّانًا على www.raghidnahhas.com

Nahhas, Raghid 2021. *In Italics*. (In English and Arabic.) A poetry collection with some photography.

Hajjar, Nijmeh 2021. السندباد ابن البلاد (Alsanadbad, Son of the Motherland). In Arabic. Retelling the stories of Sindbad in simple Arabic narrative. Kalimat, Sydney.

Nahhas, Raghid 2020. نصوص عاديّة (Unremarkable Texts). In Arabic. A collection of prose pieces. Kalimat, Sydney.

Naim, Camilia 2020. ضفاف الانتماء (Shores of Belonging). A collection of Arabic literary prose writings. Kalimat, Sydney.

Nahhas, Raghid. 2019. The Cities. Translations of a selection of poetry by Ghassan Alameddine from his six collections. Kalimat, Sydney.

Nahhas, Raghid 2018. Fullmoon. (In English and Arabic.) A poetry collection, with some prose and photography. Kalimat, Sydney.

al-Hilli, Khalid 2019. No One Knows My Name. A bilingual collection of poetry. Translated by Raghid Nahhas. Kalimat, Sydney.

Nahhas, Raghid 2016 (Translator). The Poem of Istanbul. A bilingual collection of Jihad Elzein's *Qassidat Istanbul*, Bada'e', Beirut.

Nahhas, Raghid 2015. The Poem of Istanbul. A translation of Jihad Elzein's poetry collection قصيدة اسطنبول (published by Dar al-Fikr al-Hadith, Beirut, Lebanon 2002). Kalimat, Sydney.

Nahhas, Raghid 2015. Thirty-Four Tales. Translations of contemporary Australian short stories. 2nd Edition, Kalimat, Sydney.

Nahhas, Raghid 2015. Verses Across the Tasman. Translations of contemporary poetry from Australia and New Zealand. Kalimat, Sydney.

Nahhas, Raghid 2013. طلٌّ وشرر (Dew and Sparks). In Arabic. A collection of writings, including short stories and articles with focus on social and intellectual critique. Kalimat, Sydney.

Nahhas, Raghid 2012. Your Name Is My Memory. Translation of a poetry collection by Khalid al-Hilli. Papyrus Publishing, Melbourne.

Nahhas, Raghid 2010. Arabesque of Love. Translations of poems by Maher Kheir from various published collections. Papyrus Publishing, Melbourne.

Nahhas, Raghid 2005. Fiday, Sunday – Chapters from the Biography of a City on the Mediterranean. (A translation of Khalid Ziadé's book يوم الجمعة، يوم الأحد – مقاطع من سيرة مدينة على البحر المتوسّط). Kalimat, Sydney.

Nahhas, Raghid & Noel Abdulahad 2004. Papers of Solitude. A translation of Shawki Moslemani's poetry collection أوراق العزلة. Kalimat, Sydney.

Abdulahad, Noel & Raghid Nahhas 2004. Where the Wolf Is. A translation of Shawki Moslemani's poetry collection حيث الذئب. Kalimat, Sydney.

Nahhas, Raghid 1999. Whispers from the Faraway South, Translations of Selected Australian Poetry, *Alabgdya*, Damascus. Assisted with a grant from the Australia Council.

LINES AND COLOURS

'Lines and Colours' reminds us of the works of Nietzsche and Gibran. It contains philosophical statements and new insights, from which one can draw lasting quotations on various issues.

It is a 'panoramic' view over several places, cities, personalities and subjects, rich with contemplations and questions about the universe, people and their environment.

It is full with the author's ideas on love, friendship, poetry, literature, politics, journalism, publishing, society and family.

This is an attractive, enjoyable book written by an outstanding thinker.

Bassam Frangieh
Professor of Arabic Literature, USA

"خطوط وألوان" هو ثمرة أخرى من شجرة الدكتور رغيد النحّاس المتشعّبة والضاربة في عمق الأرض. الكتاب إسهام غنيّ، يسلّط ضوءًا يخترق ضبابيّة الذكريات والأحلام، ويدخل مستودع العقل الباطن ليغوص في أعماق اللاوعي، بما فيه من تجارب وعلاقات وأسرار متراكمة، ثم يعيد تشكيل الماضي من أجل تفسير الحاضر وفهمه بقناعة جديدة مبنيّة على فلسفة فيها الكثير من المنطق والحكمة.

الكتاب يذكّرنا بكتابات نيتشه وجبران. فيه من الأقوال الفلسفيّة والرؤى الجديدة ما يمكن أن تسحب منه اقتباسات خالدة لمواضيع شتّى. وهو بانوراما واسعة تنتقل فيها الكاميرا من مكان إلى مكان، ومن مدينة إلى أخرى، ومن شخصيّة أدبيّة إلى شخصيّة سياسيّة، ومن صديق إلى صديق، ومن الحبّ إلى الحرب، ومن دمشق إلى بغداد، ومن بيروت إلى سيدني، ومن موضوع إلى موضوع.

الكتاب مجبول بفكر نيّر منفتح، وغنيّ بنظريّات الكاتب في الحبّ والصداقة والشعر والنشر والأدب والصحافة والعلاقات الاجتماعيّة والعائليّة.

في الكتاب خواطر وتأمّلات وتساؤلات عن الكون والناس والأشياء. فيه فلسفة شاعر متوقّد الحسّ، متلهّف لمعرفة طبيعة الإنسان. فيه رحلات روحيّة مجبولة بأنفاس مرهفة المشاعر. الكاتب يراقب الناس، ويراقب العالم، ويراقب كيف يتعامل الناس مع العالم، وكيف يتعامل العالم مع الناس، ويعرّفنا كيف يفهم الأمور وكيف يقيّمها.

الكتاب جذّاب وممتع، ولا يستطيع القارئ أن يتركه جانبًا بعد قراءة سطره الأوّل. وهو كذلك وثيقة أدبيّة وسياسيّة واجتماعيّة وشخصيّة هامّة، كتبها أديب ومفكّر مرموق.

بسّام فرنجيّة

بروفسور في الأدب العربيّ في

جامعات الولايات المتّحدة الأميركيّة